Copyright © King Saud University

٨١٠

ك كتاب في الادب العربي ، خط القرن الثاني عشر الهجري تقديرا .

١٤٥ ق ٢٠ س ٢٠×١٣٫٥ سم

٣٧٤٠ نسخة وسط ممزقة ومتآكلة الأطراف خطها نسخ معتاد . ناقصة الاول والآخر .

١- ادب اللغة العربية أ- تاريخ النسخ .

Copyright © King Saud University

على ان من المعروف ما لا كلفة على موليه ولا مشقة على
مسديه وانما هو جاه يستظل به الادنى ويرتفق به التابع وقال
الشاعر ظل الغني يجمع من دونه ومالـه في ظله حظ

واعلم انك لن تستطيع ان توسع جميع الناس معروفك ولا ان
توليهم احسانك فاعتمد بذلك اهل الفضل منهم والحفاظ و
واقصد به ذوي القرابة والوداد ليكون معروفك فيهم ناميا
وصنيعك زاكيا فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا
تنفع الصنيعة الا عند ذي حسب ودين وقال النبي صلى الله عليه وسلم
اذا اراد الله بعبد خيرا جعل صنايعه في اهل الحفاظ وقال
حسان بن ثابت

ان الصنيعة لا تكون صنيعة ... حتى يصاب بها طريق المصنع
فاذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها ... لله او لذوي القرابة او دع

وقيل في منثور الحكم لا خير في معروف الى غير عرف و
وقد ضرب به الشاعر مثلا فقال

كحمار السوء ان اشبعته ... رمح الناس وان جاع نهق

وقال بعض الحكما على قدر الغارس يكون اجتنا الغارس
ما اخذه بعض الشعرا فقال

لعمرك ما المعروف في غير اهله ... وفي اهله الا كبعض الودايع
فمستودع ضاع الذي كان عنده ... ومستودع ما عنده غير ضايع
وما الناس في شكر الصنيعة عندهم ... وفي كفرها الا كبعض المزارع

فمن زرعه طابت واضعف نبتها • ومن زرعه اكدت على كل زارع •

فاما من أسدي اليه واصطنع اليه الاحسان فقد صار باسر
المعروف موثوقا وفي ملكة الاحسان مرقوقا ولزمه ان كان
من اهل المكافاة ان يكافي عليها وان لم يكن من اهلها ان يقابل
المعروف بنشره ويقابل الفاضل بشكره روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال من اودع معروفا فلينشره فان نشره فقد شكره وان
كتمه فقد كفره وروى الزهري عن عروة عن عايشة رضي الله عنها
قالت دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا انشد بهذين البيتين

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه • يوما فتدركه العواقب قد نما •
يجزيك او يثني عليك وان من • اثنى عليك بما فعلت فقد جزى •

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ردي علي قول اليهودي قاتله الله لقد
اتاني جبريل برسالة من ربي تعالى ايما رجل صنع الى اخيه
صنيعة فلم يجد لها جزاء الا الدعاء والثنا فقد كافاه وقيل في
منثور الحكم الشكر قيد النعم وقال عبد الحميد من لم يشكر
الانعام فاعدده من الانعام وقيل في منثور الحكم قيمة كل
نعمة شكرها وقال بعض الحكما كفر النعم من امارات البطر
واسباب الغير وقال بعض الفصحا الكريم شكور او مشكور
واللئيم كفور او مكفور وقال بعض الفصحا البلغا لا زوال للنعمة
مع الشكر ولا بقا لها مع الكفر وقال بعض الادبا •

شكر الاله بطول الثنا • وشكر الولاة بصدق الولا •

صلحاؤها فجارها ولم ينل اخيارها اشرارها فاذا فعلوا ذلك رفع
الله عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب
وضربهم بالفاقة والفقر وملا قلوبهم رعبا ومن ادابهم
نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقناعة بالميسور عن كد الطلب
فان شبه المكسب اثم وكد الطلب ذل والاجر اجدر به من
الاثم والعز احق به من الذل وانشدني بعض اهل الادب
لعلي بن عبد العزيز القاضي •

يقولون لي فيك انقباض وانما • رأوا رجلا عن موقف الذل احجما •
ارى الناس من داناهم هان عندهم • ومن اكرمته عزة النفس اكرما •
ولم اقض حق العلم ان كان كلما • بدا طمع صيرته لي سلما •
وما كل برق لاح لي يستفزني • ولا كل من في الارض ارضاه منعما •
اذا قيل هذا منهل قلت قد ارى • ولكن نفس الحر تحتمل الظما •
انهنهها عن بعض ما لا يشينها • مخافة اقوال العدى فيم او لما •
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي • لاخدم من لاقيت لكن لاخدما •
أأشقى به غرسا واجنيه ذلة • اذا فاتباع الجهل قد كان احزما •
ولو ان اهل العلم صانوه صانهم • ولو عظموه في النفوس لعظما •
ولكن اهانوه فهان ودنسوا • محياه بالاطماع حتى تجهما •

على ان العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق
النية فيه لم تكن له همة فيما يجد بدا منه وقد قال بعض البلغا
من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة

ومن آنسه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الاخوان وقال
بعض الحكما لا شيء كالعلم ولا ظهير كالحلم ومن آدابهم
ان يقصدوا وجه الله بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه
بارشاد من ارشدوا من غير ان يعتاضوا عليه عوضا ولا
يلتمسوا عليه رزقا فقد قال الله تعالى ولا تشتروا باياتي ثمنا
قليلا قال ابو العالية لا تاخذوا عليه اجرا وهو مكتوب عندهم
في الكتاب الاول يا ابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا وروي
عن النبي صلى الله عليه وسلم اجر المعلم كاجر الصايم القايم وحسب
من هذا الاجر ان يلتمس اجرا ومن آدابهم نصح من علموا والرفق
بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم
فان ذلك اعظم لاجرهم واسنى لذكرهم وانشر لعلومهم
وارسخ لمعلومهم وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لعلي
بن ابي طالب يا علي لأن يهدي الله بك رجلا خير مما طلعت
عليه الشمس ومن آدابهم ان لا يعنفوا متعلما ولا يحقروا
ناشئا ولا يستصغروا مبتدئا فان ذلك ادعى اليهم واعطف
عليهم واحث على الرغبة فيما لديهم وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال علموا ولا تعنفوا فان المعلم خير من المعنف
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال وقروا من تتعلمون منه
ووقروا من تعلمونه ومن آدابهم ان لا يمنعوا طالبا ولا
ينفروا راغبا ولا يوئسوا متعلما لما في ذلك من قطع الرغبة

فمنهم من يرى ان الاستكثار منهم اولى ليكونوا اقوى منعة
وبينا واوفر حبا وتوددا واكثر تعاونا وتسعفا وقيل
لبعض الحكما ما العيش فقال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة
الاخوان وقد قيل حلية المرء كثرة اخوانه ومنهم من يرى
ان الاقلال منهم اولى لانهم اخف اثقالا واقل تنازعا
وخلفا وقد قال الاسكندر المستكثر من الاخوان من غير اختيار
كالمستوفر من الحجارة والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذي
يتخير الجوهر وقال عمرو بن العاص من كثر اخوانه كثر غرماؤه
وقال ابرهيم بن العباس مثل الاخوان كالنار قليلها متاع وكثيرها
بوار ولقد احسن ابن الرومي في هذا المعنى ونبه على العلة
حيث يقول

عدوك من صديقك مستفاد … فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء اكثر ما تراه … يكون من الطعام او الشراب
فدع عنك الكثير فكم كثير … يعاف وكم قليل مستطاب
اذا انقلب الصديق غدا عدوا … مبينا والامور الى انقلاب
فما اللجج الملاح بمرويات … وتلقى الري في النطف العذاب

وقال بعض البلغا ليكن غرضك في اتخاذ الاخوان والاخلا
واصطناع النصحا تكثير العدة وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع
فواحد يحصل المراد خير من الف تكثر الاعداد واذا كان
التجانس والتشاكل من قواعد الاخوة واسباب المودة كان وفور
العقل وظهور الفضل يقتضي من حال صاحبه قلة اخوانه لانه

يرى ومن مثله و يطلب مشكله وامثاله من ذوي العقل والفضل
اقل اهم من اضداد ذوي الحمق والنقص لان الخيار في كل جنس
هو الاقل ولذلك كما قال وفور العقل والفضل وقد قال الله تعالى
ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون فقل
لهذا التعليل اخوان اهل الفضل لقلتهم وكثر اخوان ذوي
النقص والجهل لكثرتهم وقد قال في ذلك الشاعر
لكل امرء شكل من الناس مثله • فاكثرهم شكلا اقلهم عقلا
وكل اناس يألفون لشكلهم • فاكثرهم عقلا اقلهم شكلا
لان كثير العقل لست بواجد • له في طريق حين تسلكه مثلا
وكل سفيه طائش ان فقدته • وجدت له في كل ناحية عدلا
واذا كان الامر على ما وصفنا فقد ينقسم احوال من دخل
في عداد الاخوان اربعة اقسام منهم من يعين ويستعين ومنهم
من لا يعين ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم
من يعين ولا يستعين فاما المعين المستعين فهو معاوض
منصف يؤدي ما عليه ويستوفي ماله فهو كالمقرض يسعف
عند الحاجة ويسترد عند الاستغنا فهو مشكور في معونته
ومعذور في استعانته وهذه اعدل احوال الاخوان
واما من لا يعين ولا يستعين فهو متارك قد منع خيره
وقمع شره فلا هو صديق يرجى ولا عدو يخشى وقد قال
المغيرة بن شعبة التارك للاخوان متروك ومن كان كذلك

مزحا فقد عصى الله تعالى ورسوله وصهيب قد كان اطوع لله ورسوله
من ان يكون بهذه المنزلة منه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا
سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق فارس وبلال سابق
الحبش ومن مستحسن المزح ومستنتج الدعابة ما حكى الزبير بن بكار
عن الكشيري ان القشيري وقف عليه شيخ من الاعراب فقال يا اعرابي ممن
انت قال من بني عقيل قال من اي عقيل قال من بني خفاجة فقال
القشيري • رايت شيخا من بني خفاجة • فقال الاعرابي ما شانه قال
له اذا جن الظلام حاجة • قال الاعرابي ما هي قال • كحاجة الديك الى
الدجاجة • فاستغرب الاعرابي وقال قاتلك الله ما اعرفك بسرائر القوم
فانظر كيف بلغ بهذا المزح غايته ولسانه نزه وعرضه مصون
وهذا غاية ما يتمازح به الفضلا من الخلاعة وان كان مستكره
العموم والنزاهة عن مثله اولى وليحذر ان يسترسل في ممازحة
عدو فيجعل له طريقا الى اعلان المساوي وهو يحسب ونصح له
في السعي مزحا وهو كيد وقد قال بعض الحكما اذا مازحت عدوك
اظهرت عيوبك فاما الضحك فان اعتياده شاغل عن
النظر في الامور المهمة مذهل عن الفكر في النوائب الملمة
وليس لمن اكثر منه هيبة ولا وقار ولا لمن وسم به خطر ومقدار
روى ابو ادريس الخولاني عن ابي ذر الغفاري قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب بنور
الوجه وقد حكى عن ابن عباس في قوله تعالى ما لهذا الكتاب لا يغادر

صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ان الصغيرة الضحك وقال عمر بن الخطاب رضي
من كثر ضحكه قلت هيبته وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه
اذا ضحك العالم ضحكة مج من علمه مجة وقيل في منثور الحكم
ضحكة المؤمن غفلة من قلبه والقول في الضحك كالقول في المزاح ان كان ما
الانسان نفر عنه واوحش منه وان الفه كان حاله ما وصفنا فليكن
بدل الضحك عند الايناس تبسما وبشرا وقد قال عمر بن الخطاب رض
التبسم دعابة وهذا ابلغ في الايناس من الضحك الذي قد يكون
استهزاء او تعجبا فليس يكن منه المرة النادرة لطارئ استغفل النفس
عن دفعه هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو املك الخلق لنفسه
قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما كان ذلك منه على وجه الخلق الذي ذكرناه

الفصل السادس في الطيرة والفال اعلم

انه ليس شيء اضر بالفال بالراي ولا افسد للتدبير من اعتقاد
الطيرة ومن ظن ان خوار بقرة او نعيب غراب يرد قضاء او يدفع
مقدورا فقد جهل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا عدوى
ولا هامة ولا طيرة ولا صفر فالعدوى ما يظنه الناس من تعدي
العلل والامراض فاخبر انه لا تعدي فقيل يا رسول الله انا نرى
النقبة النقبة من الجرب في مشفر البعير فتعدي الى جماعته فقال
صلى الله عليه وسلم فما اعدى الاول واما الهامة فهو ما كانت العرب
في الجاهلية تعتقده من ان القتيل اذا طل دمه فلم يدرك بثاره
صاحت هامته في القبر اسقوني قال الزبرقان بن بدر

يا عمرو ان لا تدع شتمي ومنقصتي • اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقال ابن هرمه

وكيف وقد صاروا عظاما واقبرا • يصيح صداها بالعشي وهامها
تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة • تريع الى ورد الفناء كرامها

واما الصفر فهو كالحية تكون في الجوف يصيب الماشية والناس
وهو اعدى عندهم من الجرب وفيه يقول الشاعر

لا يمسك الساق من اين ولا وصب • ولا يعض على شرسوفه الصفر

وروى ابو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا ظننتم فلا
تحققوا واذا حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم فامضوا وعلى الله
فتوكلوا وقال الشاعر

طيرة الناس لا ترد قضاء • فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
اي يوم يخصه بسعود • والمنايا ينزلن في كل يوم
ليس يوم الا وفيه سعود • ونحوس تجري لقوم وقوم

وقد كانت الفرس اكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا
ارادت سفرا نفرت اول طائر تلقاه فان طار يمنة سارت وتيمنت
وان طار شامة رجعت وتشاءمت فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن
ذلك وقال اقروا الطير على وكناتها وحكي عن عكرمة قال كنا
جلوسا عند ابن عباس فمر طائر يصيح فقال رجل خير فقال ابن عباس
[illegible] من عا[illegible] وقال لبيد

[illegible] الطوارق بالحصى • ولا زاجرات الطير ما الله صانع

واعلم انه ليس يخلو من الطيرة احد لاسيما من عارضته المقادير في ارادته وصده القضا عن طلبته فهو يرجو واليأس عليه اغلب ويامل والخوف اليه اقرب فاذا عاقه القضا وخانه الرجا جعل الطيرة عذر خيبته وغفل عن قضاء الله عز وجل ومشيته فهو اذا تطير من بعد احجم عن الاقدام ويئس من الظفر وظن ان القياس فيه مطرد وان العبرة فيه مستمرة ثم يصير ذلك له عادة فلا ينجح له سعي ولا يتم له قصد فاما من ساعدته المقادير ووافقه القضا فهو قليل الطيرة لاقدامه ثقة باقباله وتعويلا على سعادته فلا يصده خوف ولا يكفه خور فلا يؤوب الا ظافرا ولا يعود الا منجحا لان الغنم بالاقدام والخيبة مع الاحجام فصارت الطيرة من سمات الادبار واطراحها من امارات الاقبال فينبغي لمن مني بها وبلي ان يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعي الخيبة وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا في نقض عزائمه ومعارضة خالقه ويعلم ان قضا الله غالب وان رزقه له طالب وان الحركة سبب فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقا ولا يدفع مقدورا وليمض في عزائمه واثقا بالله ان اعطى وراضيا به ان منع وقد روى ابو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثة في الانسان الطيرة والظن والحسد فمخرجه من الطيرة ان لا يرجع ومخرجه من الظن ان لا يحقق ومخرجه من الحسد ان لا يبغي وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال كفارة الطيرة التوكل على الله

الطيرة

وقال علي بن ابي طالب لا تكن ممن يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين ان اعطي منها لم يشبع وان منع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما اوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي ينهى ولا ينتهي ويامر بما لا ياتي يحب الصالحين ولا يعمل بعملهم ويبغض الظالمين وهو منهم وقال الحسن البصري الدنيا كلها غم فما كان فيها من سرور فهو ربح وقال بعض البلغاء ان الدنيا كثيرة التغيير سريعة التنكير شديدة المكر دائمة الغدر فاقطع اسباب الهوى عن قلبك واجعل ابعد املك بقية يومك وكن كانك ترى ثواب عملك وقال بعض الحكما الدنيا اما مصيبة موجعة او منية مفجعة وقال بعض الشعرا

خل دنياك فانها ٭ يعقب الخير شرها
هي ام تعق من ٭ نسلها من يبرها
كل نفس فانها ٭ تبتغي ما يضرها
والمنايا تسوقها ٭ والاماني تغرها
فاذا استحلت الجنا ٭ اعقب الحلو مرها
يستوي في ضريحه ٭ عبدارض وحرها

فاذا رضيت نفسك من هذه الحال بما وصفت اغتنمت منها ثلث خلال احداهن ان تكفى اشفاق المحب وحذار الوامق فليس لمشفق ثقة ولا لحاذر راحة والثاني ان تامن الاغترار بملاهيها فتسلم من عادية دواهيها فاللاهي بها مغرور والمغرور فيها مدحور والثالثة ان تستريح من تعب السعي لها ووصب الكد فيها فان

من احب شيئاً طلبه ومن طلب شيئاً كلِبَ له والمكدود فيها شقي وان
ظفر ومحروم ان خاف وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لكعب
الناس غاديان فغاد نفسه فمعتقها وموبق نفسه فموبقها وقال عيسى
بن مريم عليه السلام تعملون للدنيا وانتم ترزقون فيها بغير عمل ولا
تعملون للآخرة وانتم لا ترزقون فيها الا بعمل وقال بعض البلغا
من نكد الدنيا انها لا تبقى على حالة ولا تخلص من استحالة تصلح جانبا
بافساد جانب وتسر صاحبا بمساءة صاحب فالكون فيها خطر والثقة
بها غرر وقال بعض الحكما الدنيا مرتجعة الهبة والدهر
حسود لا يأتي على شيء الا غيره ولمن عاش حاجة لا تنقضي
ولما بلغ مروك من الدنيا افضل ما سمت اليه نفسه نبذها
وقال هذا اشرف لولا انه غرور ونعيم لولا انه عديم وملك
لولا انه هالك وغنى لولا انه فنا وجسيم لولا انه ذميم ومحمود
لولا انه مفقود وغنى لولا انه منى وارتفاع لولا انه اتضاع وعلا
لولا انه بلا وحسن لولا انه حزن وهو يوم لو وثق به بعد وقال
بعض الحكما قد ملك غير واحد من راغب وزاهد فلا الراغب فيما
اسعف ولا الزاهد فيما كسب وقال ابو العتاهية

هي الدار دار الاذى والقذى * ودار الفناء ودار الغير
فلو نلتها بحذافيرها * لمت ولم تقض منها الوطر
أيا من يؤمل طول الخلود * وطول الخلود عليه ضرر
اذا ما كبرت وبان الشباب * فلا خير في العيش بعد الكبر

وقال عبد الحميد من اعظمك لاستقلالك اهانك عند اقلالك
وان كان العقد رغبة في الجمال فذلك ادوم للالفة من المال
لان الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة ولذلك قيل حسن الصورة
اول السعادة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اعظم النساء
بركة احسنهن وجها واقلهن مهرا فان سلمت الحال من الادلال
المفضي الى الملل اشتدت الالفة واستحكمت الوصلة وقد كانوا
يكرهون الجمال البارع اما لما يحدث منه من شدة الادلال وقد
قيل من بسط الادلال قبضه الاذلال واما لما يخاف عليه من
محن الغيبة وبلوى النازعة وقيل ان رجلا شاور حكيما في التزويج
فقال افعل واياك والجمال البارع فانه أنيق قال وكيف ذاك
لما قال الاول

ولن تصادف مرعى ممرعا ابدا * الا وجدت به آثار منتجع

واما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة ويتوقاه العاقل من عواقب
الفتنة وقد قال بعض الحكما اياك ومخالطة النساء فان لحظ
المراة سهم ولفظها سم ورأى بعض الحكما صيادا يكلم
امراة فقال يا صياد احذر ان تصاد وقال سليمان بن داود
عليهما السلام لابنه امش وراء الاسد ولا تمش وراء المراة
وسمع عمر بن الخطاب رض امراة تقول

ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشتهي شم الرياحين

فقال عمر رض

ان النساء شياطين خلقن لكم * نعوذ بالله من شر الشياطين

وان كان العقد رغبة في الدين فهو اوثق العقود حالا وادومها
الفة واحمدها (واحسنها) بدءا وعاقبة لان طالب الدين متبع له ومن
اتبع الدين انقاد له فاستقامت حاله وامن زلله ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم فاظفر بذات الدين تربت يداك وفيه تاويلان
احدهما تربت يداك ان لم تظفر بذات الدين والثاني انها كلمة
تذكر للمبالغة ولا يراد بها سوء كقولهم ما اشجعه قاتله الله
وان كان العقد رغبة في الالفة فهذا قد يكون على احد وجهين اما
ان يقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين والمظاهرة بتناصر الفئتين واما
ان يقصد به تالف اعداء مستطيلين استكفافا لعاديتهم وتسكينا
لصولتهم وهذان الوجهان قد يكونان في الاماثل واهل المنازل
وداعي الوجه الاول هو الرغبة وداعي الوجه الثاني هو الرهبة
وهما سببان في غير المتناكحين فان استدام السبب دامت الالفة
وان زال السبب بزوال الرغبة والرهبة خيف زوال الالفة الا ان
ينضم اليها احد الاسباب الباعثة عليها والمقوية لها وان كان
العقد رغبة في التعفف فهو الوجه الحقيقي المبتغى بعقد النكاح
وما سواه فاسباب معلقة عليه او مضافة اليه روي انه لما نزل
قوله تعالى يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق
منها زوجها قال النبي صلى الله عليه وسلم خلق الرجل من التراب فهمته
في التراب وخلقت المراة من الرجل فهمها في الرجل وروي عطية بن
بسر عن عكاف بن وداعة الهلالي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له

ولن تجد الاخلاق على ما وصفنا من حد المروءة منطبعة ولا عن
المراعاة مستغنية وانما المراعاة هي المروءة لا ما انطبعت عليه
النفوس من فضائل الاخلاق لان غرور الهوى ونوازع الشهوة
يصرفان النفس عن الافضل من خلائقها والاجمل من طرائقها وان
سلمت منهما فبعيد ان تسلم لما استكملت شرف الاخلاق طبعا
ولا استغنت عن تهذيبها تكلفا وتصنعا قال الشاعر

من لك بالمحض وليس محض ۞ يخبث بعض ويطيب بعض

ثم لو استكمل الفضل طبعا وتوقي المغرور ان يكون مستعملا لكان
في المستحسن من عادات دهره والموضوع من اصطلاح عصره من
حقوق المروءة وشروطها ما لا يتوصل اليه الا بالمعاناة ولا يوقف عليه
الا بالتفقد والمراعاة فثبت ان مراعاة النفس على افضل احوالها
هي المروءة واذا كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها الا
من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد وهانت عليه الملاذ حذرا
من الذم ولذلك قيل سيد القوم اشقاهم وقال ابو تمام الطائي

والحمد شهد لا يرى مشتاره ۞ يجنيه الا من نقيع الحنظل
غل لحامله ويحسبه الذي ۞ لم يوه عاتقه خفيف المحمل

وقد لحظ المتنبي ذلك في قوله

لولا المشقة ساد الناس كلهم ۞ الجود يفقر والاقدام قتال

وقوله

واذا كانت النفوس كبارا ۞ تعبت في مرادها الاجسام

والداعي الى استسهال ذلك شيئان هما علو الهمة وشرف

النفس اما علو الهمة فلانه باعث على التقدم وداع الى التخصص
انفة من خمول الضعة واستنكافا من المهانة النقص ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يحب معالي الامور واشرافها
ويكره سفسافها وروي عن عمر بن الخطاب رض انه قال لا
تصغرن هممكم فاني لم ار اقعد عن المكرمات من صغر الهمم
وقال بعض الحكما الهمة راية الجد وقال بعض البلغا علو
الهمم بذر النعم وقال بعض العلما اذا طلب رجلان امرا
ظفر به اعظمها مروة وقال بعض الادبا من ترك التماس
المعالي بسوء الرجا لم ينل جسيما واما شرف النفس فانه به يكون
قبول التاديب واستقرار التقويم والتهذيب لان النفس ربما جمحت
من الافضل وهي به عارفة ونفرت من التاديب وهي له مستحسنة
لانها عليه غير مطبوعة وله غير ملايمة فتصير منه انفر ص
ولضده الملايم آثر ولذلك قيل ما اكثر من يعرف الحق ولا
يطيعه فاذا شرفت النفس كانت للاداب طالبة وفي الفضايل راغبة
فاذا امازجها صادف طبعا ملايما فنمى واستقر فاما من منى
بعلو الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عرضة لامر اعوزته
آلته وافسدته جهالته فصار كضرير يروم الكتبة واخرس
يريد الخطبة فلا يزيده الاجتهاد الا عجزا والطلب الا تعوزا
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هلك امرء عرف قدره
وقيل لبعض الحكما من اسوء الناس حالا قال من بعدت

همته واتسعت امنيته وقصرت آلته وقلت مقدرته وقال افنون التغلبي
ولا خير في ما يكذب المرء نفسه ... وتقواله للشي ياليت ذا ليا
لعمرك ما يدري امرء كيف يتقي ... اذا هو لم يجعل له الله واقيا
وقال بعض الحكما تجنبوا المنى فانها تذهب بهجة ما خولتم
وتستصغرون نعمة الله عندكم وقيل في منثور الحكم المنى من
بضايع النوكى وان صادف بهمته حظا نال به املا كان فيما
نال كالمغتصب وفيما وصل اليه كالمتغلب اذ ليس في الحقوق تقدير
بحق ولا تمييز لمستحق وانما هي كالسحاب الذي قد يمسك عن منابت
الاشجار الى مغايض البحار وينزل حيث صادف من خبث وطيب
فان صادف ارضا طيبة نفع وان صادف ارضا صلبة ضر كذلك
الحظ ان صادف نفسا شريفة نفع وكان نعمة عامة وان صادف
نفسا دنية ضر وكان نقمة طامة حكي ان موسى عليه السلام دعا
على قوم بالعذاب فاوحى الله تعالى اليه قد ملكت سفلتها على عليتها
فقال يا رب كنت احب لهم عذابا عاجلا فاوحى الله تعالى اليه
اوليس هذا كل العذاب العاجل الاليم فاما شرف النفس اذا
تجرد عن علو الهمة فان الفضل به عاطل والقدر به خامل وهو
كالقوة في الجلد الكسل والجبان الفشل يضيع قوته بالكسل وجلده
بفشله وقيل في منثور الحكم من دام كسله خاب امله وقال
بعض الحكما نكح العجز التواني فخرج بينهما الندامة ونكح الشوم
الكسل فخرج بينهما الحرمان وقال بعض الشعرا

اذا انت لم تعرف لنفسك حقها   هوانا بها كانت على الناس اهونا
فنفسك اكرمها وان ضاق مسكن   عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا
واياك والسكنى بدار مذلة   يعد مسيئا فيه من كان محسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة اولى من علو الهمة مع دناءة
النفس لان من علت عليه همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى
طلب ما لا يستحقه ومتخطيا الى التماس ما لا يستوجبه ومن شرفت
نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحقه ومقصر عما يجب له
وفضل ما بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد منهما من
الذم نصيب وقد قيل لبعض الحكما ما اصعب شيء على
الانسان قال ان يعرف نفسه ويكتم الاسرار فاذا اجتمع
الامران واقترن بشرف النفس علو الهمة كان الفضل بهما ظاهرا
والادب بهما وافرا ومشاق الحمد بينهما مستسهلة وشروط المروة
منهما متاتية وقد قال الحصين بن المنذر الرقاشي

ان المروة ليس يدركها امرؤ   ورث المكارم عن اب فاضاعها
امرته نفس بالدناة والخنا   ونهته عن سبل الهدى فاطاعها
فاذا اصاب من المكارم خلة   يبني الكريم بها المكارم باعها

واعلم ان حقوق المروة اكثر من ان تحصى واخفى من ان
تظهر لان منها ما يقوم في الوهم حسا ومنها ما يقتضيه شاهد
الحال حدسا ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل فلذلك
اعوز استيفا شروطها الا اجمالا ينبه عليها الفاضل بفطنته ويحـ

يستدل العاقل عليها بفطرته وان كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا
من حقوق المروة وشروطها وانما نذكر في هذا الفصل الاشهر
من قواعدها واصولها والاظهر من شروطها وحقوقها محصورا
في تقسيم جامع وهي تنقسم قسمين احدهما شروط المروة في
نفسه والثاني شروطها في غيره فاما شروطها في نفسه بعد
التزام ما اوجبه الشرع من احكامه فيكون بثلثة امور وهي
العفة والنزاهة والصيانة فاما العفة فنوعان احدهما
العفة عن المحارم والثاني العفة عن المآثم فاما العفة
عن المحارم فنوعان احدهما ضبط الفرج عن الحرام والثاني كف
اللسان عن الاعراض فاما ضبط الفرج عن الحرام فلانه مع وعيد
الشرع وزاجر العقل معرة واضحة وهتكة فاضحة ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم من وقي شر ذبذبه ولقلقه وقبقبه فقد و
نعم الحي يريد بذبذبه الفرج وبلقلقه اللسان وبقبقبه البطن
وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال احب العفاف الى الله تعالى عفاف البطن
والفرج ويحكى ان معاوية سال عمرا عن المروة فقال تقوى
الله عز وجل وصلة الرحم وسال المغيرة فقال هي العفة عما حرم
الله عز وجل والحرفة فيما احل الله عز وجل وسال يزيد فقال هي
الصبر على البلوى والشكر على النعمى والعفو عند القدرة فقال
انت مني حقا وقال انوشروان لابنه هرمز الكامل المروة
من حصن دينه ووصل رحمه واكرم اخوانه وقال بعض الحكما

من أحب المكارم اجتنب المحارم وقيل عار الفضيحة يكدر لذاتها
وانشد بعض اهل الأدب للحسين بن علي رضي الله عنهما
الموت خير من ركوب العار . والعار خير من دخول النار
والله من هذا وهذا جاري . والداعي الى ذلك شيان احدهما
ارسال الطرف والثاني اتباع الشهوة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال لعلي يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان الاولى لك والثانية
عليك وفي قوله لا تتبع النظرة النظرة تاويلان احدهما لا تتبع عينك
نظرة قلبك والثاني لا تتبع النظرة الاولى التي وقعت سهوا بالنظرة
الثانية التي تعمدتها او قال عيسى عليه السلام اياكم والنظرة بعد
النظرة فانها تزرع في القلوب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة وقال
علي رضي الله عنه العيون مصايد الشيطان وقال بعض الحكما من ارسل
طرفه استدعى حتفه وقال بعض الشعرا
وانت متى ارسلت طرفك رايدا . لقلبك يوما اتعبتك المناظر
رايت الذي لا كله انت قادر . عليه ولا عن بعضه انت صابر
واما الشهوة فهي خادعة العقول وغادرة الالباب ومحسنة
القبايح ومسولة الفضايح وليس له غطب الادمي له سبب وعليه البلا
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اربع من كن فيه وجبت له الجنة
وحفظ من الشياطين من ملك نفسه حين ترغب وحين ترهب وحين تشتهي
وحين تغضب وقهرها عن هذه الحال يكون بثلثه امور احدها
غض الطرف عن اثارتها وكفه عن مساعدتها فانه الرايد المحرك والقايد

الفصل الثالث في المشورة اعلم

ان من الحزم لكل ذي لب ان لا يبرم امرا ولا يمضي عزما
الا بمشورة ذي الراي الناصح ومطالعة ذي العقل الراجح فان
الله تعالى امر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفل
به من ارشاده ووعده به من تاديبه فقال وشاورهم في
الامر فقال قتادة امره بمشاورتهم تالفا لهم وتطيبا
لانفسهم وقال الضحاك امره بمشاورتهم لما علم فيها من
الفضل وقال الحسن البصري امره بمشاورتهم ليستن به
المسلمون ويتبعه فيها المومنون وان كان عن مشاورتهم غنيا
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المشاورة حصن من الندامة
وامان من الملامة وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه
نعم المؤازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد برايه
ورجل يشاور فيما اشكل عليه وينزل حيث يامره اهل
الراي ورجل جاير لا ياتمر رشدا ولا يطيع مرشدا وقال
عمر بن عبد العزيز ان المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا
بركة لا يضل معهما راي ولا يفقد معهما حزم وقال سيف
بن ذي يزن من اعجب برايه لم يشاور ومن استبد برايه كان
من الصواب بعيدا وقال عبد الحميد المشاور في رايه
ناظر من ورائه وقيل في منثور الحكم المشورة راحة
لك وتعب على غيرك وقال بعض الحكما الاستشارة عين الهداية

وقد خاطر من استغنى برايه وقال بعض الحكما الادبا ما
خاب من استخار ولا ندم من استشار وقال بعض البلغا من حق
العاقل ان يضيف الى رايه ارا العلما ويجمع الى عقله عقول الحكما
فالراي الفذ ربما زل والعقل الفرد ربما ضل وقال بشار بن برد

اذا بلغ الراي المشوره فاستعن • برا نصيح او نصيحة حازم •
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة • فريش الخوافي تابع للقوادم •

فاذا عزم على المشاورة ارتاد لها من اهلها من استكملت فيه خمس
خصال احداهن عقل كامل مع تجربة سالفة فان بكثرة التجارب
تصح الروية وقد روى ابو الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه
فتندموا قال عبد الله بن الحسن لابنه محمد احذر
مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل اذا
كان عدوا فانه يوشك ان يورطك بمشورته فيسبق اليك مكر
العاقل وتوريط الجاهل وقيل لرجل من عبس ما اكثر صوابكم
قال نحن الف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكانا الف حازم
وكان يقال اياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل
التجارب في غيره او كبير قد اخذ الدهر من عقله كما اخذ من جسمه
وقيل في منثور الحكم كل شي يحتاج الى العقل والعقل
يحتاج الى التجارب ولذلك قيل الايام تهتك عن الاسرار الكامنة
وقال بعض الحكما التجارب ليس لها غاية والعاقل منها

وهو المجاهرة بالظلم عتو مهلك وطغيان متلف وهو
يؤول ان استمر الى فتنة او جلاء اما الفتنة في الاغلب فتحيط
بصاحبها وتنعكس على البادي بها فلا تنكشف الا وهو بها مصروع
كما قال الله تعالى ولا يحيق المكر السيي الا باهله وروي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال الفتنة نائمة فمن ايقظها صار طعاما لها
وقال جعفر بن محمد رضي الله عنه الفتنة حصاد الظالمين
وقال بعض الحكما صاحب الفتنة اقرب شي اجلا واسو شي
عملا قال بعض الشعرا

وكنت كعنز السو قامت بظلفها • الى مدية تحت الثرى تستثيرها •

واما الجلا فقد يكون مع قوة الظالم وتطاول مدته فيصير
ظلمه في المكنة جلا او فنا كالنار اذا وقعت في يابس الشجر
فلا تبقي منه مع تمكنها شيا حتى اذا افنت ما وجدت خمدت كذلك
حال الظالم مهلك ثم هالك والباعث على ذلك شيان الجراة
والقسوة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوا الفضل والمعروف
عند الرحما من امتي تعيشوا في اكنافهم والصاد عن ذلك ان ترى
اثار الله عز وجل في الظالمين فان له فيهم عبرا وتتصور عواقب
ظلمهم فان فيها مزدجرا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
من اصبح ولم ينو ظلم احد غفر له ما اجترم وروى جعفر بن
محمد عن ابيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي اتق دعوة
المظلوم فانما يسال الله حقه ان الله عز وجل لا يمنع ذا حق حقه

وقيل في منثور الحكم ويل للظالم من يوم المظالم وقال
بعض البلغا من جار حكمه اهلكه ظلمه وقال بعض الشعرا
وما من يد الا يد الله فوقها   وما ظالم الا سيبلى بظالم
واما الاستسرار بالخيانه فضعف وضعه لانه بذل الخيانه مهين
ولقلة الثقه به مستكين وقد قيل في منثور الحكم من يخن يهن
وقال خالد الربعي قرات في بعض الكتب السالفه ان مما تعجل عقوبته
ولا تؤخر الامانه تخان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبغي على الناس
ولو لم يكن من ذم الخيانه الا ما يجده الخاين في نفسه من المذله لكفاه
زاجرا او لو تصور عقبى امانته وجدوى ثقته لعلم ان ذلك من
اربح بضايع جاهه واقوى شفعا تقدمه مع ما يجده في نفسه من العز
و يقابل عليه من الاعظام وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
أدِّ الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك وروى سعيد بن حبيب قال
لما نزلت ومن اهل الكتاب من ان تامنه بقنطار يوده اليك ومنهم من ان
تامنه بدينار لا يوده اليك الا ما دمت عليه قايما ذلك بانهم قالوا
ليس علينا في الاميين سبيل يعنون ان اموال العرب حلال لهم
لانهم من غير اهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب
اعدا الله ما من شي كان في الجاهليه الا وهو تحت قدمي الا الامانه
فانها موداه الى البر والفاجر ولا يجعل ما يتظاهر به من الامانه
زورا ولا ما يبديه من العفه غرورا فينهتك الزور وينكشف
الغرور فيكون مع هتكه التدليس اقبح وبمعرة الريا افضح

المهلك
وروى سعيد بن سنان عن انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال تقبلوا الي بست اتقبل لكم بالجنه قالوا وما هي يا رسول
الله قال اذا احدث احدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا
اوتمن فلا يخن وغضوا ابصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا
ايديكم والثاني ترغيبها في الحلال عوضا واقناعها بالمباح بدلا
فان الله تعالى ما حرم شيا الا واغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه
من نوازع الشهوه وتركيب الفطره ليكون ذلك عونا على طاعته وحاجزا
عن مخالفته وقد قال عمر بن الخطاب رض ما امر الله بشي الا
واعان عليه ولا نهى عن شي الا واغنى عنه والثالث اشعار النفس
تقوى الله عز وجل في اوامره واتقاوه في زواجره والزامها ما الزم من
طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته واعلامها انه لا يخفى عليه ضمير
ولا يعزب عنه قطمير وانه يجازي المحسن ويكافي المسي بذلك نزلت
كتبه وبلغت رسله وروى ابن مسعود ان اخر ما نزل من القران واتقوا
يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون
واخر ما نزل من التوراه اذا لم تستحي فاصنع ما شئت واخر ما نزل
من الانجيل شر الناس من لا يبالي ان يراه الناس مسيا واخر ما نزل
من الزبور من يزرع خيرا يحصد غبطه فاذا اشعرها ما وصفت
انقادت الى الكف واذعنت بالاتقا فسلم دينه وظهرت مروته
فهذه شروط واما كف اللسان عن الاعراض فلانه ملاذ
السفها وانتقام الغوغا وهو مستسهل الكلف ان لم يقهر نفسه عنه برادع

كاف وزاجر صاد تلبط بمعاره وتخبط بمضاره وظن انه لتحامي
الناس عنه حمى يتقى ورتبة تبتغى فهلك واهلك ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم الا ان دماكم واموالكم واعراضكم حرام عليكم فجمع
بين الدم والعرض لما فيه من ايغال الصدور وابدا الشرور واظهار
البذا واكتساب الاعدا ولا يبقى مع هذه الامور وزن لمرموق ولا
مروة لملحوظ ثم هو بها موتور وموزور ولاجلها مهجور ومزجور
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال شر الناس من اكرمه الناس
اتقا لسانه وقال بعض الحكما انما يهلك الناس بفضول الكلام
وفضول المال وما قدح في الاعراض من الكلام نوعان احدهما
ما قدح في عرض صاحبه ولم يتجاوزه الى غيره وذلك شيان
الكذب وفحش القول والثاني ما تجاوزه الى غيره وذلك اربعة اشيا
الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف او شتم وربما كان السب
انكاها للقلوب وابلغها اثرا في النفوس ولذلك زجر الله تعالى عنه
بالحد تغليظا وبالتعزير تشديدا او تصعيبا وقد يكون ذلك لاحد شيين
اما انتقام يصدر عن سفه او بذا يحدث عن لوم وقد روى ابو هريرة
ابو سلمة عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المومن غر كريم والفاجر
خب لئيم وقال ان القبح الاستطالة لسان الجهالة وكف النفس
عن هذه الحالة بما يصدها عن الزواجر اسلم وهو بذي المروة احمل
فهذا شرط واما العفة عن المآثم فنوعان احدهما
الكف عن المجاهرة بالظلم والثاني الاستسرار بالخيانة اما الاول

فاحسن وقال صلى الله عليه وسلم المستدين تاجر الله في ارضه وقال البحتري

ان لم يكن كنز فضل عطيته … يبغي بها باغي الرضى بعض الرضى
او لا تكن هبة فقرض يسترد … اسبابه وكواهب من اقرضا

ولئن كان الدين رقا فهو اهون من رق الافضال وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اراد البقا ولا بقا فليباكر الغدا وليخفف
الردا قيل وما خفة الردى من البقا قال قلة الدين فان اعوزه
ذلك الا استماحا فهو الرق المذل ولذلك قيل لا مروة لمقل و
قال بعض الحكما من قبل صلتك فقد باعك مروته واذل لقدرك
عزه وجلالته والذي يتماسك به الباقي في مروة الراغبين
والسبب النافع من صيانة السايلين وان لم يبق لذي رغبة مروة ولا
لسايل تصون اربعة امور هي جهد المضطر احدها ان يتجافى
ضرع السايلين وابهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالابهة وليكن
بالتجمل على ما يقتضيه حال مثله من ذوي الحاجات وقد قيل لبعض
الحكما متى يفحش زوال النعم قال اذا زال معها التجمل وانشد
بعض اهل الادب لعلي بن الجهم

هي النفس ما حملتها تتحمل … وللدهر ايام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة … واحسن حالات الرجال التفضل
ما ان زالت عن الحر نعمة … ولكن عارا ان يزول التجمل

والثاني ان يقتصر بالسوال على ما دعته اليه الضرورة وقادته
اليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة الى الاغتنام فيحرم باغتنا مه

فلا يعذرني ضرورته وقال بعض الحكماء من ألف المسألة ألفه المنع
والثالث ان يعذرني في المنع ويشكر على الاجابة فانه إن منع فعدلا
يملكه وان أجيب فالى ما لا يستحق وقال النمر بن تولب

لا تغضبن على امرئ في ماله ... وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

والرابع أن يعتمد على سؤال من كان للمسألة اهلا وكان النجح
عنده مأمولا فان ذوي المكنة كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم الخير كثير وقليل فاعله والمرجو للاجابة من تكاملت فيه
خصالها وهي ثلث احداهن كرم الطبع فان الكريم مساعد واللئيم معاند
وقد قيل المخذول من كانت له الى اللئام حاجة والثانية سلامة
الصدر فان العدو قد أكب على نكبتك وحرص على محنتك وقد
قيل من اوغرت صدره استدعيت شره فان رق لك بكرم طبعه و
رحمك بحسن ظفره فاعظم بها محنة أن يكون عدوك راحما لك
وقد قال الشاعر

وحسبك من حادث بامرئ ... ترى حاسديه له راحما

والثالث ظهور المكنة فانه من سأل ما لا يمكن فقد أحال وكان
كمستنهض المسجون ومستسعف المديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان
حقيقا وقد قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه من لا يعرف لا
حتى يقال لا فهو احمق ووصى عبد الله بن الاهتم ابنه فقال
يا بني لا تطلب الحوائج الى غير اهلها ولا تطلبها في غير حينها ولا
تطلب ما لست مستحقا فانك ان فعلت ذلك كنت حقيقا بالحرمان

زينة الكلام وحلى المعاني وتدبر الافهام

الفصل الثاني في الصبر والجزع

اعلم أن من حسن التوفيق وأمارات السعادات
الصبر في الملمات والرفق عند النوازل فبذلك نزل الكتاب
وجاءت السنة قال الله تعالى يا ايها الذين امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا
واتقوا الله لعلكم تفلحون يعني اصبروا على ما افترض عليكم
وصابروا عدوكم ورابطوا فيه تاويلان احدهما رابطوا على
الجهاد والثاني رابطوا على انتظار الصلوات روى ابو هريرة
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أدلكم على ما يحط الله به
الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال اسباغ
الوضوء عند المكاره وكثرة الخطى الى المساجد وانتظار الصلوة
بعد الصلوة فذلك الرباط فنزل الكتاب بتاكيد الصبر فيما
أمر به وندب اليه وجعله من عزائم التقوى فيما افترضه وحث
عليه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الصبر ستر على الكروب
وعون على الخطوب وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه
الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو وقال عبد الحميد
لم اسمع اعجب من قول عمر بن الخطاب رض لو أن الصبر والشكر
بعيران ما باليت ايهما ركبت وقال عبد الله بن عباس
رضي الله عنه افضل العدة الصبر على الشدة وقال بعض البلغا

من خير خلالك الصبر على اختلالك وقيل في منثور الحكم
من أحب البقا فليعد للمصائب قلبا صبورا وقال بعض الحكما
بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ وقال بعض
الشعرا اصبر النفس عند كل ملم ان في الصبر حيلة المحتال
لا تضيقن بالامور فقد تكشف غماؤها بغير احتيال
ربما تجزع النفوس من الامر له فرجة كحل العقال
وقال ابن المقفع في كتاب اليتيمة الصبر صبران فاللئام
اصبر اجساما والكرام اصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح
صاحبه أن يكون الرجل قوي الجسد والكد لان هذا من صفات
الحمير ولكن ان يكون للنفس غلوبا وللامور محتملا ولجا
ولجاشه عند الحفاظ مرتبطا واعلم ان الصبر على
ستة أقسام وهو في كل قسم منها محمود فاول اقسامه
واولاه الصبر على امتثال ما امر الله به والانتها عما نهى
الله عنه لان به تخلص الطاعة وبخلوص الطاعة يصح الدين
وتودى الفروض ويستحق الثواب كما قال في محكم الكتاب انما
يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
الصبر من الايمان بمنزلة الراس من الجسد وليس لمن قل صبره
على طاعة الله حظ من بر ولا نصيب من صلاح ومن لم يرى
نفسه صبرا يكسبها ثوابا ويدفع عنها عقابا كان مع سوء
الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال وقد قال الحسن

البصري يا من يطلب من الدنيا ما لا تلحقه أترجو أن تلحق من
الاخرة ما لا تطلبه وقال ابو العتاهية
أراك امرأ ترجو من الله عفوه وانت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وانت مقصر فيا من يداوي الناس وهو سقيم
وهذا النوع من الصبر انما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف
فان من خاف الله صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف
عند اوامره والقسم الثاني الصبر على ما تقتضيه اوقاته من
رزية قد جهده الحزن عليها او حادثة قد استكده الكمد والهم
بها فان الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه المثوبة عنها
فان صبر طائعا والا احتملها لازما وصبر كارها آثما وروي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله تعالى من لم يرض بقضاي
ولم يصبر على بلائي فليختر ربا سوائي وقال علي
بن ابي طالب رضي الله عنه للاشعث بن قيس انك ان صبرت جرى
عليك القلم وانت ماجور وان جزعت جرى عليك القلم وانت
مازور فتكن ذلك ابو تمام في شعره فقال
وقال علي في التعازي لاشعث وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة فتوجر ام تسلو سلو البهائم
وقال شبيب بن شيبة للمهدي ان احق ما صبر عليه ما
لا تجد سبيلا الى دفعه وانشد
واذا تصبك مصيبة فاصبر لها عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

والقسم الثالث الصبر على ما فات ادراكه من رغبة
مرجوة واعوز نيله من مسرة مأموله فان الصبر عنها يعقب
السلوة منها والاسف بعد الياس خرق روى عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه مر قال من اعطي فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم
فاستغفر اولئك لهم الامن وهم مهتدون وقال بعض الحكما
اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يخطر ببالك ولم تقله
وقال بعض الشعرا

اذا عقد القضا عليك امرا ∗ فليس يحله غير القضاء
فما لك والمقام بدار ذل ∗ ودار العز واسعة الفضاء

وقال بعض الحكما ان كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع
على ما لم يصل اليك اخذه بعض الشعرا فقال

لا تطل الحزن على فايت ∗ فقلما يجدي عليك الحزن
سيان محزون على فايت ∗ ومضمر حزنا لما لم يكن

والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها
او يحذر حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل هم ما لم يات فان
اكثر الهموم كاذبه والاغلب من الخوف مدفوع وقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع الباب
يلج وقال الحسن البصري رضي الله عنه لا تحملن على يومك
هم غدك فحسب كل يوم همه وانشد الجاحظ لحارثه بن بدر

اذا الهم امسى وهو داء فامضه ∗ ولست بمضيه وانت تعادله
ولا تنزلن امر الشديدة بامرئ ∗ اذا هم امرا عوقته عواذله
وقل للفواد ان نزى بك نزوة ∗ من الروع افرخ اكثر الهم باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها
وينتظره من نعمة يأملها فانه ان ادهشه التوقع لها واذهله
التطلع اليها انسدت عليه سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع
فكان ابعد لرجايه واعظم لبلايه واذا كان مع الرغبة وقورا
وعند الطلب صبورا انجلت عنه غيابة الدهش وانجابت عنه
حيرة الوله فابصر رشده وعرف قصده وقد روى ابو مالك عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال الصبر ضيا يعني والله اعلم انه يكشف ظلم الحيره
ويوضح حقايق الامور وقال اكثم بن صيفي من صبر ظفر وقال
ابن المقفع كان في قصر اردشير مكتوبا الصبر مفتاح الدرك
وقال بعض الحكما بحسن التاني تسهل المطالب وقال بعض
البلغا من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعمى وقال محمد بن بشير

ان الامور اذا انسدت مطالبها ∗ فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا
لا تياسن وان طالت مطالبة ∗ اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا
اخلق بذي الصبر ان يحظى بحاجته ∗ ومدمن القرع للابواب ان يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه او حل من امر
مخوف وبالصبر في هذا تنفتح وجوه الاراء وتستدفع مكايد الاعدا
فان من قل صبره عزب رايه واشتد جزعه فصار صريع همومه
وفريسة غمومه وقد قال الله تعالى واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم

الصبر مفتاح الفرج والفلاح للصابرين

الامور روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان استطعت
أن تعمل لله تعالى بالرضى في اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر
فان في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم ان النصر مع
الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر وقال علي كرم
الله وجهه الصبر مناضل الحدثان والجزع من اعوان الزمان
وقال بعض الحكما بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور
وقال بعض البلغا عند اشتداد الفرج تبدو مطالع الفرج
وروى ابن عباس ان سليمن بن داود لما سخر شياطينه في البنا
شكوا ذلك الى ابليس فقال الستم تذهبون فرغا وترجعون
مشاغيل قال ففي هذا لكم راحة فبلغ ذلك سليمن فشغلهم
ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك الى ابليس فقال الستم تستريحون
بالليل قالوا بلى قال ففي هذا راحة لكم نصف دهركم فبلغ ذلك
سليمان فاستعملهم بالليل والنهار فشكوا ذلك الى ابليس فقال
الان جا الفرج فما لبثوا ان اصيب سليمان ميتا على عصاه فاذا
كان هذا في نبي من انبيا الله يعمل بامره ويقف على حده
فكيف بما جرته الاقدار من ايد عادية ونافذة القضا من
حوادث نازلة هل تكون مع التناهي الا منقرضة وعند بلوغ
الغاية الا منحسرة وانشد بعض الادبا لعثمان بن عفان رضي
خليلي لا والله ما من ملمة * تدوم على حال وان هي جلت
فان نزلت يوما فلا تخضعن لها * ولا تكثر الشكوى اذا النعل زلت

فكم من كريم قد بلي بنوائب * فصابرها حتى انقضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بامواج غمرة * تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الايام نفسي عزيزة * فلما رات صبري على الذل ذلت
ولتسهيل المطالب وتخفيف الشدائد اسباب اذا قارنت حزما
وصادفت عزما هان وقعها وقل تاثيرها وضررها فمنها
اشعار النفس ما تعلمه من حلول الفنا وتقضي المسار وان لها
اجالا منصرمة ومددا منقضية اذ ليس للدنيا حال يدوم ولا
لمخلوق فيها بقا روى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب مال الى ظل شجرة في يوم صائف
ثم راح وتركها وسئل علي بن ابي طالب كرم الله وجهه عن
الدنيا فقال تغر وتضر وتمر وسال بعض خلفا بني
العباس جليسا له عن الدنيا فقال اذا اقبلت ادبرت وقال
عمرو بن عبيد الدنيا امد والاخرة ابد وقال انوشروان
ان احببت ان لا تغتم فلا تقتن ما به تغتم به اخذه بعض الشعرا فقال
الم تر ان الدهر من سو فعله * يكدر ما اعطى ويسلب ما اسدى
فمن سره ان لا يرى ما يسوءه * فلا يتخذ شيا يبالي له فقدا
وانشد بعض الحكما
لحكيمنا بقراط خير وصية * ووصية تنفي الهموم النكدا
قال الهموم تكون من طمع الورى * في لبث ما في طوقه ان ينفدا
فاذا اقتنيت من الزجاجة قابلا * للكسر فانكسرت فلا تك مكمدا

وانشد بعض اهل العلم لسعيد بن مسلم

انما الدنيا هبات * وعوار مسترده
شدة بعد رخاء * ورخاء بعد شده

ولما قتل بزرجمهر وجد في جيب قميصه رقعة فيها مكتوب
اذا لم يكن جد ففيم الكد واذا لم يكن للامر دوام ففيم السرور
واذا لم يرد الله دوام ملك ففيم الحيلة وقال ابن الرومي

رايت حياة المرء رهنا بموته * وصحته رهنا كذلك بالسقم
اذا طاب لي عيش تنغص طيبه * بصدق يقيني ان سيذهب كالحلم
ومن كان في عيش يراعي زواله * فذلك في بوس وان كان في نعم

ومنها ان يتصور انجلاء الشدائد وانكشاف الهموم وانها
تتقدر باوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها ولا تقصر بجزع
ولا تطول بصبر وان كل يوم يمر بها يذهب منها بشطر
وياخذ منها بنصيب حتى تنجلي وهو عنها غافل حكي
ان الرشيد حبس رجلا ثم سال عنه بعد زمان فقال للموكل به
قل له كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بوسي مثله والامر
قريب والحكم لله فاخذ هذا المعنى بعض الشعرا فقال

لعمري ما انتم فيه يدوم لكم * ظننت ما انا فيه دائم ابدا
لكنني عالم اني وانكم * سنستجد خلاف الحالتين غدا

وانشد لبعض الشعرا

عواقب مكروه الامور خيار * وايام شر لا تدوم قصار
وليس بباق بوسها ونعيمها * اذا كر ليل ثم كر نهار

وانشد عمر بن الخطاب رض حين حضرته الوفاة

الم تر ان ربك ليس يحصي * اياديه الحديثة والقديمه
تسل عن الهموم فليس شي * يقيم ولا همومك بالمقيمه
لعل الله ينظر بعد هذا * اليك بنظرة منه رحيمه

ومنها ان يعلم ان فيما وقي من الرزايا وكفي من الحوادث
ما هو اعظم من رزيته واشد من حادثته ليعلم انه ممنوح
بحسن الدفاع ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى في اثناء
كل محنة منحة وقيل للشعبي في نايبة نابته كيف
اصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر مستور وقال بعض الشعرا

لا تكره المكروه عند حلوله * ان العواقب لم تزل متباينه
كم نعمة لا يستقل بشكرها * لله في طي المكاره كامنه

ومنها ان يتاسى بذوي الغير ويتسلى بذوي العبر ويعلم
انهم الاكثرون عددا والاسرعون مددا فيستجد من سلوة الاسى
وحسن العزا ما يخفف شجوه ويقل هلعه وقال
عمر بن الخطاب رض الصقوا بذوي الغير تتسع قلوبكم وعلى مثل ذلك
كانت مراثي الشعرا احسن قال البحتري

فلا عجب للاسد ان ظفرت بها * كلاب الاعادي من فصيح واعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردى * وموت علي من حسام ابن ملجم

وقال ابو فراس

المرء بين مصائب لا تنقضي ... حتى توارى شخصه في رمسه
فمؤجل يلقى الردى في اهله ... ومعجل يلقى الردى في نفسه

ومنها ان يعلم ان النعم زائرة وانها لا محالة زائلة وان السرور بها اذا اقبلت مشوب بالحذر من فراقها اذا ادبرت وانها لا تفرح باقبالها فرحا حتى تعقب بفراقها ترحا فعلى قدر السرور يكون الحزن وقد قيل في منثور الحكم المفروح به هو المحزون عليه وقيل من بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره وقال بعض الحكماء من علم ان كل نائبة الى انقضاء حسن عزاؤه عند نزول البلاء وقيل للحسن البصري كيف ترى الدنيا فقال شغلني توقع بلائها عن الفرح برخائها فاخذه ابو العتاهية فقال

تزيده الايام ان اقبلت ... شدة خوف لتصاريفها
كانها في حال اسعافها ... تسمعه وقعة تخويفها

ومنها ان يعلم ان سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره اذ كانت الدنيا تنتقل من صاحب الى صاحب فيكون سرور المرء بصلته وحزنه بمفارقته ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قرعت عصا على عصا الا فرح قوم وحزن آخرون وقال البحتري

متى أرت الدنيا نباهة خامل ... فلا ترتقب الا خمول نبيه

وقال المتنبي

بذا قضت الايام ما بين اهلها ... مصائب قوم عند قوم فوائد

وانشد بعض اهل الادب

ألا انما الدنيا غضارة أيكة ... اذا اخضر منها جانب جف جانب
وما هذه الايام الا فجائع ... وما العيش واللذات الا مصائب
فلا تحزنن منها الشيء تفيده ... سيذهب يوما مثل ما انت ذاهب

ومنها ان يعلم ان طوارق الانسان من دلائل فضله ومحنه من شواهد نبله ولذلك احدى علتين اما لان الكمال معوز والنقص طالع فاذا توفر الفضل عليه صار النقص فيما سواه وقد قيل من زاد في عقله نقص من رزقه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما انتقصت جارحة من الانسان الا كانت ذكاء في عقله وقال ابو العتاهية

ما جاوز المرء من اطرافه طرفا ... الا تخونه النقصان من طرف

وانشدني بعض اهل الادب لابرهيم بن الهلال الكاتب

اذا جمعت بين امرأين صناعة ... فأحببت ان تدري الذي هو احذق
فلا تتفقد منهما غير ما جرت ... به لهما الارزاق حين تفرق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع ... وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

واما لان ذا الفضل محسود وبالاذى مقصود فهو لا يسلم من نبوة معاند واشتطاط مناط وقد قال الصنوبري

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى ... كالنار مخبرة بفضل العنبر

وقلما تكون محنة فاضل الا من جهة ناقص وبلوى عالم الا

على يد جاهل لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة وحدوث الانتقام
لاجل التقدم وقد قال الشاعر

فلا غرو أن يمنى حليم بجاهل • فمن ذنب التنين تكسف الشمس

ومنها ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ويستفيده
من الحنكة بلأواء دهره فيصلب عوده ويستقيم عموده ويحمل
مادي شدائده ورخائه ويتعظ بحالتي عفوه وبلائه حكي
عن ثعلب قال دخلت على عبد الله بن سليمان بن وهب وعليه خلع
الرضى بعد النكبة فلما مثلت بين يديه قال يا ابا العباس

نوائب الدهر ادبتني • وانما يوعظ الاديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا • كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بؤس ولا نعيم • الا ولي فيهما نصيب
كذاك من صاحب الليالي • تغذوه في مرها الخطوب

قلت لمن هذه الابيات قال لي ومنها أن يخبر أمور
زمانه ويثبت على صلاح شانه فلا يغتر برجاء ولا يطمع في استوا
ولا يامل أن تبقى الدنيا على حالة او تخلو من تقلب واستحالة فان من
عرف الدنيا وخبر احوالها هان عليه بؤسها ونعيمها وانشد
بعض اهل الادب

اني رايت عواقب الدنيا • فتركت ما أهوى لما أخشى
فكرت في الدنيا وعالمها • فاذا جميع امورها تفنى
وبلوت اكثر اهلها فاذا • كل امرئ في شانه يسعى

أسنى منازل لها وأرفعها • في العز اقربها من المهوى
تقفو محاسنها مساويها • لا شيء بين النعي والبشرى
ولقد مررت على القبور فما • ميزت بين العبد والمولى
أتراك تنكر كم رأيت من الاحياء • ثم رأيتهم موتى

فاذا ظفر المصاب باحد هذه الاسباب تخففت عنه احزانه
وتسهلت عليه اشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن
العزا قال بعض الحكما من حاذر لم يهلع ومن راقب لم
يجزع ومن كان متوقعا لم يلف متوجعا قال بعض الشعرا

ما يكون الامر سهلا كله • انما الدهر سهول وحزون
هون الامر تعش في راحة • قلما هونت الا سيهون

فان اغفل نفسه عن دواعي السلوة ومنعها من اسباب الصبر تضاعف
عليه من شدة الاسى وهم الجزع ما لا يطيق صبرا عليه ولا يجد
سلوة عنه وقال ابن الرومي

ان البلا يطاق غب مضاعف • فاذا تضاعف صار غير مطاق

فان ساعد جزعه بالاسباب الباعثة عليه وامده هلعه بالذرائع
الداعية اليه فقد سعى في حتفه واعان على تلفه فمن اسباب
ذلك تذكر المصاب حتى لا يتناساه وتصوره حتى لا يعزب عليه
ولا يجد مع التذكار سلوة ولا يخلط مع التصور تعزية وقد قال
عمر بن الخطاب رض لا تستغزر الدموع وتبعث على الاحزان مثل
التذكر وقال الشاعر ولا يبعث الاحزان مثل التذكر

ومنها الانف وشدة الحسره فلايرى من مصابه خلفاً ولا
يجد من مفقوده بدلاً فيزداد بالانف ولهاً وبالحسرة هلعاً
ولذلك قال الله عز وجل لكي لا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما
اتاكم وقال بعض الشعرا

اذا ابتليت فثق بالله وارض به … ان الذي يكشف البلوى هو الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته … ما لامرئ حيلة فيما قضى الله
الياس يقطع احياناً بصاحبه … لا تاسفن فان الصانع الله

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل في قوله تعالى فاصبر
صبراً جميلاً انه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث وروى انس بن
مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ما صبر من بث وحكي كعب
الاحبار انه مكتوب في التوراة من اصابته مصيبة فشكى الى الناس
فانما يشكو ربه وحكي ان اعرابية دخلت من البادية
فسمعت صوارخ في دار فقالت ما هذا فقيل لها مات لهم انسان
فقالت ما اراهم الا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن
ثوابه يرغبون وقيل في منثور الحكم من رضي قلبه اتسع لسانه
وانشدني بعض اهل العلم

لا تكثر الشكوى الى الصديق … وارجع الى الخالق لا المخلوق
لا تخرج الغريق بالغريق

وقال بعض الشعرا

لا تشك دهرك ما صححت به … ان الغنى هو صحة الجسم
هبك الخليفة كنت منتفعاً … بغضارة الدنيا مع السقم

في منثور الحكم

وقيل الخيرة في ترك الطيرة وليقل ان عارضته في الطيرة
ريب او خامره فيها وهم ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من
تطير فليقل اللهم لا ياتي بالخيرات الا انت ولا يدفع السيئات
الا انت ولا حول ولا قوة الا بالله وقد روي ان رجلاً جا الى
النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انا نزلنا داراً فكثر فيها
عددنا وكثرت فيها اموالنا ثم تحولنا منها الى اخرى فقلت فيها اموالنا لنا
وقل فيها عددنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذروها ذميمة وليس هذا
منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بفراق
ما تركها استوحش منه الى ما انس به فاما الفال ففيه تقوية
للعزم وباعث على الجد ومعونة على الظفر فقد تفاءل رسول الله
صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه وروى ابو هريرة رضه ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فاعجبته فقال اخذنا فالك من فيك
فينبغي لمن تفاءل بالفال ان يتاوله باحسن تاويلاته ولا يجعل لسوء
الظن سبيلاً على نفسه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان البلاء
موكل بالمنطق حكي ان يوسف عليه السلام شكى الى الله طول
الحبس فاوحى الله تعالى اليه يا يوسف انت حبست نفسك حيث
قلت رب السجن احب الي مما يدعونني اليه ولو قلت رب العافية
احب الي لعوفيت وحكي ان المؤمل بن اميل الشاعر لما قال

شف المؤمل يوم الحيرة النظر … ليت المؤمل لم يخلق له نظر

عمي فاتاه ات في منامه وقال له هذا ما طلبت وحكي

ان الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما من المصحف فخرج
قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد فمزق المصحف وانشا
يقول . أتوعد كل جبار عنيد . فها انا ذاك جبار عنيد .
اذا ما جئت ربك يوم حشر . فقل يا رب مزقني الوليد .
فلم يلبث الا اياما حتى قتل شر قتلة وصلب راسه على قصره
ثم على سور بلده نعوذ بالله من البغي ومصارعه والشر
ومكايده وهو حسبنا وعليه توكلنا

الفصل السابع في المروءة

اعلم ان من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروءة التي هي حلية
النفوس وزينة الهمم والمروءة هي مراعاة الاحوال ان
تكون على افضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه
اليها ذم باستحقاق روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من عامل
الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم
فهو ممن كملت مروته وظهرت عدالته ووجبت محبته وقال
بعض البلغاء من شرائط المروءة ان يتعفف عن الحرام ويتظلف عن
الاثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق
ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين قويا على ضعيف ولا يؤثر
دنيا على شريف ولا يسر بما يعقب الوزر والاثم ولا يفعل ما يقبح
الذكر والاسم وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل
والمروءة فقال العقل يامرك بالانفع والمروءة تامرك بالاجمل

مؤكد والكذب يمنع منه العقل ويصد عنه الشرع ولذلك جاز
ان تستفيض الاخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجز ان
تستفيض الاخبار الكاذبة لان اتفاق الناس في الصدق والكذب
انما هو لاتفاق الدواعي فدواعي الصدق يجوز ان يتفق الجمع
الكثير عليها حتى ينقلوا الخبر او كانوا عددا ينتفي عن مثلهم
المواطاة وقع في النفس صدقه لان الدواعي اليه نافعة واتفاق
الدواعي النافعة ممكن ولا يجوز ان يتفق العدد الكثير الذي
لا يمكن مواطاة مثلهم على نقل خبر يكون كذبا لان الدواعي اليه
غير نافعة وربما كانت ضارة وليس في مجاري العادة ان يتفق
الجمع الكثير على دواع غير نافعة فلذلك جاز اتفاق الناس
على الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يجز ان يتفقوا على
الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم واذا كان للصدق والكذب
دواع فلا بد من ذكر ما يتنبه به الخاطر من دواعيهما اما دواعي
الصدق فمنها العقل لانه موجب لقبح الكذب لا سيما اذا لم يجلب
نفعا ويدفع ضررا والعقل يدعو الى فعل ما كان مستحسنا
ويمنع من اتيان ما كان مستقبحا وليس ما استحسن من مبالغات
الشعراء حتى صار كذبا صريحا استحسانا للكذب في العقل
كالذي انشد فيه الازدي لبعض الشعراء

توهمه فكري فاصبح خده . وفيه مكان الوهم من نظري اثر .
وصافحه كفي فآلم كفه . فمن لمس كفي في انامله عقر .

ومن يقلني خاطئ فحجته • ولم أر شيئاً قط يحرجه الفكر
وكقول العباس بن الاحنف
تقول وقد كتبت دقيق خطي • اليها لم تجنبت الجليلا •
فقلت لها نحلت فصار خطي • مساعدة لكاتبه نحيلا •

لانه خرج مخرج المبالغة في التشبيه والامتداد على صنعة الشعر وان شواهد الحال تخرجه عن تلبيس الكذب فلذلك صار مستحسن في الصنعة ولم يستقبح في العقل وان كان الكذب مستقبحا في العقل ومنها النهي الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لان الشرع لا يجوز ان يرد بارخاص ما حظره العقل بل قد جاء الشرع مؤكدا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لان الشرع ورد بحظره وان جر نفعا او دفع ضررا والعقل انما حظر ما لا يجلب نفعا ولا يدفع ضررا ومنها المروءة فانها مانعة من الكذب باعثة على الصدق لانها قد تمنع من فعل ما كان مستكرها فاولى ان تمنع من فعل ما كان مستقبحا ومنها حب الثنا والاشتهار بالصدق حتى لا يرد عليه قول ولا يلحقه ندم وقد قال بعض البلغا ليكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق فالحق اقوى معين والصدق افضل قرين وقد قال بعض الشعرا

عود لسانك قول الصدق تحظ به • ان اللسان اذا عودت [illegible]
موكل بتقاضي ما سننت له • في الخير والشر فانظر كيف ترتاد

فاما دواعي الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضرر فيرى ان الكذب اسلم واغنم فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشفافا للطمع وربما كان الكذب ابعد لما يامل واقرب لما يخاف لان القبيح لا يكون حسنا والشر لا يصير خيرا وليس يجنى من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل

ولا من الحنظل الكرم ظ

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تحروا الصدق وان رايتم ان فيه الهلكة فان فيه النجاة وتجنبوا الكذب وان رايتم ان فيه النجاة فان فيه الهلكة وقال عمر بن الخطاب رض لأن يضعني الصدق وقلما يفعل احب الي من ان يرفعني الكذب وقلما يفعل وقال بعض الحكما الصدق منجيك وان خفته والكذب مرديك وان امنته وقال الجاحظ الصدق والوفا توأمان والصبر والحلم توأمان فيهن تمام كل دين وصلاح كل دنيا واضدادهن اسباب كل فرقة واصل كل فساد ومنها ان يؤثر ان يكون حديثه مستعذبا وكلامه مستظرفا فلا يجد صدقا يعذب ولا حديثا يستطرف فيستحلي الكذب الذي ليست غرائبه معوزة ولا ظرائفه معجزة وهذا النوع اسوأ حالا مما قبل لانه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة وقد قال الجاحظ لم يكذب احد قط الا لصغر قدر نفسه عنده وقال ابن المقفع لا تهاون بارسال الكذبة من الهزل فانها تسرع الى ابطال الحق ومنها ان يقصد بالكذب التشفي من عدوه فيسمه بقبائح يخترعها

و

عليه ويتصور بفضايح ينسبها اليه ويرى ان معرة الكذب غنم
وان ارسالها في العدو سهم وسم وهذا النوع اسوء
حالا من النوعين الاولين لانه قد جمع بين الكذب المعر والشر
المضر ولذلك ورد الشرع برد شهادة العدو على عدوه
ومنها ان تكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتى الفها
فصار الكذب له عادة ونفسه اليه منقادة حتى لو رام مجانبة
الكذب عسر عليه لان العادة طبع ثان وقد قالت الحكماء من
استحلى الكذب عسر عليه فطامه وقيل في منثور الحكم
لا يلزم الكذب شيا الا غلب عليه واعلم ان للكذاب
قبل خبرته امارات دالة عليه فمنها انك اذا لقنته
الحديث تلقنه ولم يكن ما بين لقنته وبين ما اورده فرق
عنده ومنها انك اذا شككته فيه تشكك حتى يكاد يرجع
عنه ولولاك ما تخالجه الشك فيه ومنها انك اذا رددت
عليه قوله حصر وارتبك ولم يكن عنده نصرة المحتجين ولا
برهان الصادقين ولذلك قال علي كرم الله وجهه
الكذب كالسراب ومنها ما يظهر عليه من ريبة الكذابين
وينم عليه من ذلة المتهمين لان هذه امور لا يمكن الانسان
دفعها من نفسه لما في الطبع من اثارها ولذلك قالت الحكما
العينان انم من اللسان وقال بعض البلغا الوجوه مرايا
تريك اسرار البرايا وقال بعض الشعرا

تريك اعينهم ما في صدورهم ان العيون يودي سرها النظر
فاذا وسم بالكذب ونسب اليه شوارد الكذب المجهولة واضيفت
الى اكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب
مكذوبا عليه فيجمع بين معرة الكذب منه ومضرة الكذب عليه
وقد قال الشاعر

حسب الكذوب من البلية بعض ما يحكى عليه
فاذا سمعت بكذبة من غيره نسبت اليه

ثم ان تحرى الصدق اتهم وان جانب الكذب حتى لا يعهد
له حديث يصدق ولا كذب مستنكر وقال الشاعر

اذا عرف الكذاب بالكذب لم يكد يصدق في شي وان كان صادقا
ومن افة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حفظ اذا كان صادقا

وقد وردت السنة في ارخاص الكذب اذا كان لاصلاح
ذات بين على وجه التوريه والتاويل دون التصريح به فان
السنه لا يجوز ان ترد باباحة الكذب لما فيه من التنفير وانما
ذلك على طريق التوريه والتعريض كما وردت السنة سئل رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقد تطرف بدرا او انفرد عن اصحابه فقال له
رجل ممن انت فقال من ماء فورى عن الاخبار بنسبه بامر
محتمل وظن السايل انه عنى القبيلة المنسوبة الى ذلك وانما اراد
رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من الماء الذي خلق منه الانسان
فبلغ ما احب من اخفاء نسبه وصدق في خبره وكالذي حكي

عن ابي بكر رض انه كان يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين
هاجر معه فتلقاه العرب وهم يعرفون ابا بكر ولا يعرفون رسول
الله صلى الله عليه وسلم فيقولون يا ابا بكر من هذا فيقول يهديني
السبيل فيظنون انه يعني هداية الطريق وهو انما يريد سبيل
الخير فيصدق في قوله ويورّي عن مراده وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب وقال
عمر بن الخطاب رض في المعاريض ما يكفي الرجل ان يعرض الرجل عن
الكذب وقال بعض اهل التاويل في قوله لا تواخذني بما نسيت
انه لم ينس ولكنها معاريض وقال ابن سيرين الكلام اوسع من
ان يصرح فيه بالكذب واعلم ان من الصدق ما يقوم
مقام الكذب في القبح والمعرة ويزيد عليه في الاذى والمضرة وهو
الغيبة والنميمة والسعاية فاما الغيبة فانها خيانة وهتك
ستر يحدثان عن حسد وغدر وقال الله تعالى ولا يغتب بعضكم
بعضا ايحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه يعني كما
لا يحل لحم اخيه ميتا لا تحل غيبته حيا وروي ان امراتين صامتا
على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فاخبر
بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال صامتا عما احل لهما وافطرتا على ما
حرم عليهما وروت اسماء بنت زيد قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من ذب عن لحم اخيه بظهر الغيب كان حقا على الله ان يحرم لحمه
على النار وقال عدي بن حاتم الغيبة رعي اللئام وقال

الحسن البصري يقول الغيبة فاكهة الفساق وقال رجل
لابن سيرين اني اغتبتك فاجعلني في حل فقال ما احب ان احل
لك ما حرم الله عليك وقال ابن السماك لا تعن الناس على
غيبك بسوء غيبك وقال الشاعر

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا ٭ فيكشف الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا ٭ ولا تعب احدا منهم بما فيكا

وربما عذر المغتاب نفسه بانه يقول حقا ويعلن فسقا
ويستشهد بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلثة ليست غيبتهم
بغيبة الامام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه فيبعد من
الصواب ويجانب الادب لانه وان كان صدقا فقد هتك سترا
كان بصونه اولى وجاهر من اسر واخفى وربما دعا
المغتاب ذلك الى اظهار ما كان يستره والمجاهرة بما كان
يضمره فلم يفد ذلك الا فساد اخلاقه من غير ان يكون فيه
صلاح لغيره وقد قيل لانوشروان ما الذي لا خير فيه
قال ما ضرني ولم ينفع غيري او ضر غيري ولا ينفعني لا اعلم
فيه خيرا وقيل في منثور الحكم لا تبد من العيوب ما ستره
علام الغيوب ثم قد روى العلاء بن عبد الرحمن عن ابيه عن
ابي هريرة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال هو ان
تقول لاخيك ما فيه فان كنت صادقا فقد اغتبته وان كنت
كاذبا فقد بهته وقد قال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى

يا ايها الذين امنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم
ولا نسا من نسا عسى ان يكن خيرا منهن انه اشتهر المسلم
بمن اعلن بفسقه وقد دخلت امراه على النبي صلى الله عليه وسلم
تستفتيه فلما خرجت قالت عائشه رض يا رسول الله ما اقصرها
فقال مهلا اياك والغيبه قالت يا رسول الله انما قلت ما فيها
قال اجل ولولا ذلك لكان بهتانا وسئل بعض الادبا عن
اللئيم فقال اللئيم اذا غاب عاب واذا حضر اغتاب واما
الخبر فمحمول على الانكار لافعال هولا ولا يكون الانكار
غيبه لانه نهي عن منكر وفرق بين انكار المجاهر وغيبه
الساتر فاما النميمه فهي تجمع الى مذمة الغيبه رداة
وشرا وتضم الى لومها دناة وغدرا ثم تؤول الى تقاطع
المتواصلين وتباعد المتقاربين وتباغض المتحابين وقد روى
شهر بن حوشب عن اسما بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال الا اخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله قال من شراركم
المشاؤون بالنميمه المفسدون بين الاحبه الباغون العيوب
وروى محمد بن عمرو عن ابي سلمه عن ابي هريره قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون
كل شغاز ملعون كل قتات ملعون كل منان القتات المحرش
بين الناس يلقي بينهم العداوه والقتات النمام وقيل النمام
هو الذي يكون مع القوم يتحدثون فينم حديثهم والقتات

الذي يتسمع عليهم وهم لا يعلمون فينم حديثهم والمنان
هو الذي يصنع الخير ويمن به وقيل في منثور الحكم
النميمه سيف قاتل وقال بعض الادبا لم يمش ماش
شر من واش واما السعايه فهي شر الثلاثه لانها
تجمع الى مذمة الغيبه ولوم النميمه التغرير بالنفوس والاموال
والقدح في المنازل والاحوال وروى ابن قتيبه ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال الجنه لا يدخلها ديبوب ولا قلاع
فالديبوب الذي يجمع بين النسا والرجال سمي بذلك لانه
يدب بينهما والقلاع هو الساعي الذي يقع في الناس عند
الامرا سمي قلاعا لانه ياتي الرجل الحظي المتمكن عند
الامير فلا يزال يقع به حتى يقلعه وقال بعض الحكما
الساعي بين منزلتين قبيحتين اما ان يكون صدق فقد خان
الامانه واما ان يكون قد كذب فخالف المروه وقال
بعض حكما الفرس الصدق يزين كل احد الا السعاة فان
الساعي اذم واثم ما يكون اذا صدق وقال بعض البلغا
النميمه دناة والسعايه رداة وهما اساس الشر فتجنب
سبلهما واجتنب اهلهما ووقع الفضل بن سهل على
قصة ساع سعى اليه نحن نرى قبول السعايه شرا منها
لان السعايه دلاله والقبول اجازه فاتقوا الساعي فانه
[illegible] في سعايته صادقا كان في صدقه اثما اذ لم يحفظ

الحرمة ويبتر العوده وقال الاسكندر لشاع سعى اليه
برجل اتحب ان نقبل منك ما تقول فيه على ان نقبل منه ما
يقول فيك قال لا قال فكف عن الشر يكف عنك الشر وحكي
ان الله تعالى اوحى الى موسى ان في بلدك ساعيا ولست انزل
مطري وهو في ارضيك قال يا رب دلني عليه حتى اخرجه فقال
يا موسى اكره النميمة وانم

الفصل السادس في الحسد والمنافسة اعلم

ان الحسد خلق ذميم مع اضراره بالبدن وافساده الدين حتى
لقد امر الله تعالى بالاستعاذة من شره فقال تعالى ومن شر
حاسد اذا حسد وناهيك بحال ذلك شرا وروي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال دب اليكم داء الامم قبلكم البغضاء والحسد
هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر والذي نفس محمد بيده
لا تؤمنوا حتى تحابوا الا انبئكم بامر اذا فعلتموه تحاببتم
افشوا السلام بينكم فاخبر عليه السلام بحال الحسد وان التحابب
ينفيه وان السلام يبعث على التحابب فصار السلام اذا نافيا
للحسد وقد جاء كتاب الله عز وجل بما يوافق هذا القول قال تعالى
ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي
حميم فحكي عن مجاهد ان معناه ادفع بالسلام اساءة المسي
وقال الشاعر

قد بلبت الناس حينا لبس بينهم ... ود فيزرعه التسليم واللطف

يسمى عقاب المجترى لانه تورط بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية
وان سلم من التقصير في فعل الطاعة ولذلك قال بعض العلما
افضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ولم تزل الشبهة يقينه وقال
حماد بن زيد عجبت لمن يحتمي الاطعمة لمضرتها كيف لا يجتنب
الذنوب لمعرتها وقال بعض الصلحا اهل الذنوب مرضى القلوب
وقيل للفضيل بن عياض ما اعجب الاشيا قال قلب عرف الله
ثم عصاه وقال بعض الادبا بدل بالطاعة المعاصي فمن عظم المعاصي
وقيل رجل لابن عباس ايما احب اليك رجل قليل الذنوب قليل العمل
ام رجل كثير الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس لا اعدل
بالسلامة شيا وقيل لبعض الزهاد ما تقول في صلوة الليل
فقال خف الله بالنهار ونم بالليل وسمع بعض الزهاد
رجلا يقول القوم اهلكهم النوم فقال بل اهلكتهم اليقظه
وقيل لابي هريرة ما التقوى قال اخذت في ارض فيها شوك
قال نعم قال كيف كنت تصنع قال كنت اتوقى قال فتوق الخطايا
وقال عبد الله بن المبارك

ايضمن لي فتى ترك المعاصي ... فارهنه الكفالة بالخلاص
اطاع الله قوم فاستراحوا ... ولم يتجرعوا غصص المعاصي

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي
فهذا يستحق عقاب اللاهي عن دينه المستدرج بفعله بنفسه
روى ابو ادريس الخولاني عن ابي ذر الغفاري عن النبي صلى الله عليه وسلم

انه قال كانت صحف موسى كلها عبرا عجبت لمن ايقن بالنار ثم هو
يضحك وعجبت لمن ايقن بالموت ثم هو يفرح وعجبت لمن ايقن بالقدر ثم
هو يغضب وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها باهلها ثم هو يطمئن اليها
وعجبت لمن ايقن بالحساب غدا ثم لا يعمل وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال اجتهدوا في العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصي
وهذا واضح المعنى لان الكف عن المعاصي ترك وهو اسهل وعمل
الطاعات فعل وهو اثقل ولذلك لم يبح الله تعالى ارتكاب معصيته
لعذر ولا غير عذر لانه ترك والترك لا يعجز المعذور عنه واما
واباح ترك الاعمال بالاعذار لان العمل قد يعجز المعذور عنه
وقال بكر بن عبد الله رحمه الله امرا كان قويا فاعمل قوته في
طاعة الله او كان ضعيفا فكف عن معصية الله وقال عبد الاعلى
بن عبد الله الشامي

العمر ينقص والذنوب تزيد • ويقال عثرته الفتى فيعود •
هل يستطيع جحود ذنب واحد • رجل جوارحه عليه شهود •
والمرء يسال عن سنيه فيدعي • تقليلها وعن الممات يحيد •

واعلم ان لاعمال الطاعات ومجانبة المعاصي آفتين
احداهما تكسب الوزر والاخرى توهن الاجر فاما المكسبة
للوزر فالاعجاب بما اسلف من عمله وقدم من طاعته لان الاعجاب
نفضي به الى حالتين مذمومتين احداهما ان المعجب يجعله ممتن
به والممتن على الله جاحد لنعمه وقال ابن عباس اوحى الله الى

بدفع
مصلك بها نفي به المذمة ولقد استحسن الناس عن الاشعث بن قيس قوله
وقد خفف من صلوته مرة فقيل له خففت من صلوتك جدا فقال انه
لم يخالطها رياء فخلص من تنقصهم وسلم من تعنتهم بنفي الرياء عن نفسه
ورفع التصنع من صلوته وقد كان الانكار لولا ذلك متوجها عليه واللوم
لاحقا به ومر ابو امامه ببعض المساجد فاذا برجل يصلي وهو
يبكي فقال انت انت لو كان هذا في بيتك فلم ير ذلك منه حسنا لانه
اتهمه بالرياء ولعله كان سالما منه فكيف بمن صار الرياء اغلب
صفاته واشهر سماته مع انه اخفى من دبيب النمل فيما حمل ولذلك
قال عبد الله بن المبارك افضل الزهد اخفى الزهد وربما
احس ذو الفضل من نفسه ميلا الى المراءاة به فبعثه الفضل على
هتك ما فار عنه النفس في المراءاة به فكان ذلك ابلغ في فضله وذلك
كالذي يحكى عن عمر بن الخطاب رض انه احس بريح خرجت منه
فقال ايها الناس اني قد ميلت بين ان اخاف الله فيكم احب الي الا
واني قد فسوت وها انا ذا انزل لاعيد الوضوء وكان ذلك منه زجرا
للنفس لتكف عن نزاعتها الى مثل ذلك وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب
عظني فقال لا ارضى نفسي لك لاني اجلس بين الفقير والغني فاميل على
الفقير واوسع للغني ولان طاعة الله في العمل لوجهه لا لغيره قيل
ان قوما ارادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب فقالوا قد
ضللنا فكيف الطريق قال هاهنا واومى الى السماء والحال الثاني ان
يصل الى ما رده اقتدا ابغيره وهذا قد تثمره مجالسة الاخيار الافاضل
ونجد بمكاثرة الاتقيا الاماثل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم المرء على

دين خليله فلينظر احدكم من يخالل فاذا كانوا هم المجالس وطاولهم
المؤانس احب ان يبتدي بهم في افعاله ويتاسى بهم في اعماله ولا
يرضى لنفسه ان يقصر عنهم ولا يكون في الخير دونهم فتبعثه المنافسة
على مساواتهم وربما دعته الحمية الى الزيادة عليهم والمكاثرة لهم
فيصيرون سببا لسعادته وباعثا على استزادته والعرب تقول
لولا الوئام لهلك الانام اي لولا ان الناس يرى بعضهم بعضا ويقتدي
بهم في الخير لهلكوا الى له وقال بعض البلغاء من خير الاختيار
صحبة الاخيار ومن شر الاختيار صحبة الاشرار وهذا صحيح
لان للمصاحبة تاثيرا في اكتساب الاخلاق فتصلح اخلاق المرء بمصاحبته
اهل الصلاح وتفسد بمصاحبة اهل الفساد وقال بعض الشعرا

رايت صلاح المرء يصلح اهله • ويعديهم عند الفساد اذا فسد
يعظم في الدنيا بفضل صلاحه • ويحفظ بعد الموت في الاهل والولد

وانشدني بعض اهل الادب لابي بكر الخوارزمي

لا تصحب الكسلان في حاجاته • كم صالح بفساد اخر يفسد
عدوى البليد الى الجليد سريعة • والجمر يوضع في الرماد فيخمد

والقسم الثالث ان يفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها ورغبة
في الزلفة بها فهذا من نتائج النفس الزاكية ودواعي الرغبة الوافية
الدالة على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك افضل احوال العاملين
واعلى منازل العابدين وقد قيل الناس في الخير اربعة منهم من
يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه استحسانا
ومنهم من يتركه حرمانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء

فهو حكيم ومن تركه استحسانا فهو ردي ومن تركه حرمانا فهو شقي
ثم لما يفعله من الزيادة حالتان احداهما ان يكون مقتصدا
فيها وقادرا على الدوام عليها فهي افضل الحالتين واعلى المنزلتين عليها
انقراض خيار السلف وتبعهم فيها فضلاء الخلف وقد روت عائشة عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ايها الناس اكلفوا من الاعمال ما تطيقون فان
الله تعالى لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الاعمال ما ديم
عليه والعرب تقول القصد والدوام وانت السابق الجواد ولان
من كان صحيح الرغبة في ثواب الله لم يكن مسرته الا في طاعة الله
قال عبد الله بن مبارك قلت لراهب متى عيدكم قال كل يوم لا
اعصي الله فيه فهو يوم عيدي انظر الى هذا القول منه
وان لم يكن من مقاصد الطاعة ما ابلغه في حب الطاعة واحثه على
بذل الاستطاعة وخرج بعض الزهاد في يوم عيد في هيئة
رثة فقيل له اتخرج في مثل هذا اليوم في هذه الهيئة والناس
يتزينون فقال ما تزين لله بمثل طاعته والحالة الثانية ان
يستكثر منها استكثار من يضعف عن دوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا
ربما كان بالمقصر اشبه لان المستكثر من الزيادة اما ان يعجز عن استدامة
الزيادة وتمنع من ملازمة الاستكثار من غير اخلال بلازم ولا
تقصير في فرض فهي اذا قصيرة المدى قليلة اللبث وقليل العمل في طول
الزمان افضل عند الله من كثير العمل في قصير الزمان لان المستكثر
من العمل في الزمان القصير قد يعمل زمانا ويترك زمانا فربما صادف

زمان تركه لاهياً او ساهياً والمقل في الزمان الطويل مستيقظ
الافكار مستديم التذكار وقد روى ابو صالح عن ابي هريرة عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان للاسلام شرة وان للشرة فترة فمن
سدد وقارب فارجوه ومن أشير اليه بالاصابع فلا تعدوه
فجعل للاسلام شرة وهي الايغال في الاستكثار وجعل للشرة
فترة وهي الاهمال بعد الاستكثار فلم يخل كما اثبت من ان تكون
هذه الزيادة نقصاً او اخلالاً ولا خير في واحد منهما واعلم
جعل الله التوفيق حاكماً عليك والحق قائداً لك واليك ان الدنيا اذا وصلت
فتبعات موبقة واذا فارقت ففجعات محرقة وليس لوصلها دوام ولا من
فراقها بد فروض نفسك على قطيعتها لتسلم من تبعاتها وعلى فراقها لتأمن
فجعاتها فقد قيل المرء مقروض من عمره المنقوص مع ان العمر وان
طال قصير والفراغ وان تم يسير انشدني علي بن محمد

اذا كملت للمرء ستون حجة • فلم يحظ من ستين الا بسدسها
الم تر ان النصف بالليل ذاهب • ويذهب اوقات المقيل بخمسها
وتأخذ اوقات الهموم بحصة • واوقات اوجاع تميت بحسها
فحاصل ما يبقى له سدس عمره • اذا صدقته النفس من علم حدسها

ورياضة نفسك لذلك تترتب على احوال ثلث وكل واحد منها له
شعب وهي تسهيل ما يليها وسبب فالحالة الاولى ان تصرف حب
الدنيا عن قلبك فانها تلهيك عن اخرتك ولا تجعل شغلك بها فتمنعك
حظك منها وتوقى الركون اليها ولا تكن آمناً لها وقد روي عن

النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من أشرب قلبه حب الدنيا وركن اليها التاط
منها بشغل لا يبلغ عناه وامل لا يبلغ منتهاه وحرص لا يدرك مداه
وقال عيسى بن مريم عليهما السلام الدنيا لابليس مزرعة واهلها له حرث
وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه مثل الدنيا مثل الحية لين مسها
قاتل سمها فاعرض عما أعجبك منها لقلة ما يصحبك منها عند همومها لما أيقنت
من فراقها وكن أحذر ما تكون لها انس ما تكون لها فان صاحبها كلما اطمأن
منها الى سرور اشخصته عنها مكروه وان سكن منها الى ايناس ازاله عنها
ايحاش وقال بعض البلغاء ان الدنيا لا تصفو لشارب ولا تبقى لصاحب ولا
تخلو من فتنة ولا تخلي من محنة فاعرض عنها قبل ان تعرض عنك
واستبدل بها قبل ان تستبدل بك فان نعيمها يتنقل واحوالها تتبدل
ولذاتها تفنى وتبعاتها تبقى وقال بعضهم انظر الى الدنيا نظر الزاهد
المفارق ولا تتأملها تأمل الوامق وقال بعض الشعراء

ألا انما الدنيا كاحلام نائم • وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل اذا ما نلت بالامس لذة • فافنيتها هل انت الا كحالم
فمن غافل عنه وليس بغافل • ومن نائم عنه وليس بنائم

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من هوان الدنيا على الله انه لا يعصى الا
فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها وروي عن سفيان ان الخضر قال لموسى عليهما
السلام يا موسى أعرض عن الدنيا وانبذها وراءك فانها ليست لك بدار ولا
فيها محل قرار وانما جعلت للعباد ليتزودوا منها للمعاد وقال عيسى بن
مريم عليهما السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وقال علي رضي الله عنه

يصف الدنيا اولها عنا واخرها فنا حلالها حساب وحرامها عقاب من
صح فيها امن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها
حزن من ساعاها فاتته ومن قعد عنها اتته ومن نظر اليها اعمته
ومن نظر بها بصرته وقال بعض البلغا الدنيا تقبل اقبال الطالب
وتدبر ادبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول
خيرها يسير وعيشها قصير واقبالها خديعه وادبارها فجيعه
ولذاتها فانيه وتبعاتها باقيه فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة
الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك وقال وهب
بن منبه مثل الدنيا والاخرة مثل ضرتين ان ارضيت احداهما اسخطت
الاخرى وقال عبد الحميد الدنيا منازل فراحل ونازل وقال بعض
الحكما الدنيا اما نقمه نازله او نعمه زايله وقيل في منثور الحكم
من الدنيا على الدنيا قليل وقال بعض الشعرا

تمتع من الايام ان كنت حازما ◦ فانك منها بين ناه وآمر
اذا ابقت الدنيا على المرء دينه ◦ فما فات من شي فليس بضاير
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة ◦ ولا وزن زف من جناح لطاير
فما رضي الدنيا ثوابا لمومن ◦ ولا رضي الدنيا جزا لكافر

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الدنيا يومان يوم فرح
ويوم هم وكلاهما زايل عنك فدعوا ما يزول واتعبوا انفسكم
في العمل لما لا يزول وقال عيسى بن مريم عليه السلام لا تنازعوا اهل الدنيا
في دنياهم فينازعوكم في دينكم فلا دنياهم اصبتم ولا دينكم ابقيتم

وقال

وقال بعض الحكما من سره بنوه ساته نفسه فاخذ هذا المعنى
ابو العتاهيه فقال

ابن دي الابن كلما ازداد منه ◦ مسرع زاد في فنا ابيه
ما بقا الاب الملح عليه ◦ بدبيب البلى شباب بنيه

وفي معناه ما حكي ان زر بن حبيش عاش مايه وعشرين سنه فلما
حضرته الوفاه انشا يقول

اذا الرجال ولدت اولادها ◦ واضطربت من كبر اعضادها
وجعلت اوصابها تعتادها ◦ فهي زروع قد دنا حصادها

وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس

الموت باب وكل الناس داخله ◦ فليت شعري بعد الباب ما الدار
الدار جنات عدن ان فعلت بما ◦ يرضي الاله وان خالفت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما ◦ فانظر لنفسك اي الدار تختار

باب ادب الدنيا

اعلم ان الله تعالى بنافذ قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدبيره
وفطرهم بتقديره فكان من لطيف ما دبره وبديع ما قدره ان
خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون بالغنى منفردا وبالقدرة
مختصا حتى يشعرنا بقدرته انه خالق ويعلمنا بغناه انه رازق
فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقر بنقصنا عجزا وحاجة ثم
جعل الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان ما يستقل
بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه في استعانته

فته

به صفة لازمة لطبعه وخليقة قائمة في جوهره ولذلك قال سبحانه
وخلق الانسان ضعيفا يعني ضعيفا عن الصبر عما هو اليه مفتقر
واحتمال ما هو عنه عاجز ولما كان الانسان اكثر حاجة من جميع
الحيوان كان اظهر عجزا لان الحاجة الى الشيء افتقار اليه والمفتقر
الى الشيء عاجز به وقال بعض الحكما المتقدمين استغناؤك عن الشيء
خير من استغنائك به وانما خص الله تعالى الانسان بكثرة الحاجة
وظهور العجز نعمة عليه ولطفا به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز
يمنعانه من طغيان الغنى وبغي القدرة لان الطغيان مركوز في طبعه
اذا استغنى والبغي مستول عليه اذا قدر وقد انبأ الله بذلك عنه
فقال كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى ثم ليكون اقوى الامور
شاهدا على نقصه واوضحها دليلا على عجزه وانشدني بعض اهل
الادب لابن الرومي

اعيرتني بالنقص والنقص شامل ... ومن ذا الذي يعطى الكمال فيكمل
واشهد اني ناقص غير انني ... اذا قيس بي قوم كثير تقللوا
تفاضل هذا الخلق بالطبع والحجى ... ففي ايما هذا اراك تفضل
ولو منح الله الكمال ابن آدم ... لخلده والله ما شا يفعل

ولما خلق الله الانسان ماس الحاجة ظاهر العجز جعل لنيل حاجته
اسبابا ولدفع عجزه حيلة دله عليها بالعقل وارشده اليها بالفطنة
قال الله تعالى والذي قدر فهدى قال مجاهد قدر احوال
خلقه فهدى الى سبيل الخير والشر وقال ابن مسعود في قوله تعالى

وهديناه

وهديناه النجدين يعني الطريقين طريق الخير وطريق الشر ثم لما
كان العقل دالا على اسباب ما تدعو اليه الحاجة جعل الله تعالى
الادراك والفطن موقوفا على ما قسم وقدر كي لا يعتمدوا في الا رزاق
على عقولهم وفي العجز على فطنهم لتدوم له الرغبة والرهبة ويظهر
منه الغنى والقدرة وربما عزب هذا المعنى عمن اساء ظنه
بخالقه حتى صار سببا لضلاله كما قال بعض الشعرا

سبحان من انزل الايام منزلها ... وصير الناس مرفوضا ومرموقا
فعاقل فطن اعيت مذاهبه ... وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
ذاك الذي ترك الالباب حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقا

ولو حسن ظن العاقل في صحة نظره لعلم من علل المصالح ما صار به
صديقا لا زنديقا لان من علل المصالح ما هو ظاهر ومنها ما هو
غامض ومنها ما هو حكمة استأثر الله بها ولذلك قال النبي صلى
الله عليه وسلم حسن الظن بالله من عبادة الله ثم ان الله جعل اسباب
حاجاته وحيل عجزه في الدنيا التي جعلها الله دار تكليف وعمل كما جعل
الآخرة دار قرار وجزاء فوجب لذلك ان يصرف الانسان الى دنياه
حظا من عنايته لانه لا غنى به عن التزود منها لآخرته ولا له بد من
سد الخلة فيها عند حاجته وليس في هذا القول نقض لما ذكرنا
قبل من ترك فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم
وطالب فضولها مذموم والرغبة انما تختص بما جاوز قدر الحاجة
والفضول انما ينطلق على ما زاد على قدر الكفاية وقد قال الله تعالى

لنبيه صلى الله عليه وسلم فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب قال اهل
التاويل يعني فاذا فرغت من امر دنياك فانصب في عبادة ربك
وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيه فيها ولكن ندبه الى اخذ البلغة
منها وعلى هذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من
ترك الدنيا للاخرة ولا الاخرة للدنيا ولكن خيركم من اخذ من هذه وهذه وروي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الاخرة
وذم رجل عند علي كرم الله وجهه فقال علي الدنيا دار صدق
لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها وحكى
مقاتل ان ابرهيم عليه السلام قال يا رب حتى متى اتردد في طلب الدنيا
فقيل له امسك على هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا وقال
سفيان الثوري مكتوب اذا كان في البيت بر فتعبد فاذا لم يكن
فاطلب يا ابن ادم حرك يدك يسبب لك رزقك وقال بعض الحكما
ليس من الرغبة في الدنيا اكتساب ما يصون العرض فيها وقال بعض
الادبا ليس الحرص اجتلاب ما يقوت البدن وقال محمود الوراق
لا تتبع الدنيا وايامها • ذما وان دارت بك الدائرة •
من شرف الدنيا ومن فضلها • ان بها تستدرك الاخرة •
واذ قد لزم بما بيناه النظر في امور الدنيا فواجب سبر
احوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها لنعلم اسباب صلاحها
وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لتنفي عن اهلها شبه الحيرة وتنجلي
لهم اسباب الخير فيقصدوا الامور من ابوابها ويعتمدوا الصلاح

واسبابها قواعدها واسبابها **اعلم** ان صلاح الدنيا معتبر
من وجهين اولهما ما ينتظم امور جملتها والثاني ما يصلح حال كل
واحد من اهلها فهما شيئان لا صلاح لاحدهما الا بصاحبه لان من
صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال امورها لن يعدم ان يتعدى
اليه فسادها ويقدح فيه اختلالها لانه منها يستمد ولها يستعد
ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام امورها لم يجد لصلاحها
لذة ولا لاستقامتها اثرا لان الانسان دنيا نفسه فليس يرى
الصلاح الا اذا صلحت له ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه لان
نفسه اخص وحاله امس فصار نظره الى ما يخصه مصروفا وفكره
على ما يمسه موقوفا **واعلم** ان الدنيا لم تكن قط لجميع اهلها مسعدة
ولا عن كافة ذويها معرضة لان اعراضها عن جميعهم عطب واسعادها
لكافتهم فساد لائتلافهم بالاختلاف والتباين واتفاقهم
بالمساعدة والتعاون فاذا تساوى جميعهم لم يجد احدهم الى الاستعانة
بغيره سبيلا وبهم من الحاجة والعجز ما وصفناه فيذهبوا ضيعة
ويهلكوا عجزا واذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعاونة
ومتواصلين بالحاجة لان ذا الحاجة وصول والمحتاج اليه موصول
وقد قال الله تعالى ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم
يعني الاختلاف بالغنى والفقر وقال الله تعالى والله فضل بعضكم على بعض
في الرزق غير ان الدنيا اذا صلحت كان اسعادها موفورا واعراضها
ميسورا لانها اذا امحلت عنت واوجعت واذا امرت رقت وابقت

واذا فسدت الدنيا كان اسعادها مكرا واعراضها غدرا لانها اذا اسمحت
كدّت وانبعت واذا استدرت استاصلت واجحفت ومع هذا فصلاح
الدنيا مصلح لسائر اهلها لوفور اماناتهم وظهور دياناتهم وفسادها مفسد
لسائر اهلها لقلة اماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك في مشاهد
الحال تجربة وعرفا كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا فلا شي انفع
من صلاحها كما انه لا شي اضر من فسادها لان ما به تقوى ديانات الناس
وتتوفر اماناتهم فلا شي احرى به نفعا كما ان ما به تضعف دياناتهم
وتذهب اماناتهم فلا شي اجدر به ضررا وانشد لابي بكر بن دريد

الناس مثل زمانهم … قدّ الحذا على مثاله
ورجال دهرك مثل دهرك في تقلبه وحاله
وكذا اذا فسد الزمان … جرى الفساد على رجاله

واذ قد بلغ بنا القول الى ذلك فسنبدا بذكر ما تصلح به الدنيا
ثم نتلوه بوصف ما يصلح به حال الانسان فيها **اعلم** ان ما به
تصلح الدنيا حتى تصير احوالها منتظمة وامورها ملتئمة ستة اشيا
هي قواعدها وان تفرعت وهي دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل
وامن عام وخصب دار وامل فسيح فاما القاعدة الاولى وهي
الدين المتبع فلانه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب على
ارادتها حتى يصير قاهرا للسرائر زاجرا للضمائر رقيبا على النفوس
في خلواتها نصوحا لها في ملماتها وهذه امور لا يوصل بغير الدين
اليها ولا يصلح الناس الا عليها وكان الدين اقوى قاعدة في صلاح الدنيا

واستدامتها والاجدى الامور نفعا في انتظامها وسلامتها ولذلك لم
يخل الله خلقه مذ خلقهم عقلا من تكليف شرعي واعتقاد ديني
ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الارا ويستسلمون لامره فلا تتصرف
بهم الاهوا وانما اختلف العلما في العقل والشرع هل جا مجيئا

كذا في الام

واحدا او سبق العقل ثم تعقبه الشرع فقالت طائفة اخرى بل
سبق العقل ثم تعقبه الشرع لان بكمال العقل يستدل على صحة الشرع
وقد قال الله تعالى ايحسب الانسان ان يترك سدى وذلك لا يوجد
فيه الا عند كمال عقله فثبت ان الدين صلاح الدنيا والاخرة فحقيق
بالعاقل ان يكون به متمسكا وعليه محافظا وقد قال بعض الحكما
الادب ادبان ادب شريعة وادب سياسة فادب الشريعة
ما ادى الفرض وادب السياسة ما عمر الارض وكلاهما يرجع الى
العدل الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان لان من ترك الفرض
فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره وقال سعد
بن حميد … ما صحة ابدا بنافعة … حتى يصح الدين والخلق
واما القاعدة الثانية فهي سلطان قاهر تتالف من رهبته الاهوا
المختلفة وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الايدي
المتغالبة وتنقمع من خوفه النفوس المتعادية والمتعاندة لان في طباع
الناس من حب المغالبة على ما اثروه والقهر لما عاندوه ما لا يكفون
عنه الا بمانع قوي ورادع ملي وقد افصح المتنبي بذلك حيث يقول

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى … حتى يراق على جوانبه الدم

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم
وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من اربعة اشيا اما عقل
زاجر او دين حاجز او سلطان رادع او عجز صاد واذا تاملتها
لم تجد لها خامسا يقترن بها ورهبة السلطان ابلغها لان العقل
والدين ربما كانا مضعوفين او بدواعي الهوى مغلوبين فتكون
رهبة السلطان اشد زجرا واقوى ردعا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
ان لله حراسا في السما وحراسا في الارض فحراسه في السما الملايكه
وحراسه في الارض الذين يقبضون ارزاقهم يذبون عن الناس وروي
عنه صلى الله عليه وسلم الامام الجاير خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفي
بعض الشر خيار وقال عبد الله بن مسعود السلطان يفسد وما يصلح
الله به اكثر فان عدل فله الاجر وعليكم الشكر وان جار فعليه
الوزر وعليكم الصبر وروى ابو هريره قال سبت العجم بين يدي رسول الله
صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك وقال لا تسبوها فانها عمرت بلاد الله
فعاش فيها عباد الله وقال بعض البلغا السلطان في نفسه امام متبوع
وفي سيرته دين مشروع فان ظلم لم يعدل احد في حكم وان عدل
لم يجترا احد على ظلم وقال بعض الادبا ان اقرب الدعوات من الاجابه
دعوة السلطان الصالح واولى الحسنات بالاجر والثواب امره ونهيه
في وجوه المصالح فهذه اثار السلطان في احوال الدنيا وما تنتظم
به امورها ثم لما في السلطان من حراسة الدين والذب عنه ومنع
الاهوا منه وحراسة التبديل فيه وزجر من شرد عنه بما يزيد اد

حتى كانك اذا اغتممت فانهن من اجل ذلك وقال اخر
اذا المنيه مالاتت مغتبطا ان المنى راس اموال المفاليس
ومنها الهموم التي تذهل اللب وتشغل القلب فلا يتسع
لاحتمال ولا يقوى على صبر وقد قيل الهم كالسم وقال
بعض الادبا الحزن كالدا المخزون في قلب المحزون وقال

هونك بالعيش يقترن به ... فما تقطع العيش الا بالهم
اذا تم امر بدا نقصه ... توقع زوالا اذا قيل تم
اذا كنت في نعمة فارعها ... فان المعاصي يزيل النعم
حلاوة دنياك مسمومة ... فما تاكل الشهد الا بسم
فكم قدر دب في مهلة ... فلم يعلم الناس حتى هجم

ومنها الامراض التي تغير بها الطبع كما تغير بها الجسم
فلا تبقى الاخلاق على اعتدال ولا تقدر معها على احتمال
وقد قال المتنبي

آلة العيش صحة وشباب ... فاذا وليا عن المرء ولى
ابدا تسترد ما تهب الدنيا ... فياليت جودها كان بخلا

ومنها علو السن وحدوث الهرم لتاثيره في آلة الجسد
كذلك يكون تاثيره في اخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال
ما كان يطيقه من الاثقال فكذلك تعجز النفس عن احتمال ما كا
نت تصبر عليه من مخالفة الوفاق ومضض الشقاق وكذلك ما
ضاهاه قال منصور النمري

بعض النسخ

فان يرض لا ينفعك يوما ... وان يغضب فانك لا تبالي

ماكنت اوفي شبابي كنه عزته ... حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
اصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم ... تشجي بغصته فالعذر لا يقع
ماكان اقصر ايام الشباب وما ... ابقى حلاوة ذكراه التي يدع
ما واجه الشيب من عين وان رمقت ... الا لها نبوة عنه ومرتدع
قد كدت تقضي على فوت الشباب اسى ... لولا تعزيك ان الشيب منقطع

فهذه سبعه اسباب ان احدثت سوء الخلق كان عاما وهاهنا
شيء خاص قد يحدث سوء الخلق وهو البغض الذي تنفر منه
النفس فيحدث نفورا على المبغض يؤول الى سوء الخلق يخصه دون
غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال
ذلك السبب ثم بالضد ن

الفصل الثالث في الحيا

اعلم ان الخير والشر معان كامنة تعرف بسمات
دالة كما قالت العرب في امثالها تخبر عن مجهوله مرآته وكما
قال عمرو بن مسلم الشاعر

لا تسأل المرء عن خلائقه ... في وجهه شاهد من الخبر

فسمة الخير الدعة والحيا وسمة الشر القحة والبذا وكفى
بالحيا خيرا ان يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذا شرا
ان يكون الى الشر سبيلا وقد روى حسان بن عطية عن ابي امامة
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحيا والعي شعبتان من
الايمان والبذا والبيان شعبتان من النفاق ويشبه ان يكون
العي في معنى الصمت والبيان في معنى التشدق كما جا في الحديث

الاخر ان ابغضكم الي الثرثارون المتفيهقون والمتشدقون
وروى ابو سلمه عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
الحيا من الايمان والايمان في الجنه والبذا من الجفا والجفا في النار
وقال بعض الحكما من كساه الحيا ثوبه لم ير الناس عيبه
وقال بعض البلغا حيوة الوجه بحيايه كما ان حيوة الغرس
بمايه وقال بعض الادبا يا عجبا كيف لا تستحيي من كثرة ما لا
تستحيي وتتقي من طول ما لا تتقي وقال صالح بن عبد القدوس

اذا قل ماء الوجه قل حياوه ... ولا خير في وجه اذا قل ماوه
حياك فاحفظه عليك فانما ... يدل على فعل الكريم حياوه

وليس لمن سلب الحيا صاد عن قبيح ولا زاجر عن محظور فهو
يقدم على ما يشا وياتي ما يهوى وبذلك جا الخبر روى شعبه
عن منصور عن ربعي عن ابي مسعود البدري قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان مما ادرك الناس من كلام النبوة الاولى يا ابن ادم
اذا لم تستحي فاصنع ما شئت وليس هذا القول اغرا منه بفعل
المعاصي عند قلة الحيا كما توهمه بعض من جهل معاني الكلام
ومواضعات الخطاب ومثل الخبر قول الشاعر

اذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستحي فاصنع ما تشا
فلا والله ما في العيش خير ... ولا الدنيا اذا ذهب الحيا

واختلف اهل العلم في معنى الخبر فقال ابو بكر محمد بن علي
الشاشي في اصول الفقه معنى هذا الخبر من لم يستحي دعاه تركه

الحيا الى ان يعمل ما شاء لا يردعه عنه رادع فليستحي المرء فان الحيا
يردعه وسمعت من يحكي عن ابي بكر الرازي من اصحاب ابي
حنيفه ان المعنى فيه اذا عرضت عليك افعالك التي هممت بفعلها
فلم تستحي منها لحسنها وجمالها فاصنع ما شئت منها فجعل الحيا
حكما على افعاله وكلا القولين حسن والاول اشبه لان كلام النبي
صلى الله عليه وسلم خرج مخرج الذم لا مخرج الامر لكن قد جا الحديث
بما يضاهي القول الثاني وهو قوله صلى الله عليه وسلم ما احببت ان تسمعه
اذناك فأته وما كرهت ان تسمعه اذناك فاجتنبه ويجوز
ان يحمل على هذا الحديث على المعنى الصحيح فيه ويكون التاويل الاول
في الحديث المتقدم اصح اذ ليس يلزم ان يكون احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
كلها متفقة المعاني بل اختلاف معانيها ادخل في الحكمة وابلغ في
الفصاحة اذا لم يضاد بعضها بعضا **واعلم** ان الحيا في الانسان
قد يكون من ثلثة اوجه احدها حياؤه من الله عز وجل والثاني
حياؤه من الناس والثالث حياؤه من نفسه فاما حياؤه من الله تعالى
فيكون بامتثال اوامره والكف عن زواجره وروى ابن مسعود ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال استحيوا من الله عز وجل حق الحيا قيل يا رسول الله
وكيف نستحي من الله حق الحيا قال من حفظ الراس وما حوى والبطن
وما وعى وترك زينة الحيوة الدنيا وذكر الموت والبلا فقد
استحي من الله حق الحيا وهذا الحديث من ابلغ الوصايا قال
اقضى القضاة رحمه الله رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام

ذات ليلة فقلت يا رسول الله اوصني فقال استحي من الله عز وجل
حق الحيا ثم قال تعيَّب الناس قلت وكيف يا رسول الله قال قد كنت
انظر الى الصبي فارى في وجهه البشر والحيا وانا انظر اليه
اليوم فلا ارى ذلك في وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات
تصورتها واذهلني السرور عن حفظها ووددت ان لو حفظتها
فلم يبدأ صلى الله عليه وسلم بشي قبل الوصية بالحيا من الله تعالى
وجعل ما سلبه الصبي من البشر والحيا لتعيب الناس وحض
الصبي لان ما ياتيه بالطبع من غير تكلف فصلى الله عليه من
هاد امته تابع انذارها وقطع اعذارها وواصل تاديبها
وحفظ تهذيبها وجعل لكل عصر حظا من زواجره ونصيبا
من اوامره اعان الله على قبولها بالعمل وعلى استدامتها
بالتوفيق وقد روي ان علقمة بن علاثة قال يا رسول الله
عظني فقال النبي صلى الله عليه وسلم استحي من الله تعالى استحياك
من ذي الهيبة من قومك **وهذا الحيا** النوع من الحيا
يعني من الله تعالى يكون من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم قلة الحيا كفر يعني من الله تعالى لما
فيه من مخالفة اوامره وقال النبي صلى الله عليه وسلم الحيا
نظام الايمان فاذا انحل نظام الشي تبدد ما فيه وتفرق
واما حياؤه من الناس فيكون بكف الاذى وترك المجاهرة
بالقبيح وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تقوى الله

اتقا الناس وروي ان حذيفه بن اليمان اتى الجمعه فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس فقال لا خير فى من لا يستحيي من الناس وقال بشار

ولقد اصرف الفواد عن الشيء حيا وحبه فى السواد
امسك الفتى بالعفاف وامسي ذاكرا انى غدا حديث الاعادي

وهذا النوع من الحيا قد يكون من كمال المروة وحب الثنا فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من القى جلباب الحيا فلا غيبة له يعني والله اعلم لقلة مروته وظهور شهوته وروى الحسن عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من مروة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه والفه وجليسه وقال بعض الشعرا

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها الا الحيا
اذا رزق الفتى وجها وقاحا تقلب فى الامور كما يشا

وقال اخر

اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا وتستحي مخلوقا فما شئت فاصنع

واما حياوه من نفسه فيكون بالعفه وصيانة الخلوات وقد قال بعض الحكما ليكن استحياوك من نفسك كاستحيايك من غيرك وقال بعض الادبا من عمل في السر عملا يستحيي منه في العلانيه فليس لنفسه عنده قدر ودعا قوم رجلا كان يالف عشرتهم فلم يجبهم وقال اني دخلت البارحة

في الاربع

بي الاربعين من سني وانا استحيي من سني وقال بعض الشعرا

فسري كاعلاني وتلك خليقتي وظلمة ليلي مثل ضو نهاري

وهذا النوع من الحيا قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريره فمتى كان حيا الانسان من وجوهه الثلاثه فقد كملت فيه اسباب الخير واهفت عنه اسباب الشر وصار بالفضل مشهورا وبالجميل مذكورا قال بعض الشعرا

واني ليثنيني عن الجهل والخنا وعن شتم ذي القربى خلائق اربع
حيا واسلام وتقوى وانني كريم ومثلي من يضر وينفع

فان اخل باحد وجوه الحيا لحقه من النقص باخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله وقد قال الرياشي يقال ان ابا بكر الصديق رض كان يتمثل بهذا الشعر

وحاجة دون اخرى قد سنحت بها جعلتها للتي اخفيت عنوانا
اني كاني ارى من لا حيا له ولا امانة وسط القوم عريانا

الفصل الرابع في الحلم والغضب

روى محمود بن حارث الهلالي ان جبريل نزل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد اني اتيتك بمكارم الاخلاق في الدنيا والاخرة خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين وروى سفيان بن عيينه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال حين نزلت هذه الايه يا جبريل ما هذا قال ما ادري حتى اسال العالم ثم عاد جبريل وقال يا محمد ان ربك يامرك ان تصل من قطعك

الانسان؟

وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وروى هشام عن الحسن
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أيعجز احدكم ان يكون كابي ضمضم كان
اذا خرج الى منزله قال اللهم اني قد تصدقت بعرضي على عبادك
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى يحب
الحليم الحيي ويبغض الفاحش البذي وقال علي بن ابي طالب
من حلم ساد ومن تفهم ازداد وقال بعض الادبا من
غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم وقال بعض البلغا ما ذب
عن الاعراض كالصفح والاعراض وقال بعض الشعرا

أحب مكارم الاخلاق جهدي • وأكره أن أعيب وأن أعابا •
واصفح عن سباب الناس حلما • وشر الناس من يهوى السبابا •
ومن هاب الرجال تهيبوه • ومن حقر الرجال فلن يهابا •

فالحلم من اشرف الاخلاق واحقها بذوي الالباب لما
فيه من سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد وقد
قال علي بن ابي طالب اول عوض الحليم عن حلمه ان
الناس انصاره وحد الحلم هو ضبط النفس عن هيجان
الغضب وهذا يكون باعث وسبب واسباب الحلم
الباعثة على ضبط النفس عشرة احدها الرحمة وذلك عن
خير يوافق رقة وقد قيل في منثور الحكم من اوكد
اسباب الحلم رحمة الجهال وقال ابو الدردا
لرجل اسمعه كلاما يا هذا لا تغرقن في شتمنا ودع للصلح

موضعا فانا لا نكافي من عصى الله فينا باكثر من ان نطيع الله
فيه وشتم رجل الشعبي فقال ان كنت كما قلت فغفر الله
لي وان لم اكن كما قلت فغفر الله لك واغاضت
جارية لها رضي الله عنه من خادم لها ثم رجعت الى نفسها فقالت لله در
التقوى ما تركت لذي غيظ شفا وقسم معاوية قطفا
فاعطى شيخا من اهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فحلف ان يضرب
بها راس معاوية فاتاه فاخبره فقال له معاوية اوف بنذرك
وليرفق الشيخ بالشيخ والثاني من اسبابه القدرة على
الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا اقدرت على عدوك
فاجعل العفو عنه شكر القدرة عليه وقال بعض الحكما
ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا من السطوة وقال
بعض البلغا احسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقد والثالث
من اسبابه الترفع عن السباب وذلك من شرف النفس وعلو
الهمة كما قالت الحكما شرف النفس ان تحمل المكاره كما تحمل
المكارم وقد قيل ان الله تعالى سمى يحيى سيدا لحلمه
وقال الشاعر •

لن يبلغ المجد اقوام وان شرفوا • حتى يذلوا وان عزوا لاقوام •
ويشتموا فترى الالوان مشرقة • لا عفو ذل ولكن عفو احلام •

والرابع من اسبابه الاستهانة بالسباب وذلك عن ضرب

من الكبر والاعجاب كما حكي عن مصعب بن الزبير انه لما
ولي العراق اقام منادية فنادى اين عمرو بن جرموز وهو
الذي قتل اباه الزبير فقيل له ايها الامير انه قد باعد
في الارض فقال أيظن الجاهل اني أقيده بابي عبد الله
فليظهر آمنا وليأخذ عطاه موفرًا افعد التابع ذلك من
مستحسن الكبر ومثل ذلك قول بعض الشعراء شعره

أو كلما طن الذباب طردته ۰ إن الذباب اذا علي كريم

وأكثر رجل من سب الاحنف فلم يجبه فقال والله ما
منعه من جوابي الا هواني عليه وفي مثله يقول الشاعر

نجا بك لؤمك منجى الذباب ۰ حمته مقاذره ان ينالا

وأسمع رجل ابن هبيرة فاعرض عنه فقال له الرجل
اياك أعني قال وعنك أعرض وفي مثله يقول الشاعر

فاذهب فانت طليق عرضك انه ۰ عرض عززت به وانت ذليل

وقال عمر بن علي

اذا نطق السفيه فلا تجبه ۰ فخير من اجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن اني ۰ عييت عن الجواب وما عييت

والخامس من اسبابه الاستحيا من جزاء الجواب وهذا
يكون من صيانة النفس وكمال المروة وقد قال بعض الحكما
احتمال السفيه ايسر من التحلي بصورته والاغضا عن الجاهل
خير من مشاكلته وقال بعض الادبا ما الفحش حكيم

ولا اوحش كريم وقال لقيط بن زرارة

وقل لبني سعد فما لي وما لكم ۰ ترقون مني ما استطعتم واعتق
أغركم أني باحسن شيمة ۰ بصير واني بالفواحش اخرق
وانك قد فاحشتني فقهرتني ۰ هنيئا مريئا انت بالفحش أحرق

والسادس من اسبابه التفضل على السباب وهذا يكون
من الكرم وحب التألف كما قيل للاسكندر ان فلانا وفلانا
ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما فقال هما بعد العقوبة اعذر
في تنقصي وثلبي وكان هذا تألفا وتفضلا منه وتألفا وقد
حكي عن الاحنف انه قال ما عاداني احد الا اخذت في
امره باحدى ثلث خصال ان كان اعلى مني عرفت له قدره
وان كان دوني رفعت قدري عنه وان كان نظيري تفضلت
عليه فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ۰ وان عظمت منه الي الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلثة ۰ شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذي فوقي فاعرف قدره ۰ فأتبع فيه الحق والحق لازم
واما الذي دوني فاعفو وانما ۰ أصون به عرضي وان لام لائم
واما الذي مثلي فان زل او هفا ۰ تفضلت ان الفضل بالعز حاكم

والسابع من اسبابه استكفاف السباب وقطع السباب وهذا
يكون من الحزم كما حكي ان رجلا قال لضرار بن القعقاع
والله لو قلت واحدة لسمعت عشرا فقال ضرار والله لو قلت

عشرة الرقيع واحدة وحكي ان علي بن ابي طالب كرم الله وجهه
قال لعامر بن مرة الزهري من احمق الناس فقال من ظن انه اعقل
الناس فقال صدقت فمن اعقل الناس فقال من لم يتجاوز الصمت
في عقوبة الجهال وقال الشعبي ما ادركت امي فابرها ولكن لا اسب
احدا فيسبها وقال بعض الحكما اعراضك صون اعراضك
وقال بعض الشعرا

وفي الحلم ردع للسفيه عن الاذى ... وفي الخرق اغرا فلا تك اخرقا
فتندم اذ لا تنفعنك ندامة ... كما ندم المغبون لما تفرقا

وقال اخر

قل ما بدا لك من زور ومن كذب ... حلمي اصم واذني غير صما

والثامن من اسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا
يكون من ضعف النفس وربما اوجبه الراي واقتضاه الحزم
وقد قيل في منثور الحكم الحلم حجاب الافات وقال الشاعر

ارفق اذا خفت من ذي هفوة خرقا ... ليس الحليم كمن في امره خرق

والتاسع من اسبابه الرعاية ليد سالفة او حرمة لازمة
وهذا يكون من الوفا وحسن العهد وقد قيل في منثور الحكم
اكرم الشيم ارعاها للذمم وقال الشاعر

ان الوفا على الكرام فريضة ... واللوم مقرون بذي الاخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفا ... وترى اللئيم مجانب الانصاف

والعاشر من اسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا
يكون من الدها وقد قيل في منثور الحكم من ظهر غضبه
قل كيده وقال بعض الادبا غضب الجاهل في قوله
وغضب العاقل في فعله وقال بعض الحكما اذا سكت
عن الجاهل فقد اوسعته جوابا واوجعته عقابا وقال
اياس بن قتادة

تعاقب ايدينا ويحلم راينا ... ونشتم بالافعال لا بالتكلم

وقال اخر

والكف عن شتم اللئيم تكرما ... اضر له من شتمه حين يشتم

فهذه عشرة اسباب تدعو الى الحلم وبعض الاسباب
افضل من بعض وليس اذا كان بعض اسبابه مفضولا ما يقتضي
ان يكون نتيجته من الحلم مذموما وانما الاولى بالانسان ان يدعوه
الى الحلم افضل اسبابه وان كان الحلم كله فضلا فان عري
عن احد هذه الاسباب كان ذلا ولم يكن حلما لانا قد ذكرنا
في حد الحلم انه ضبط النفس عن هيجان الغضب فاذا فقد الغضب
بسماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية ولذلك
قالت الحكما ثلثة لا يعرفون الا في ثلثة مواطن لا يعرف الجواد
الا في العسرة والشجاع الا في الحرب والحليم الا في الغضب وقال الشاعر

ليست الاحلام في حال الرضى ... انما الاحلام في حال الغضب

وقال اخر

من يدعي الحلم اغضبه لتعرفه ... لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب

وانشد النابغة الجعدي بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا خير في حلم اذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه ان يكدرا
ولا خير في جهل اذا لم يكن له ... حليم اذا ما اورد الامر اصدرا

فلم يكن قوله عليه ومن فقد الغضب في الاشيا المغضبة
حتى استوت حالتاه قبل الاغضاب وبعده فقد عدم من فضائل
النفس الشجاعة والانفة والحمية والغيرة والدفاع والاخذ
بالثار لانها خصال مركبة من الغضب فاذا عدمها الانسان
هان بها ولم يكن لباقي فضايله في النفوس موضع ولا لوفور حلمه
في القلوب موقع وقد قال المنصور اذا كان الحلم مفسدة
كان العفو معجزة وقال بعض الحكما العفو يفسد من اللئيم
بقدر اصلاحه من الكريم وقال عمرو بن العاص اكرموا
سفهاكم فانهم يكفونكم العار والنار وقال مصعب بن الزبير
ما قل سفهاء قوم الا ذلوا فقال ابو تمام الطائي
والحرب تركب راسه في مشهد • عدل السفيه به بالف حليم •
وليس هذا القول اغرا بتحكيم الغضب والانقياد له عند
حدوث ما يغضب فيكتسب بالانقياد للغضب من الرذائل اكثر
مما يسلبه عدم الغضب من الفضائل ولكن اذا ثار به الغضب عند
هجوم ما يغضب كف سورته بحزمه واطفا نايرته بحلمه ووكل
من استحق المقابلة الى غيره فلن يعدم مسيا مكافيا كما لن يعدم
محسن مجازيا والعرب تقول دخل بيتا ما خرج منه اي ان
خرج منه خير دخله خير وان خرج منه شر دخله شر
وانشد ابن دريد عن ابي حاتم
اذا امن الجهال جهلك مرة • فعرضك للجهال غنم من الغنم •
معمر عليه الجهل والحلم والقه • بمنزلة بين العداوة والسلم •
اذا انت جاريت السفيه كما جرى • فانت سفيه مثله غير ذي حلم •
ولا تقضين عرض السفيه ودارِه • بحلم فان اعيى عليك فبالصرم •
فيرجوك تارة ويخشاك تارة • وتاخذ فيما بين ذلك بالحزم •
فان لم تجد بدا من الجهل فاستعن • عليه بجهال فذاك من الحزم •
وهذه من احكم ابيات وجدتها في تدبير الحلم والغضب
وهذا التدبير انما يستعمل فيما لا يجد الانسان بدا من مقارضته
ولا سبيلا الى اطراحه ومتاركته اما لخوف شره او للزوم امره
فاما من امكن اطراحه ولم يضر ابعاده فالاهوان به اولى
والاعراض عنه اصوب فاذا كان على ما وصفت استفاد بتحريك
الغضب فضائله وامن بكف نفسه عن الانقياد له رذائله وصار
الحلم مدبرا للامور المغضبة بقدر لا يعتوره نقص بعدم الغضب
ولا يلحقه زيادة بفقد الحلم ولو عزب عنه الحلم حتى انقاد
لغضبه ضل عنه وجه الصواب فيه وضعف رايه عن خبرة اسبابه
ودواعيه حتى يصير بليد الراي مغمور الروية مقطوع الحجة
مسلوب العزم قليل الحيلة مع ما يناله من اثر ذلك في نفسه وجسده
حتى يصير اضر عليه مما غضب له وقد قال بعض الحكما من كثر
شططه كثر غلطه وروي ان سلمان قال لعلي رضي الله عنه
ما الذي يباعدني من غضب الله قال ان لا تغضب وقال
بعض السلف اقرب ما يكون العبد من غضب الله تعالى اذا غضب

وقال بعض البلغا من رد غضبه هد من أغضبه وقال بعض الادبا ما هيج جاشك كغيظ أجاشك وقال رجل لبعض الحكما عظني فقال لا تغضب فينبغي لذي اللب السوي والحزم القوي ان يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها ويقابل دواعي شدته بردها ليحظى باجل الحيوة ويسعد بحميد العاقبة وقال بعض الادبا في اغضابك راحة أعضايك وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها وسبب الحزن هجوم ما تكرهه النفس ممن فوقها والغضب يتحرك من داخل الجسد الى خارجه والحزن يتحرك من خارج الجسد الى خارجه داخله ولذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون الحزن وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام والحادث عن الحزن المرض والاسقام لكمونه فمن اجل ذلك افضى الحزن الى الموت دون الغضب ولم يفض الغضب فهذا الفرق ما بين الحزن والغضب

واعلم ان لتسكين الغضب اذا هجم اسبابا يستعان بها على الحلم منها ان يذكر الله عز وجل فيدعوه ذكره الى الخوف منه ويبعثه الخوف منه على الطاعة له فيرجع الى ادبه ويأخذ بندبه فعند ذلك يزول الغضب وقال الله تعالى واذكر ربك اذا نسيت قال عكرمة يعني اذا غضبت وقال الله تبارك وتعالى واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ومعنى قوله ينزغنك يغضبك فاستعذ بالله انه سميع عليم يعني سميع بجهل من جهل

عليم بما يذهب عنك الغضب وذكر ان في التوراة مكتوب يا ابن ادم اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب فلا امحقك فيمن امحق وحكي ان بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه الى حاجب له وقال اذا غضبت فناولنيه وكان فيه مكتوب ما لك والغضب انما انت بشر ارحم من في الارض يرحمك من في السما وقال بعض الحكما من ذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته في ظلم عباد الله وقال عبد الله بن مسلم بن محارب لهرون الرشيد يا امير المومنين أسالك بالذي انت بين يديه اذل مني بين يديك وبالذي هو اقدر على عقابك منك على عقابي لما عفوت عني فعفا عنه لما ذكره قدرة الله عز وجل عليه وروي ان رجلا شكى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطلع في القبور واعتبر بالنشور وكان بعض ملوك الطوائف اذا غضب القى عنده مفاتيح ترب الملوك فيزول عنه غضبه ولذلك قال عمر بن الخطاب رض من اكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ومنها ان ينتقل عن الحالة التي هو فيها الى حالة غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الاحوال والتنقل من حال الى حال وكان هذا مذهب المامون اذا غضب او شتم وكانت الفرس تقول اذا غضب القائم فليجلس واذا غضب الجالس فليقم ومنها ان يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام كتب ابرويز الى ابنه شيرويه ان كلمة منك

نفسك دمًا وان اخرى منك تحقن دمًا وان نفاذ امرك مع ظهور
كلامك فاحترس في غضبك من قولك ان تخطي ومن لونك ان تتغير
ومن جسدك ان يخف فان الملوك تعاقب قدرةً وتعفو حلمًا وقال
بعض الحكما الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لوم وقال
بعض الادبا اياك وعزة الغضب فانها تفضي الى ذل العذر وقال
بعض الشعرا واذا ما اعترتك في الغضب العزة فاذكر تذلل الاعتذار
ومنها ان يذكر ثواب العفو وجزا الصفح فيقهر نفسه على
الغضب رغبةً في الجزا والثواب وحذرًا من استحقاق الذم
والعقاب وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ينادي منادٍ يوم
القيامة من له اجرٌ على الله عز وجل فليقم قال فيقوم العافون
عن الناس ثم تلا فمن عفى واصلح فاجره على الله وقال
رجا بن حيوة لعبد الملك بن مروان في اسارى ابن الاشعث ان الله
عز وجل قد اعطاك ما تحب من الظفر فاعطِ الله ما يحب من
العفو وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الخير ثلث
خصال من كن فيه استكمل الايمان من اذا رضي لم يدخله رضاه
الى باطل واذا غضب لم يخرجه غضبه من حق واذا قدر عفا
واسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلامًا فقال عمر اردت
ان يستفزني الشيطان فانال منك اليوم ما تناله مني غدًا
انصرف رحمك الله ومنها ان يتذكر انعطاف القلوب
عليه وميل النفوس اليه فلا يرى اضاعة ذلك بتغيير الناس

عنه فيرغب في التألف وجميل الثنا وروى ابن ابي ليلى عن عطية عن
ابي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ازداد احدكم بعفو
الا عزًا فاعفوا يعزكم الله وقال بعض البلغا ليس من عادة
الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرم ازالة النعم وقال
المامون لابرهيم بن المهدي اني شاورت في امرك فاشاروا علي
بقتلك الا اني وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم
حرمتك فقال يا امير المومنين ان المشير قد اشار بما جرت به
العاده في السياسه الا انك ابيت النصر الا من حيث عودته
من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك
وانشا يقول

فالبرّ مني منك وطّى العذر عندك لي • فيما فعلت ولم تعذل ولم تلم •
وقام علمك بي فاحتج عندك لي • مقام شاهد عدلٍ غير متهم •
لئن جحدتك معروفًا مننت به • اني لفي اللوم احظى منك في الكرم •
تعفو بعدلٍ وتسطو ان سطوت به • فلا عدمناك من عافٍ ومنتقم •

الفصل الخامس في الصدق والكذب

قال الله تعالى وهو اصدق القائلين ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على
الكاذبين وقال عز وجل انما يفتري الكذب الذين لا يومنون بايات
الله وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال للحسن بن علي
دع ما يريبك الى ما لا يريبك فان الكذب ريبه والصدق
طمانينه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رحم الله امرًا اصـ

اصلح من لسانه وقصر من عنانه ولزم طريق الحق بقوله ولم يعود
الخطل مقطله وروى صفوان بن سليم قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم
ايكون المومن جبانا قال نعم قيل ايكون بخيلا قال نعم قيل
ايكون كذابا قال لا وقال ابن عباس في قوله تعالى ولا
تلبسوا الحق بالباطل اي لا تخلطوا الصدق بالكذب وقيل في
منثور الحكم الكذاب لص لان الكذاب يسرق مالك والكذاب
يسرق عقلك وقال بعض الحكما الخرس خير من الكذب
وصدق اللسان اول السعادة وقال بعض البلغا الصادق
مصان جليل والكاذب مهان ذليل وقال بعض الادبا لا
سيف كالحق ولا عون كالصدق وقال بعض الشعرا

وما شي اذا فكرت فيه ... باذهب للمروة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه ... وابعد بالبها من الرجال

والكذب جماع كل شر واصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتايجه
لانه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضا والبغضا تؤول الى العداوة
وليس مع العداوة امن ولا راحة ولذلك قيل من قل صدقه
قل صديقه والصدق والكذب يدخلان الاخبار الماضية
كما ان الوفا والخلف يدخلان المواعيد السابقة فالصدق هو
الاخبار عن الشي على ما هو عليه والكذب الاخبار عن الشي
بخلاف ما كان عليه ولكل منهما داع فدواعي الصدق لازمة
ودواعي الصدق (الكذب) عارضة لان الصدق يدعو اليه عقل موجب وشرع

ان المتعلم ضربان مستدعى وطالب فاما المستدعى الى العلم فهو من
استدعاه العالم الى التعلم لما ظهر له من جودة ذكايه وبان له
من جودة خاطره فاذا وافق استدعا العالم شهوة المتعلم كانت
[illegible] نتيجتهما [illegible] درك النجبا وظفر السعدا لان العالم
باستدعايه متوفر والمتعلم بشهوته وذكايه مستكثر واما
الطالب للعلم لداع يدعوه وباعث يحدوه فان كان الداعي
دينيا وكان المتعلم متيقظا فطنا ذكيا وجب على العالم ان يكون
عليه مقبلا وعلى تعليمه متوفرا لا يخفي عنه مكنونا ولا يطوي
عنه مخزونا وان كان بليدا بعيد الفطنة فينبغي ان لا يمنع من اليسير
فيحرم ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم ولا يجعل بلادته ذريعة لحرمانه
فان الشهوة باعثة والصبر موثق وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال لا تمنعوا العلم اهله فتظلموا ولا تضعوه في غير اهله
فتاثموا وقال بعض الحكما لا تمنعوا العلم احدا فان العلم امنع
لجانبه فاما ان لم يكن الداعي دينيا ونظر فيه فان كان مباحا كرجل
دعاه الى طلب العلم حب النباهة وطلب الرياسة فالقول فيه يقارب
القول في تعليم من قبل لان العلم يعطفه الى الدين في ثاني الحال
وان لم يكن مبتديا به في اول حاله وقد حكي عن سفيان الثوري انه
قال تعلمنا العلم لغير الله فابى ان يكون الا لله وقال عبد الله
بن المبارك طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا فان كان الداعي
محظورا كرجل دعاه الى طلب العلم شر كامن ومكر باطن يريد ان

يستعملهما في شبه دينيه واقوال فقهيه لا يجد اهل السلامه
منهما مخلصا ولا عنهما مدفعا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم هلاك من
امتي رجلان عالم فاجر وجاهل متعبد وقيل يا رسول الله
اي الناس اشر قال العلما اذا فسدوا فينبغي للعالم اذا راى
من هذه حاله ان يمنعه من طلبته ويصرفه عن طلب بغيته
على امضاء مكره واعمال شره وقد روى انس بن مالك ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال واضع العلم في غير اهله كمقلد اللولو الخنازير
اللولو والجوهر والذهب وقال عيسى بن مريم عليهما السلام لا تعلقوا
اللولو في اعناق الخنازير فالعلم افضل من اللولو ومن لا يستحقه
شر من الخنزير وروي ان تلميذا سال عالما عن بعض العلوم فلم
يفده فقيل له لم منعته فقال لكل تربة غرس ولكل بناء اس
وقال بعض العلما لكل ثوب لابس ولكل علم قابس وقال
بعض الادبا ارث لروضة توسطها خنزير وابك لعلم حواه شرير
وينبغي ان يكون للعالم فراسه يتوسم بها المتعلم ليعرف بها مبلغ
طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يحتمله بذكايه او يضعف عنه
ببلادته فانه اروح للعالم وانجح للمتعلم وقد روى ثابت عن
انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله عبادا يعرفون الناس
بالتوسم وقال عمر بن الخطاب اذا انا لم اعلم ما لم ار فلا
علمت ما رايت وقال عبد الله بن الزبير لا عاش بخير من لم
ير برايه ما لم ير بعينه قال ابن الرومي

المعي يرى باول راي ... اخر الامر من وراء الغيوب
لوذعي له فواد ذكي ... ما له في ذكايه من ضريب
لا يروي ولا يقلب كفا ... واكف الرجال في تقليب

فاذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفه وكان بقدر
استحقاقهم خبيرا لم يضع له عنا ولم يخب على يده طالب وان
لم يتوسمهم وخفيت عليهم احوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا واياه
في عنا مكد وتعب غير مجد لانه لا يعدم ان يكون فيهم
ذكي يحتاج الى زياده وبليد يحتاج الى التقليل ويعجز البليد
ومن تردد اصحابه بين ضجر او عجز ملوه وملهم وقد روى
عبد الله بن وهب عن سفيان قال قال الخضر لموسى عليهما السلام
يا طالب العلم ان القايل اقل ملالة من السامع المستمع فلا
تمل جلساك اذا حدثتهم يا موسى فاعلم ان قلبك وعا فانظر ما
تحشو به وعاءك وقال بعض الحكما خير العلما من لا يقل
ولا يمل وقال بعض الحكما كل علم كثر على السمع ولم يطاوعه
الفهم ازداد عمى به القلب وانما يسمع السمع في الاذان اذا
قوي فهم القلوب في الابدان وربما كان لبعض السلاطين
رغبه في العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه فلا يجعل ذلك
ذريعه في الانبساط عنده والادلال عليه بل يعطي ما يستحقه
بسلطانه وعلو يده فان للسلطان حق الطاعه والاعظام
وللعالم حق القبول والاكرام ثم لا ينبغي ان يبتذله الا

بعد الاستدعاء، ولا يزيده على قدر الاكتفاء، فربما احب بعض
العلماء اظهار علمه للسلطان فاكثر فصار ذلك ذريعة الى
ملله ومفضيا الى بعده لان السلطان منقسم الافكار مستوعب
الزمان فليس له في العلم فراغ المنقطعين اليه ولا صبر المتفردين
به وقد حكي عن الاصمعي انه قال قال لي الرشيد يا عبد الملك
انت اعلم منا ونحن اعقل منك لا تعلمنا في ملاء ولا تسرع الى
تذكيرنا في خلاء واتركنا حتى نبتديك بالسؤال فاذا بلغت من
الجواب حسب الاستحقاق فلا تزد الا ان نستدعي ذلك منك
انظر الى ما هو الطف في التاديب وانصف في التعليم وبلغ
باوجز لفظ غاية التقويم ولتخرج تعليمه مخرج المذاكرة
والمحاظرة لا مخرج التعليم والافادة لان لتاخير التعلم خجلة
تقصير يجل السلطان عنها فان ظهر منه خطا او زلل في قول
او عمل لم يجاهره بالرد وعرض باستدراكه واصلاح خلله
وحكي ان عبد الملك بن مروان قال للشعبي كم عطاءك قال
الفين قال لحنت قال لما ترك امير المؤمنين الاعراب كرهت ان اعرب
كلامي عليه ثم يحذر اتباعه فيما جانب الدين وضاد الحق
موافقة لرايه ومتابعة لهواه فربما زلت اقدام العلماء في
ذلك رغبة او رهبة فضلوا واضلوا وقد روى الحسن
البصري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال هذه الامة تحت
يد الله وفي كنفه ما لم يمال قراؤها امراءها ولم يزك

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اللهم اني اعوذ بك من علم لا
ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل ينتظر احدكم
الا غنى مطغيا او فقرا منسيا او مرضا مفسدا او هرما مفندا او
الدجال فهو شر غائب ينتظر او الساعة فالساعة ادهى وامر وحكي
ان الله اوحى الى عيسى بن مريم عليه السلام ان هب لي من قلبك الخشوع
ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع وادعني فاني قريب وقال عيسى
بن مريم عليه السلام اوحى الله الى الدنيا من خدمني فاخدميه ومن
خدمك فاستخدميه وقال بعض البلغاء زد من طول املك في قصر
عملك فان الدنيا ظل الغمام وحلم النيام فمن عرفها ثم طلبها فقد اخطا
الطريق وحرم التوفيق وقال بعض الحكماء لا يؤمننك اقبال الدنيا
عليك من ادبارها عنك ولا دولة لك من ادالة منك وقال اخر ما مضى
من الدنيا كما لم يكن وما بقي كما مضى قيل لزاهد قد طلقت
الدنيا فكيف سخت نفسك عنها فقال ايقنت اني اخرج منها كارها
فرايت ان ادعها طائعا وقيل لحرقة بنت النعمان ما لك تبكين
قال رايت لاهلي ولن تمتلئ دار فرحا الا امتلات ترحا وقال
ابن السماك من جرعته الدنيا حلاوتها بميله اليها جرعته الاخرة مرارتها
لتجافيه عنها وقال صاحب كليلة طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما
ازداد شربا ازداد عطشا وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الابيات
نهارك يا مغرور سهو وغفلة : وليلك نوم والاسى لك لازم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى . كما سر باللذات في النوم حالم

ويشتغل فيما سوف يكره غبه • كذلك في الدنيا تعيش البهائم •
وسمع رجل رجلاً يقول لصاحبه لا أراك الله مكروهاً فقال كأنك
دعوت على صاحبك بالموت ان صاحبك ما صاحب الدنيا فلابد أن
يرى مكروها وقال ابو العتاهية
إن الزمان وان ألان • لأهله لمخاشن •
تخطو به المتحركات • كأنهن سواكن •
ثم اعلم ان الثانية من أحوال رياضتك لها أن تصد نفسك فيما
منحتك من رغائبها وأنالتك من أغراضها فتعلم ان العطية فيها
مرتجعة والمنحة فيها مستردة بعد أن تبقي عليك من ما احتقبت من
اوزار وصولها اليك وحسرات خروجها عنك وقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال لا تزول قدما ابن ادم من بين يدي الله
حتى يسأل عن ثلث شبابه فيم أنفقه وعمره فيم أفناه وماله من
اين كسبه وفيم أنفقه وروي عن عيسى بن مريم انه قال في المال
ثلث خصال قالوا وما هن يا روح الله قال يكسبه من غير حله قالوا
فان كسبه من حله قال يضعه في غير حقه قالوا فان وضعه في حقه
قال يشغله عن عبادة ربه ودخل ابو حازم على بشر بن مروان فقال
له يا أبا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال تنظر ما عندك فلا تضعه الا
في حقه وما ليس عندك فلا تأخذه الا بحقه قال ومن يطيق هذا
يا أبا حازم قال فمن اجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين
وعير بعض اليهود عيسى بن مريم بالفقر فقال من الغنى أوتيتم

ودخل قوم منزل عابد فلم يجدوا شيئاً يقعدون عليه فقال
لهم لو كانت دار مقام لاتخذنا لها أثاثاً وقيل لبعض الزهاد
ألا توصي قال بماذا اوصي والله ما لنا عند احد شيء ولا لاحد
عندنا شيء أنظر الى هذه الراحة كيف تعجلتها والى السلامة كيف
صار اليها ولذلك قيل الفقر ملك ليس فيه محاسبة وقيل
لعيسى عليه السلام ألا تتزوج فقال انما يحب التكاثر في دار البقا
وقيل له لو دعوت الله ان يرزقك حماراً فقال انا أكرم
على الله من ان يجعلني خادم حمار وقيل لابي حازم ما مالك
قال شيئان الرضى عن الله والغنى عن الناس وقيل له انك
لمسكين فقال كيف اكون مسكيناً ومولاي له ما في السماوات وما
في الارض وما بينهما وما تحت الثرى وقال بعض الحكماء رب
مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه وقال بعض اهل
الادب الناس أشتات ولكل جمع شتات وقال بعض البلغاء الزهد بصحة
اليقين يورث الدين فمن صح يقينه زهد في الثروة ومن قوي دينه
ايقن بالجزاء فلا يغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك فمدة العمر قليلة
وصحة النفس مستحيلة وقال بعض الشعراء
رب مغروس يعاش به • عدمته كف مغترسه •
وكذاك الدهر مأتمه • اقرب الاشياء الى عرسه •
فاذا رضيت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلاث
خصال احداهن نصح نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لها وقد

اعتمدت عليك فان غاش نفسه مغبون والمنحرف عنهما مأفون والثانية
الزهد فيما ليس عليك تكلف طلبه وتسلم من شغل كسبه والثالثة
انتهاز الفرصة فيما لك ان تضعه في حقه وان تؤتيه لمستحقه
ليكون لك ذخراً ولا يكون عليك وزراً وقد روي ان رجلاً قال
يا رسول الله اني اكره الموت قال لك مال قال نعم قال قدم
مالك فان قلب المرء عند ماله وقالت عائشة ذبحنا شاة فتصدقنا
بها فقلت يا رسول الله ما بقي منها الا كتفها فقال كلها بقيت الا
كتفها وروي ان عبد الله بن مسعود باع داراً بثمانين الف درهم
فقيل له لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً فقال انا اجعل هذا
المال لي ذخراً عند الله واجعل الله ذخراً لولدي وتصدق بها
وعوتب سهل بن عبد الله المروزي في كثرة الصدقة فقال لو ان
رجلا اراد ان ينتقل من دار الى دار هل كان يبقي في الاولى شيئاً
وقال سليمان بن عبد الملك لابي حازم ما لنا نكره الموت قال لانكم
اخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم ان تنتقلوا من العمران
الى الخراب وقيل لعبد الله بن عمر توفي زيد بن خارجة مائة الف
درهم قال لكنها لا تتركه وقال الحسن البصري ما انعم الله عليه
فيها الا وعليها عليه فيها تبعة الا سليمن عليه السلام فان الله تعالى يقول
قال هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب وقال ابو حازم
ان عوفينا من شر ما اعطينا لم يضرنا ما زوي عنا وقال بعض
السلف قدموا كلاً ليكون لكم ولا تخلفوا كلا فيكون عليكم وقال

ابرهيم فنعم القوم السؤال يدقون ابوابكم يقولون توجهون الى
الاخرة شيئاً وقال سعيد بن المسيب مررت بصلة بن اشيم فما ملكت
ان نهضت اليه فقلت يا ابا الصهباء ادع لي فقال رغبك الله فيما يبقى
وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين الذي لا تسكن النفوس الا اليه
ولا تعول في الدين الا عليه ولما ثقل عبد الملك بن مروان رأى
غسالاً يلوي بيده ثوبا فقال وددت اني كنت غسالا لا اعيش الا بما
اكسبه يوما فيوما فبلغ ذلك ابا حازم فقال الحمد لله الذي جعلهم
عند الموت يتمنون ما نحن فيه ولا نتمنى عنه ما هم فيه وروي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال يقول ابن ادم مالي مالي ما لك من مالك الا
ما اكلت فافنيت او لبست فابليت او اعطيت فامضيت وقال خالد بن
صفوان بت ليلتي اتمنى فكنست البحر الاخضر بالذهب الاحمر فاذا
الذي يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران وقال مورق العجلي
يا ابن ادم كل يوم ياتي رزقك وانت تحزن وينقص عمرك وانت لا تحزن
تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك وقال ابو حازم انما بيني وبين الملوك
يوم واحد اما امس فلا يجدون لذته وانا وهم من غد على وجل
وانما هو اليوم فما عسى ان يكون وقال بعض السلف تعزّ عن الشيء
اذا منعته بقلة ما يصحبك اذا اعطيته وقال بعض الحكماء من ترك نصيبه
من الدنيا استوفى حظه من الاخرة وقال اخر ترك التلبس بها قبل
التشبث بها اهون من رفضها بعد ملابستها وقال اخر الزاهد من
لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود وقال اخر من آمن بالاخرة لم

يحرص على الدنيا ومن أيقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنى وقال اخر
من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر وقال ابو العتاهية

أرى الدنيا لمن هي في يديه • عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر • وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغنيت عن شيء فدعه • وخذ ما أنت محتاج اليه

وحكى الاصمعي قال دخلت على الرشيد يوما وهو ينظر في كتاب
ودموعه تسيل على خديه فلما ابصرني قال ارأيت ما كان مني قلت نعم
قال أما انه لو كان لامر الدنيا ما رأيت هذا ثم رمى بالقرطاس فاذا
فيه شعر ابي العتاهية

هل انت معتبر بمن خربت • منه غداة قضى دساكره
وبمن أذل الدهر مصرعه • فتبرأت منه عساكره
وبمن خلت منه أسرته • وتعطلت منه منابره
اين الملوك وابن غيرهم • صاروا مصيرا انت صائره
يا مؤثر الدنيا للذته • والمستعد لمن يناخره
نل ما بدا لك ان تنال من الدنيا فان الموت آخره

ثم قال الرشيد والله لكأني أخاطب بهذا الشعر دون الناس
فلم يلبث بعد ذلك الا يسيرا ان مات **تم الحالة الثالثة** من احوال
رياضتك لها ان يكشف حال اجلك وتصرفها عن غرور أملك حتى لا
يطيل لك الامل اجلا قصيرا ولا ينسيك موتا ولا قبورا روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في بعض خطبه ايها الناس ان الايام

51

تطوى والاعمار تفنى والأبدان في الثرى تبلى و
وان الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد يقربان كل بعيد
ويخلقان كل جديد وفي ذلك ما ألهى عن الشهوات ورغب في
الباقيات الصالحات وقال كم من مستقبل يوما وليس بمستكمله
ومنتظر غدا وليس من اجله ولو رايتم الاجل ومسيره لابغضتم
الامل وغروره وقال رجل من الانصار للنبي صلى الله عليه وسلم
من أكيس الناس قال اكثرهم ذكرا للموت واشدهم استعدادا له
اولئك الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وراحة الاخرة وقال عيسى بن
مريم كما تنامون كذلك تموتون وكما تستيقظون كذلك تبعثون
وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ايها الناس اتقوا الله الذي
ان قلتم سمع وان اضمرتم علم وبادروا الموت الذي ان هربتم
ادرككم وان اقمتم اخذكم وقال العلا بن المسيب ليس قبل الموت
شيء الا والموت اشد منه وليس بعد الموت شيء الا والموت ايسر
منه وقال بعض الحكما ان للباقي بالماضي معتبرا وللاخر بالاول
مزدجرا والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يغتر بالطمع وقال بعض
الصلحا ان بقاءك الى فناء وفناءك الى بقاء فخذ من فنائك الذي لا يبقى
لبقائك الذي لا يفنى وقال بعض العلما اي شيء يطيب وليس للموت
طبيب وقال بعض البلغا كل امرئ يجري من عمره الى غاية تنتهي اليها
مدة اجله وتنطوي عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك
بامسك وكف عن سيئاتك وزد في حسناتك قبل ان تستوفي مدة الاجل

ونقص عن الزيادة في السعي والعمل وفي منثور الحكم من لم يتعرض للنوائب تعرضت له وقال ابو العتاهية

مالمقابر لا تجيب • اذا دعاهن الكئيب
حفر مسقفة عليهن الجنادل والكثيب
فيهن اطفال وولدان وشبان وشيب
كم من حبيب لم تكن • نفسي بفرقته تطيب
غادرته في بعضهن • مجندلا وهو الحبيب
وسلوت عنه وانما • عهدي برؤيته قريب

وعظ النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فقال له أقلل من الدنيا تعش حرا وأقلل من الذنب يهن عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فان العرق دساس وقال الرشيد لابن سماك عظني واوجز قال انك اول خليفة تموت وعزى اعرابي رجلا عن ابن له صغير فقال الحمد لله الذي نجاه مما هنا من الكدر وخلصه مما بين يديه من الخطر وقال بعض السلف من عمل للاخرة ادركها والدنيا ومن اثر الدنيا حرمها والاخرة وقال بعض الصلحا استغنم تنفس الاجل وامكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فانك في اجل محدود ونفس معدود وعمر غير ممدود وقال بعض الحكما الطبيب معذور اذا لم يدفع المحذور وقال بعض العلما اعمل عمل المرتحل فان حادي الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك وروي عن علي بن ابي طالب انه قال بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم

غر جهولا امله • يموت من جا اجله
ومن دنا من حتفه • لم تغن عنه حيله
وما بقا آخره • قد غاب عنه اوله
والمرء لا يصحبه • في القبر الا عمله

وقال ابو العتاهية

لا تامن الموت في لحظ ولا نفس • ولو تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بان سهام الموت قاصدة • لكل مدرع منا ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها • ان السفينة لا تجري على اليبس
ما بال دينك ترضى ان تدنسه • وبال ثوبك مغسولا من الدنس

فاذا ارضيت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال احداهن ان تكفى تسويف امل يرديك وتسويل محال يوذيك فان تسويف الامل غرار وتسويل المحال اضرار والثاني ان تستيقظ لعمل اخرتك وتغتنم بقية اجلك بخير عملك فان من قصر امله واستقل اجله حسن عمله والثالث ان يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص ويسهل عليك حلول ما ليس الى دفعه سبيل فان من تحقق امرا توطى لحلوله وهان عليه عند نزوله روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لابي ذر نبه بالتفكر قلبك وجاف عن النوم جنبك واتق الله ربك وقال عمر بن الخطاب لابي ذر عظني فقال ارض بالقوت وخف الفوت واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت وقال عمر بن عبد العزيز ما رايت يقينا لا شك فيه اشبه بشك لا يقين فيه بيقين نحن فيه فلئن كنا مقرين انا لحمقى ولئن كنا جاحدين انا لهلكى وقال الحسن البصري نهارك ضيفك فاحسن اليه فانك ان احسنت اليه ارتحل بحمدك وان اسات اليه ارتحل بذمك وكذلك ليلك وقال الجاحظ في كتاب البيان وجد مكتوبا على حجر يا ابن ادم

انك لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طول ما ترجوه من
أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك ومن حيلك
وانما يلقى غدا ندمك لو زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك
وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب ولما حضر بشر بن منصور
الموت فرح فقيل له أتفرح بالموت فقال اتجعلون قدومي على
خالق ارجوه كمقامي مع مخلوق أخافه وقيل لابي بكر رضي الله عنه في
مرضه الذي مات فيه لو أرسلت الى الطبيب قال رآني قالوا فما
قال لك قال قال اني فعال لما اريد وقيل للربيع بن خثيم وقد اعتل
ندعو لك بالطبيب فقال قد اردت ذلك فذكرت عادا وثمودا واصحاب
الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وعلمت انه كان فيهم الاطبا والمداوي
فهلكوا جميعا وسئل انوشروان متى يكون عيش الدنيا الذ
فقال اذا كان الذي ينبغي ان يعمله في حياته معمولا وقال بعض الحكما
من ذكر المنية نسي الامنية وقال بعض الادبا عن الموت تسل فهو
كريشة تسل وقال بعض البلغا الامل حجاب الاجل وانشد من
ذكر انه لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه

ولو انا اذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حي
ولكنا اذا متنا بعثنا * ونسأل بعده عن كل شي

وقال بعض الشعرا

الا انما الدنيا مقيل لراكب * قضى وطرا من منزل ثم هجرا
فراح ولا يدري على ما قدومه * ألا كل ما قدمت تلقى موفرا

روى عن سعيد بن مسعود ان ابا الدردا قال يا رسول الله أوصني
فقال اكسب طيبا واعمل صالحا واسأل الله رزق يوم بيوم
واعدد نفسك من الموتى وكتب الربيع بن خثيم الى اخ له قدم
جهازك وافرغ من زادك وكن وصي نفسك والسلام وقال بعض
السلف اصاب الدنيا من حذرها واصابت الدنيا من امنها ومر
محمد بن واسع بقوم فقيل له هولا زهاد فقال وما قدر الدنيا حتى
يحمد من زهد فيها وقال بعض الحكما السعيد من اعتبر بامسه و
استظهر لنفسه والشقي من جمع لغيره وبخل على نفسه وقال بعض
البلغا لا تبت على غير وصية فان كنت من جسمك في صحة ومن عمرك
في فسحة فان الدهر خاين وكل ما هو كاين كاين وقال بعض الشعرا

من كان يعلم ان الموت مدركه * والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وانه بين جنات مبهجة * يوم القيامة او نار ستنضجه
فكل شي سوى التقوى به سمج * وما اقام عليه منه اسمجه
ترى الذي اتخذ الدنيا له وطنا * لم يدر ان المنايا سوف تزعجه

روى جابر الجعفي عن محمد بن علي عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال في بعض خطبه ايها الناس ان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم وان
لكم غاية معالم فانتهوا الى معالمكم وان المومن بين مخافتين اجل قد مضى
لا يدري ما الله صانع به واجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فليتزود
العبد لنفسه من نفسه ومن دنياه لآخرته ومن الحيوة قبل الموت فان الدنيا
خلقت لكم وانتم خلقتم للاخرة فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت

من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة او النار وقال الحسن البصري
أمر اجل واليوم عمل وغدا أمل فأخذ ابو العتاهية هذا المعنى
فنظمه شعرا فقال

قنع النفس بالكفاف والا ... طلبت منك فوق ما يكفيها
ليس فيما مضى ولا في الذي لم ... يأت من لذة لمستحليها
انما انت طول عمرك ما عمـ ... ـرت في الساعة التي انت فيها

وقيل لزاهد ما بالك تمشي على عصا ولست بكبير ولا مريض قال
لأعلم اني مسافر وانها دار قلعة وان العصا من آلة السفر فأخذه
بعض الشعراء فقال

حملت العصا لا الضعف أوجب حملها ... علي ولا اني تحنيت من كبر
ولكنني ألزمت نفسي حملها ... لأعلمها ان المقيم على السفر

وقال بعض المتصوفة الدنيا ساعة فاجعلها طاعة وقال ذو القرنين
وقعنا في الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين وأخرجنا منها كارهين
وقال عبد الحميد الموت أسير غمر يسير وقيل في بعض المواعظ
عجبت لمن خاف العقاب كيف لا يكف وعجبت لمن يرجو الثواب كيف لا يعمل
وقال بعض الحكماء المسيء ميت وان كان في دار الحيوة والمحسن حي وان
كان في دار الاموات وكل يأتي في يومه او غده وقال بعض السلف
الله المستعان على ألسنة تصف وقلوب تعرف وأعمال تخالف وقال
أخي ان الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما وقال أخي اعملوا
لآخرتكم من هذه الايام التي تسير كأنها تطير وقال آخر الموت قصاراك

فخذ

فخذ من دنياك لآخرتك وقال أخر عباد الله الحذر الحذر فو الله
لقد ستر حتى كأنه قد غفر وقد امهل حتى كأنه قد أهمل وقال آخر
الايام صحائف اعمالكم فخلدوها اجمل افعالكم وقيل في منثور الحكم
اقبل نصح المشيب وان عجل وقيل ما طلعت شمس الا وعظت بأمس
وقال محمد بن بشير

مضى أمسك الأدنى شهيدا معدلا ... ويومك هذا بالفعال شهيد
فان تك بالامس اقترفت اساءة ... فثن باحسان وانت حميد
ولا ترج فعل الخير منك الى غد ... لعل غدا يأتي وانت فقيد

وروى ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما رأيت مثل الجنة نام
طالبها ولا مثل النار نام هاربها وقال عيسى عليه السلام ان اولياء الله لا
خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس
الى ظاهرها والى آجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فأماتوا منها
ما خشوا ان يميت قلوبهم وتركوا منها ما علموا انه سيتركهم وقال عمر
بن الخطاب الناس طالبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها في نحره فانه ربما
ادرك الذي يطلب منها فهلك بما اصاب منها وطالب يطلب الآخرة فاذا
رأيتم طالب الآخرة فنافسوه ودخل ابو الدرداء الشام فقال يا اهل
الشام اسمعوا قول اخ ناصح فاجتمعوا عليه فقال ما لي اراكم تبنون ما لا تسكنون
وتجمعون ما لا تأكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا مشيدا وأملوا بعيدا
وجمعوا كثيرا فأصبح أملهم غرورا وجمعهم ثبورا ومساكنهم قبورا
وقال ابو حازم ان الدنيا غرت اقواما فعملوا فيها بغير الحق ففاجأهم

الموت فخلفوا اموالهم لمن لا يحمدهم وصاروا الى من لا يعذرهم وقد خلفنا بعدهم فينبغي لنا ان ننظر الذي كرهناه منهم فنجتنبه والذي غبطناهم به فنستعمله ومر بعض الزهاد بباب ملك فقال باب حديد وموت عتيد ونزع شديد وسفر بعيد ومر بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقالوا هذا مسكين سرق رجل منه جبة ومر به اخر فاعطاه جبة فقال الحمد لله ان يعطيكم لشيء وقال بعض الحكماء ما انصف من نفسه من ايقن بالحشر والحساب وزهد في الاجر والثواب وقال اخر بطول الامل تقسو القلوب وباخلاص النية تقل الذنوب وقال اخر اياك والمنى فانها من بضائع النوكى وتثبط عن الاخرة والاولى وقال اخر قصر املك فالعمر قصير واحسن سيرتك فالبر يسير وقال عبد الله بن المعتز

نسير الى الآجال في كل ساعة • واياما تطوى وهن مراحل
ولم نر مثل الموت حقا كانه • اذا ما تخطته الاماني باطل
وما اقبح التفريط في زمن الصبا • فكيف به والشيب في الراس نازل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى • فعمرك ايام تعد قلائل

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين

فاعمل على مهل فانك ميت • واكدح لنفسك ايها الانسانا
فكان ما قد كان لم يك اذ مضى • وكان ما هو كائن قد كانا

ونظر سليمان بن عبد الملك يوما في المرآة فقال انا الملك الشاب فقالت جارية له

ليس فيما بدا لنا منك عيب • قد علمناه غير انك فان
انت نعم المتاع لو كنت تبقى • غير ان لا بقاء للانسان

عن انس قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعاء فقال يا ايها الناس كان الموت فيها على غيرنا كتب وكان الحق فيها على غيرنا وجب وكان الذين نشيع من الاموات سفر عما البنا راجعون نبوئهم اجداثهم ونأكل تراثهم كانا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة وامنا كل جائحة طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس غيره وانفق مالا اكتسبه من غير معصية ورحم اهل الذل والمسكنة وخالط اهل الفقه والحكمة طوبى لمن اذل نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته طوبى لمن عمل بعلمه وانفق الفضل من ماله وامسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها الى بدعة وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال زوروا القبور تذكروا بها الاخرة واغسلوا الموتى فانها معالجة الاجساد الخاوية وموعظة بليغة وحفر الربيع بن خثيم في داره قبرا وكان اذا وجد من قلبه قسوة جاء فاضطجع في القبر فمكث فيه ما شاء الله ثم يقول رب ارجعون لعلي اعمل صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه فيقول قد ارجعتك فجد فمكث على ذلك ما شاء الله وقال ابو محرز الطفاوي كفتك القبور مواعظ الامم السابقة وقيل لبعض الزهاد ما ابلغ العظات فقال النظر الى محلة الاموات فاخذه ابو العتاهية فقال

وعظتك اجداث صمت • ونعتك ازمنة خفت
وتكلمت عن اوجه • تبلى وعن صور سبت
وارتك قبرك في القبور • وانت حي لم تمت
يا شامتا بمنيتي • ان المنية لم تفت
ولربما انقلب الشمات • فحل بالقوم الشمت

ووجد مكتوبا على قبر قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة

وعلى آخر من امثل البقا وقد نرى مصارعنا فهم مغرورون وقيل في
منثور الحكم ما اكثر من يعرف الحق ولا يطيعه ولا يعمل به وقال
بعض الحكماء من لم يمت لم يفت وقال بعض البلغاء للناس من كل ميت
عظة بحاله وعبرة بماله وقال بعض العلماء من لم يتعظ بموت ولد
لم يتعظ بقول احد وقال بعض البلغاء ما انقضت ساعة من امسك
الا ببضعة من نفسك فاخذه ابو العتاهيه فقال
ان مع الدهر فاعلمن غدا • فانظر بما ينقضي مجيء غده
ما ارتد طرف امرئ بلذته • الا وشيء يموت من جسده
ولما مات الاسكندر قال بعض الحكما كان الملك امس انطق منه
اليوم وهو اليوم اوعظ منه امس فاخذ هذا المعنى ابو العتاهيه
فقال كفى حزنا بدفنك ثم اني • نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظات • فانت اليوم اوعظ منك حيا
وقال بعض الحكما لو كان للخطايا ارج لافتضح الناس ولم يتجالسوا
فاخذ هذا المعنى ابو العتاهيه فقال
احسن الله بنا • ان الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا • بين ثوبيه فضوح
وهذا كله ماخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تكاشفتم ما تدافنتم
وكتب رجل الى ابي العتاهيه • يا ابا اسحاق اني • واثق منك بودك
فاعني بابي انت • على غيي برشدك • فاجابه ابو العتاهيه فقال
اطع الله بجهدك • راغبا او دون جهدك • اعط مولاك الذي تطلب من طاعة عبدك

فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان اسا فقد استقذف
وقد مضت ابواب تضمنت فصولا رايت اتباعها بما لا يجب الا
الاخلال به فمن ذلك حال الانسان في ماكله ومشربه
فان الداعي الى ذلك شيئان احدهما حاجة ماسة وشهوة
باعثة فاما الحاجة فتدعو الى ما سد الجوعة وسكن الظما
وهذا مندوب اليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ النفس وحراسة
الحواس ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم
اليومين لانه يضعف الجسد ويميت النفس ويعجز عن العبادة وكل
ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر
الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد لان ما حرمها من فعل
الطاعة بالعجز والضعف اكثر ثوابا واعظم اجرا اذ ليس في
ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات واتيان القرب ومن
اخشن نفسه تحرجا موفورا وحرمها اجرا مدخورا كان زهده
في الخير اقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذا التكلف الا الشهرة
بايه وسمعته واما الشهوة فتتنوع نوعين احدهما
شهوة في الاكثار والزيادة والثاني شهوة في تناول الالوان
الملذة فاما النوع الاول وهو شهوة الزيادة على قدر
الحاجة والاكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه في
العقل والشرع كما كان قدر الحاجة مندوبا اليه في العقل والشرع
لان تناول ما زاد على الكفاية نهم مغر وشره مضر وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والبطنة فانها مفسدة طع
البدن مورثة السقم مكسلة عن العبادة وقال علي كرم الله وجهه يسلم له
الحكم

اذا كنت بطنا فعدّ كزمنا وقال بعض العلما لا يكن أقلك
طعامك فمنه الصحة وقال أقلل طعاما تحمد مناما وقال بعض
العلما لا يكن العلم معدة مليت طعاما وقال بعض الادبا الرغب
شوم والنهم لوم وقال بعض الحكما أكبر الدوا تقدير الغذا
وقال بعض الشعرا

فكم من اكلة منعت اخاها … بلذة ساعة اكلات دهر
وكم من طالب يسعى لامر … وفيه هلاكه لو كان يدري

روى ابو زيد المدني عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يخلق وعا ملي شرا من بطن
فان كان لا بد فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام وثلثا للشراب وثلثا
للريح واما النوع الثاني وهو شهوة الاشيا الملذة ومنازعة
النفس الى طلب الانواع المشتهية فمذاهب الناس في تمكين
النفس منها مختلفة فمنهم من يرى ان صرف النفس عنها اولى ص
وقمعها عن اتباع شهواتها احرى ليذل به قيادها فتهون
عليه عنادها لان تمكينها وما تهوى بطر يطغي واشر يردي
لان شهواتها غير متناهيه فاذا اعطاها المراد من شهواتها
وقتها تعدتها الى شهوات قد استجدتها فيصير الانسان اسير
شهوات لا تنقضي وعبد هوى لا ينتهي ومن كان بهذه الحال
لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه فضل وانشد لابي الفتح البستي

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته … أتطلب الربح فيما فيه خسران
فا على النفس واستكمل فضايلها … فانت بالنفس لا بالجسم انسان

[illegible] من هذه الحال وحكي ان ابا حازم كان يمر

منها في زيادة وقال بعض البلغا من استعان بذوي العقول
فاز بدرك المامول وقال ابو الاسود الدؤلي

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه … وما كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب … فحق له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية ان يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صلاح
وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مامون السريرة موفق
العزيمة روى عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من اراد امرا فشاور فيه امرا مسلما وفقه الله لارشد اموره
والخصلة الثالثة ان يكون ناصحا ودودا فان النصح والمودة
يصدقان الفكر ويمحصان الراي وقال بعض الحكما لا تشاور
الا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود واياك ومشاورة
النسا فان رايهن الى الافن وعزمهن الى الوهن وقال بعض الادبا
مشورة المشفق الحازم ظفر ومشورة غير الحازم خطر وقال
بعض الشعرا

اصف ضمير المرء تعاشره … واسكن الى ناصح تشاوره
وارض من المرء في مودته … بما يودي اليك ظاهره
من يكشف الناس لا يجد احدا … تصح منه له سرايره
اوشك ان لا يدوم وصل اخ … في كل زلاته تنافره

والخصلة الرابعة ان يكون سليم الفكر من هم قاطع
وغم شاغل فان من عارضت فكره شوائب الهموم لم يسلم له
راي ولم يستقم له خاطر وقد قيل في منثور الحكم

فيه اذ الفكر تنجاب له الغمة وكان كسرى اذا دهمه
امر بعث الى مرازبته فاستشارهم فان قصروا في الراي ضرب
قهارمته وقال ابطاتم بارزاقهم فاخطاوا في رايهم وقال
صالح بن عبد القدوس ** ولا مشير كذي نصح ومقدرة
في مشكل الامر فاختر ذاك منتصحا ** والخصلة الخامسة
ان لا يكون له في الامر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده
فان الاغراض جاذبة والهوى صاد والراي اذا عارضه الهوى
وجاذبته الاغراض فسد وقد قال الفضل بن عباس بن عتبة بن ابي لهب
لقد تحكم الايام من كان جاهلا ** ويردي الهوى ذا الراي وهو لبيب
ويحمد في الامر الفتى وهو مخطئ ** ويعذل في الاحسان وهو مصيب
فاذا استكملت هذه الخمس الخصال في رجل كان اهلا للمشورة
ومعدنا للراي فلا تعدل عن استشارته اعتمادا على ما توهمه من فضل
رايك وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فان راي غير ذي الحاجة
اسلم وهو من الصواب اقرب لخلوص الفكر وخلو الخاطر مع عدم
الهوى وارتفاع الشهوة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال راس
العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد الى الناس وما استغنى مستبد
برايه وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الاستشارة عين
الهداية وقد خاطر من استغنى برايه وقال لقمان لابنه شاور
من جرب الامور فانه يعطيك من رايه ما قام عليه بالغلاء وانت
تاخذه بالمجان وقال بعض الحكما نصف رايك مع اخيك

فشاوره ليكمل لك الراي وقال بعض البلغا الادب امر استغنى
برايه ضل ومن اكتفى بعقله زل وقال بعض البلغا الخطا مع
الاسترشاد احمد من الصواب مع الاستبداد وقال بعض الشعرا
خليلي ليس الراي في صدر واحد ** اشيرا علي اليوم ما تريان
ولا ينبغي ان يتصور في نفسه انه ان شاور في امره ظهر للناس
ضعف رايه وفساد رويته حتى افتقر الى راي غيره فان هذه
معاذير النوكى وليس يراد الراي للمباهاة به وانما يراد للانتفاع
بنتائجه والتحرز من الخطا عند زلله وكيف يكون عارا ما
ادى الى صواب وصد عن خطا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على اموركم بالمشاورة
وقال بعض الحكما من كمال عقلك استظهارك على عقلك وقال
بعض البلغا اذا اشكلت عليك الامور وتغيب لك الجمهور
فارجع الى راي العقلا وافزع الى استشارة العلما ولا تانف من
الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد فلان تسال وتسلم خير
لك من ان تستبد وتندم وينبغي ان يكثر من استشارة ذوي
الالباب لاسيما في الامر الجليل فقلما يضل عن الجماعة راي او
يذهب عنهم صواب لارسال الخواطر الثاقبة واجالة الافكار
الصادقة فلا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز وقيل في
منثور الحكم من اكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند
الخطا عاذرا وان كان الخطا من الجماعة بعيدا فاذا استشار

الجماعة فقد اختلف اهل الراي في اجتماعهم عليه او افراد كل
واحد منهم به فمذهب الفرس ان الاولى اجتماعهم على الارتياء واجالة
الفكر ليذكر كل واحد من الجماعة ما اقتضاه خاطره ويحتج فكره حتى ان
كان فيه قدح عورض وان توجه عليه رد نوقض بالجدال الذي
تجوز فيه المناظرة ويقع فيه المنازعة والمشاجرة فانه لا يبقى فيه
مع اجتماع القرائح عليه خلل الا ظهر ولا زلل الا بان وذهب
بعضهم الى اصح غيرهم من اصناف الامم الى ان الاولى استسرار
كل واحد بالمشورة ليجيل كل واحد منهم فكره في الراي طمعا في
الحظوة بالصواب فان القرائح اذا انفردت استكدها الفكر واستفرغها
الاجتهاد واذا اجتمعت فوضت وكان الاول من بديهتها متبوعا
ولكل واحد من المذهبين وجه ووجه الثاني اظهر والذي اراه
في الاولى غير هذين المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر في المشورة
فان كانت في حال واحدة هل هي صواب ام خطا كان اجتماعهم عليها
اولى لان ما تردد بين امرين فالمراد الاعتراض على فساده وظهور
الحجة في صلاحه وهذا مع الاجتماع ابلغ وعند المناظرة اوضح
وان كانت المشورة في احداث مختلطة قد استبهم صوابه واستعجم جوابه
من امور خافية واحوال غامضة لم يحصرها عدد ولم يجمعها قسم
ولا عرف لها جواب ينكشف عن خطائه وصوابه فالاولى في مثله انفراد
كل واحد بفكره وخلوه بخاطره ليجتهد في الجواب ثم يقع الكشف
عنه اخطا هو ام صواب فيكون الاجتهاد في الجواب منفردا او الكشف

عن الصواب مجتمعا لان الانفراد في الاجتهاد اصح والاجتماع على المناظرة
ابلغ فهذا هذا وينبغي ان يسلم اهل الشورى من حسد او تنافس
يمنعهم من تسليم الصواب ثم يعرض المستشير ذلك على نفسه مع
مشاركتهم في الارتياء والاجتهاد فاذا اتضح اقاويل جميعهم
كشف عن اصولها واسبابها وبحث عن نتائجها وعواقبها حتى لا يكون
في الامر مقلدا ولا في الراي مفوضا فانه يستفيد بذلك مع ارتياضه
بالاجتهاد ثلث خصال احداهن معرفة عقله وصحة رويته
والثانية معرفة عقل صاحبه وصواب رايه والثالثة وضوح
ما استعجم من الراي وانفتاح ما انغلق من الصواب فاذا تقرر له
الراي امضاه ولم يأخذهم بعواقب الاكداء فيه فانما على الناصح
الاجتهاد وليس عليه ضمان النجح لا سيما والمقادير غالبة ومتى عرف
منه تعقب المشير وكل الى رايه واسلم الى نفسه فصار فردا
لا يعان براي ولا يعضد بمشورة وقد قالت الفرس في حكمها
اضعف الحيلة خير من اقوى الشدة واقل التأني خير من اكثر
العجلة والدولة رسول القضاء المبرم فاذا استبد الملك برايه
عميت عليه المراشد فاذا ظفر براي من خامل لا يراه للراي اهلا
ولا للمشورة مستوجبا اغتنمه عفوا فان الراي كالضالة تؤخذ
اين وجدت ولا يهون لمهانة صاحبه فيطرح فان الدرة لا
يضعها مهانة غائصها والضالة لا تترك لذلة واجدها وليس
يراد الراي لمكان المشير به فيراعى قدره وانما يراد لانتفاع به

انت للمال اذا امسكته فاذا انفقته فالمال لك

المستشير به وانشد ابو العينا عن الاصمعي

النصح ارخص ما باع الرجال فلا ترد على ناصح نصحا ولا تلم

ان النصائح لا تخفى مناهجها على الرجال ذوي الالباب والفهم

ثم لا وجه لمن تقرر له راي ان يتاني في امضائه فان الزمان

غادر والفرص منتهزة والثقة عجز قيل لملك

زال عنه ملكه ما الذي سلبك ملكك قال تاخير عمل اليوم

الى غد وقال الشاعر

اذا كنت ذا راي فكن ذا عزيمة ولا تك بالترداد للراي مفسدا

فاني رايت الريث في العزم هجنة وانفاذ ذي الراي العزيمة ارشدا

وينبغي لمن انزل منزلة المستشار واحل محل الناصح الوادّ

حتى صار مامول النصح مرجو الصواب ان يودي حق هذه النعمة

باخلاص السريرة ويكافي على الاستسلام ببذل النصح فقد

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من حق المسلم على المسلم

اذا استنصحه ان ينصحه وربما ابطرته المشاورة فاعجب

برايه فاحذره في المشورة فليس للمعجب راي صحيح ولا روية

سليمة ومن مانح بالراي لعداوة او حسد فوري او مكر فاحذر

العدو ولا تثق بحسود ولا عذر لمن استشاره عدو

او صديق ان يكتم رايا وقد استرشد ولا ان يخون وقد اوتمن

روى محمد بن المنكدر عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال

المستشير معان والمستشار موتمن وقال سليمان بن يزيد

وانحب اخاك اذا استشارك ناصحا وعلى اخيك نصيحة لا ترد

ولا ينبغي ان تشير قبل ان تستشار الا فيما امن ولا يتبرع بالراي

الا فيما لزم فانه لا يسلمك من ان يكون رايه متهما او مطرحا

وفي اي هذين كان وصمه وانما يكون الراي مقبولا اذا كان

عن رغبة وطلب او كان الباعث وجب روى ابو هلال العجلي

عن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال لقمان لابنه

اذا استشهدت فاشهد واذا استعنت فاعن واذا استشرت

فلا تعجل حتى تنظر وقال ابن بيهس الكلابي

من الناس من ان يستشر فيجتهد له الراي يستغششك ما لا تتابعه

فلا تمنحن الراي من ليس اهله فلا انت محمود ولا الراي نافعه

الفصل الرابع في كتمان السر اعلم

ان كتمان السر من اقوى اسباب النجاح وادوم احوال

الصلاح روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استعينوا على الحاجات

بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود وقال علي بن ابي طالب

رضي الله عنه سرك اسيرك فاذا تكلمت به صرت اسيره وقال

بعض الحكما لابنه يا بني كن جوادا بالمال في موضع الحق ضنينا

بالاسرار عن جميع الخلق فان احمد جود المرء الانفاق في وجه البر

والبخل بمكتوم السر وقال بعض الادبا من كتم سره كان

الخيار اليه ومن افشاه كان الخيار عليه وقال بعض البلغا

اشد من كتم سرك وقال بعض الفصحا ما لم تغيبه الاضالع

فهو منكشف ضايع وقال بعض الشعرا وهو انس بن اسيد
المرء أروناة الرجال • لابد عون اديبا صحيحا
ولا تفش سرك الا اليك • فان لكل نصيح نصيحا
وكم من اظهار سر اراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو
كتمه كان من سطواته امنا وفي عواقبه سالما ولنجاح حوايجه
راجيا قال انوشروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان
الظفر بحاجته والسلامة من السطوات واظهار الرجل سر غيره
اقبح من اظهاره سر نفسه لانه يبوء باحدى وصمتين اما الخيانة
ان كان موتمنا والنميمة ان كان مستودعا فاما الضرر فربما استويا
فيه او تفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم وفي الاسترسال
بابداء السر دلايل على ثلثة احوال احدها ضيق الصدر وقلة الصبر
حتى لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر وقال الشاعر
اذا المرء افشى سره بلسانه • ولام عليه غيره فهو احمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه • فصدر الذي يستودع السر اضيق
والثاني الغفلة عن تحرز العقلا والسهو عن يقظة الاذكيا
وقد قال بعض الحكما انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا
جاهلا فيخون والثالثة ما ارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر
وقد قال بعض الحكما سرك من دمك فاذا تكلمت به فقد
ارقته واعلم ان من الاسرار ما لا يستغني فيه عن مطالعة
صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره

امينا ان لم يجد الى كتمه سبيلا وليتحر في اختيار من ياتمنه عليه ويستودعه
اياه فليس كل من كان على الاموال امينا كان على الاسرار موتمنا
والعفة عن الاموال ايسر من العفة عن اذاعة الاسرار لان الانسان قد
يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح على اليسير من ماله
حفاظا له وضنا به ولا يرى ما اذاع من سره كبيرا في جنب حفظه من
يسير ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن اجل ذلك كان امنا الاسرار
اشد تعذرا واقل وجودا من امنا الاموال وكان حفظ الاموال ايسر
من كتم الاسرار لان احراز الاموال منيعة واحراز الاسرار بارزة
يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق وقال عمر بن عبد العزيز
رضي الله عنه القلوب اوعية الاسرار والشفاه اقفالها والالسن
مفاتيحها فليحفظ كل امرء مفتاح سره ومن صفات امين السر ان
يكون ذا عقل صاد ودين حاجز ونصح مبذول وود موفور وكتوما
بالطبع فان هذه امور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الامانة فمن
كملت فيه فهو عنقا مغرب وقيل في منثور الحكم قلوب العقلا
حصون الاسرار وليحذر صاحب السر ان يودع سره من
يتطلع اليه ويوثر الوقوف عليه فان طالب الوديعة خاين وقد قيل
في منثور الحكم لا تنكح خاطب سرك وقال صالح بن عبد القدوس
لا تذع سرا الى طالبه • منك فالطالب للسر مذيع
ويحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب للاذاعة وطريق
الى الاشاعة لامرين احدهما ان اجتماع هذه الشروط في العدد

الكتمان معدوم ولابد اذا اكثروا من ان يكون فيهم من يخل بعضها
والثاني ان كل واحد يجد سبيلاً الى نفي الاذاعة عن نفسه واحالة
ذلك الى غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب وقد قال
بعض الحكما كلما كثر خزان الاسرار ازدادت ضياعا وقال بعض
الشعرا وسرك ما كان عند امرئ • وسر الثلاثة غير الخفي
وقال اخر فلا تنطق بسرك كل سر • اذا ما جاوز الاثنين فاش
ثم لو سلم من اذاعتهم لما سلم من ادلالهم واستطالتهم فان
لمن ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه
عقل ولم يكفه عنه فضل كان اشد من ذل الرق وخضوع العبد
ولذلك قال بعض الحكما من افشى سره كثر عليه المتآمرون
فاذا اختار ورجوا ان يوفق للاختيار واضطر الى استيداع
سره وليته كفي الاضطرار وجب على المستودع له اداء الامانة
فيه بالتحفظ والتناسي حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له في خلد
ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يدل ادلال اللئام حكي ان
رجلا اسر الى صديق له حديثا ثم قال له افهمت قال بل جهلت قال
احفظت قال بل نسيت وقيل لرجل كيف كتمانك السر قال اجحد
المخبر واحلف للمستخبر وقال بعض الشعرا
ولو قدرت على نسيان ما اشتملت • مني الضلوع من الاسرار والخبر
لكنت اول من ينسى سرائره • اذ كنت من نشرها يوما على خطر
وحكي ان عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ

النكد وجها او احمد عيشا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اقيلوا ذوي
الهيات عثراتهم وقال النابغة الجعدي
الم تعلما ان الملامة نفعها • قليل اذا ما الشيء ولى فادبرا
واما الاسعاف في النوائب فلان الايام غادرة والنوازل
غائرة والحوادث عارضة والنوائب راكضة فلا يعدم فيها
الا عديم ولا يستنقذ منها الا سليم وقال عدي بن زيد
كفى زاجرا للمرء ايام دهره • تروح له بالواعظات وتغتدي
فاذا وجد الكريم مصابا بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم
على الاسعاف فيها بما استطاع سبيلا اليه ووجد قدرة عليه
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير من الخير معطيه وشر
من الشر فاعله وقيل لبعض الحكما هل شي خير من
الذهب والفضة قال معطيهما والاسعاف في النوائب
نوعان واجب وتبرع فاما الواجب فما اختص بثلاثة اصناف
وهم الاهل والاخوان والجيران اما الاهل فلمماسة الرحم
وتعاطف النسب وقد قيل لم يسد من احتاج اهله الى غيره
وقال حسان بن ثابت
وان امرأ نال الغنى ثم لم ينل • قريبا ولا ذا حاجة لزهيد
وان امرأ عاد الرجال على الغنى • ولم يسأل الله الغنى لحسود
واما الاخوان فلمستحكم الود ومتأكد العهد
سئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال صدق اللسان ومواساة

الاخوان وذكر الله في كل مكان وقال بعض الحكما من الفرس
صفة الصديق ان يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة
ويحفظك عند المغيب ورأى بعض الحكما رجلين يصطحبان
ولا يفترقان فسأل عنهما فقيل هما صديقان فقال ما بال احدهما
غنيا والاخر فقيرا **واما الجار** فلدنو داره واتصال
مزاره وقد قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ليس حسن
الجوار كف الاذى ولكنه الصبر على الاذى وقال بعض الحكما
من جاد جاره اعانه الله وجاره وقال بعض البلغا من احسن
الى جاره دل على حسن نجاره وقال بعض الشعرا

وللجار حق فاجتنب من اذاته ۞ وما خير جار لا يزال مداريا

فيجب في حقوق المروة وشروط الكرم في هولاء الثلثة
تحمل اثقالهم واسعافهم في نوائبهم ولا فسحة لذي مروة مع
ظهور المكنة ان يكلهم الى غيره او يلجيهم الى سؤاله وليكن سائل
نفسه عنهم فانهم عيال كرمه واضياف مروته فكما انه لا يحسن ان
يلجي عياله واضيافه الى الطلب والرغب فهكذا من عاله كرمه واضافته
مروته وقد قال بعض الشعرا

حق على السيد المرجى نائله ۞ والمستجار به في العرب والعجم
ان لا ينيل الاقاصي صوب لجته ۞ حتى يخص به الادنى من الخدم
ان الفرات اذا جاشت غواربه ۞ روّى السواحل ثم امتد في الامم

واما التبرع فمن عدا هولاء الثلثة من البعداء الذين لا
يدلون بسبب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفائض
المروة فنهض في حوادثهم وتكفل بنوائبهم فقد زاد على شروط المروة
وتجاوزها الى شروط الرياسة وقيل لبعض الحكما اي شي
من افعال الناس يشبه افعال الاله جل وعلا قال الاحسان الى الناس
وان كف متشاغلا من لئم فلا لوم ما لم يلجا اليه مضطر اذ
القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فهذا حكم الموازرة
واما المياسرة فنوعان احدهما العفو عن الهفوات
والثاني المسامحة في الحقوق فاما العفو عن الهفوات فلانه لا
مبرا من سهو وزلل ولا سليم من نقص او خلل ومن رام
سليما من هفوة والتمس بريا من نبوة فقد تعدى على الدهر
بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان من وجود بغيته بعيدا وصار
باقتراحه فردا وحيدا وقيل قالت الحكما لا صديق لمن اراد صديقا
لا عيب فيه وقد قيل لانوشروان هل من احد لا
عيب فيه قال من لا موت له **واذا كان الدهر** لا يوجد ما
طلب ولا ينيله ما احب وكان الوحيد في الناس مرفوضا قصيا
والمنقطع عنهم بهما وحشيا لزمه مساعدة زمانه ومياسرة
اخوانه في الصفح والاغضا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال ان الله امرني بمداراة الناس كما امرني باقامة الفرائض
وقال بعض الادبا خصال لا تجتمع الا في كريم حسن المحضر
واحتمال الزلة وقلة الملال وقال ابن الرومي

فعذرك مبسوط لذنب مقدم ۞ وودك مقبول باهل ومرحب
ولو بلغتني عنك اذني اقمتها ۞ لدي مقام الكاشح المتكذب

فلست بتقليب اللسان مصارما • خليلا اذا ما القلب لم يتقلب
واذا كان الاغضا حتما والصفح لازما تنوعت بحسب الهفوة وتنزل
بقدر الذنب والهفوات نوعان صغاير وكباير فالصغاير مغفورة
والنفوس بها معذورة لان الناس مع اطوارهم المختلفة واخلاقهم
المتفاضلة لا يسلمون منها فكان الواحد فيها مطرحا والعتب فيها
مستقبحا وقد قال بعض الحكما من هجر اخاه بغير ذنب كان
كمن زرع زرعا ثم حصده قبل اوانه وقال ابو العتاهية
وشر الاخلا من لم يزل • يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقا • ويبريك في السر بري القلم
واما الكباير فنوعان احدهما ان يهفو بها خاطئا ويزل بها ساهيا
فالحرج فيها مرفوع والعتب عنها موضوع لان هفوة الخاطئ هدر
ولومه هذر وقال بعض الحكما لا تقطع اخاك الا بعد عجز
الحيلة عن استصلاحه وقال الاحنف بن قيس حق الصديق ان تحتمل
له ثلاثا ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة وحكى ابن عون
ان غلاما هاشميا عربد على قوم فاراد عمه ان يشكوه اليه فقال يا
عم اني اسات وليس معي عقلي فلا تسي بي ومعك عقلك وقال ابو فراس
لم اواخذك اذ جنيت لاني • واثق منك بالاخاء الصحيح
فجميل العدو غير جميل • وقبيح الصديق غير قبيح
فان شبه خطاه بالعمد وسهوه بالقصد تثبت ولم يعجل بالتوهم
فيكون ملوما ولا يندم بالظن فيصير مذموما فلذلك قيل التثبت نصف
العفو وقال بعض الحكما لا يفسدك الظن على صديق قد اصلحك
اليقين له وقال بعض شعرا هذيل

من دونك من الجهال ولكن انظر الى من فوقك من العلما وانشد لعبد
من شا عيشا جميلا يستفيد به • في دينه ثم في دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه ادبا • ولينظرن الى من دونه حالا مالا
وقلما تجد بالعلم معجبا وبما ادركه منه مفتخرا الا
من كان فيه مقلا ومقصرا لانه يجهل قدره ويحسب انه قد نال
بالدخول فيه اكثره واما من كان اليه متوجها ومنه مستكثرا فهو
يعلم من بعد غايته والعجز عن ادراك نهايته ما يصده عن العجب به
وقال الشعبي العلم ثلثة اشبار فمن نال منه شبرا شمخ
بانفه وظن انه ناله ومن نال الشبر الثاني صغرت اليه نفسه وعلم انه ما ناله
واما الشبر الثالث فهيهات لا يناله احد ابدا **ومما انذرك**
به حالي انني صنفت في البيوع كتابا جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس
واجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري حتى اذا تهذب
واستكمل وكدت اعجب به وتصورت انني اشد الناس اضطلاعا بعلمه
حضرني وانا في مجلسي اعرابيان سالاني عن بيع عقداه في البادية على شروط
تضمنت اربع مسايل لم اعرف لشي منها جوابا فاطرقت مفكرا وبحالي
وحالهما معتبرا فقالا اما عندك فيما سالناك جواب وانت زعيم هذه
الجماعة فقلت لا فقالا ايها لك فانصرفا ثم اتيا من يتقدمه في العلم كثير
من اصحابي فسالاه فاجابهما مسرعا بما اقنعهما فانصرفا عنه راضيين
بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا واني لعلى ما كنت عليه في تلك
المسايل الى وقتي فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بهما

قياد النفس او يخفض بها جناح الذل العجب توفيقا منه ورشدا
اوتيته ويحق على من ترك العجب بما يحسن ان يدع التكلف لما لا
يحسن فقد بما نهى الناس عنهما واستعاذوا الله منهما ومن اوضح الناس
ذلك بيانا استعاذة الجاحظ في كتاب البيان حيث يقول اللهم انا
نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف
لما لا نحسن ونعوذ بك من فرط التلاطه والهذر كما نعوذ بك من العي
والحصر ونحن نستعيذ بالله مثل استعاذته فليس لمن تكلف ما لا يحسن
غاية ينتهي اليها ولا حد يقف عنده ومن كان تكلفه غير محدود فاخلق
به ان يضل وان يضل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من سئل فافتى
بغير علم فقد ضل واضل وقال بعض الحكماء من العلماء لا تتكلم
فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك خجلا من عقلك ان تنطق بما لا تفهم
ولقد احسن زرارة بن زيد حيث يقول

اذا ما انتهى علمي تناهيت عنده ... اطال فاملى او تناهى فاقصرا
ويخبرني عن غائب المرء فعله ... كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

فاذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار ان يجهل بعضه واذا لم يكن
في جهل بعضه عار لم يقبح به ان يقول فيما ليس يعلم لا اعلم وقد
روي ان رجلا قال يا رسول الله اي البقاع خير واي البقاع شر
فقال لا ادري حتى اسأل جبريل وقال علي بن ابي طالب وابردها
على القلب اذا سئل احدكم عما لا يعلم ان يقول الله اعلم فان العالم من عرف
ان ما يعلم فيما لا يعلم قليل وقال عبد الله بن عباس اذا ترك العالم قول

لا ادري اصيبت مقاتله وقال بعض العلماء من لا ادري ترك وقال
بعض الحكماء ليس في من فضيلة العلم ترك الاعلى باني لست اعلم وقال
بعض البلغاء من قال لا ادري علم فدرى ومن انتحل ما لا يدري اهمل
فهوى ولا ينبغي للرجل وان كان في طبقة العلماء الافاضل ان يستنكف من تعلم
ما ليس عنده ليسلم من التكلف له فقد قال عيسى بن مريم عليهما السلام يا صاحب
العلم تعلم من العلم ما جهلت وعلم الجهال ما علمت وقال علي بن ابي طالب
رضي الله عنه خمس خذوهن عني فلو ركبتم فيهن الفلك ما وجدتموهن
الا عندي الا لا يرجون احد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه ولا يستنكف ان
يتعلم ما ليس عنده واذا سئل عما لا يعلم فليقل لا اعلم ومن له
الصبر من الايمان بمنزلة الراس من الجسد وقال عبد الله بن عباس
لو كان احد مستكفيا من العلم لاكتفى منه موسى عليه السلام لما قال هل اتبعك
على ان تعلمني مما علمت رشدا وقيل للخليل بن احمد بم ادركت هذا العلم
قال اذا لقيت عالما اخذت منه واعطيته وقال بزرجمهر من العلم ان لا
تحتقر شيئا من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم وقيل المنصور لشريك
انى لك هذا العلم قال لم ارغب عن قليل استفيده ولم ابخل بكثير افيده
على ان العلم يقضي ما بقي عنه ويبتغي ما تاخر عنه وليس للراغب فيه قناعة
ببعض وقد روى عون بن عبد الله عن ابي مسعود انه قال منهومان لا يشبعان
طالب العلم وطالب الدنيا اما طالب العلم فانه يزداد للرحمن رضى ثم قرا
انما يخشى الله من عباده العلماء واما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا ثم تلا ان
الانسان ليطغى ان راه استغنى ولا يكن مستقلا للفضيلة منه ليزداد منها ومستكثرا

للنقيضة فيه لينتهي عنها ولا يقنع في العلم بما ادرك منه لان القناعة فيه زهد
والزهد فيه ترك والترك له جهل وقال بعض الحكما عليك بالعلم والاكثار
منه فان قليله اشبه شي بقليل الخير وكثيره اشبه شي بكثير الخير
ولن يعيب الخير الا القلة فاما كثرته فانها امنية وقال بعض البلغا
من فضل علمك استقلالك لعلمك ومن عقلك استقلالك لعقلك استظهارك
على عقلك ولا ينبغي ان يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا ان يتجاوز بها قدر حقها ولأن
يكون بها مقصرا فيذعن بالانقياد اولى من ان يكون بها متجاوزا فيكف عن الازدياد
من جهل حال نفسه كان لغيرها اجهل وقد قالت عايشة رضي الله عنها يا رسول
الله متى يعرف الانسان ربه فقال اذا عرف نفسه وقد قسم الخليل بن احمد
احوال الناس فيما علموا وجهلوا اربعة اقسام متقابلة لا يخلو حال الانسان منها
فقال الرجال اربعة رجل يدري ويدري انه يدري فذلك عالم فاسالوه ورجل
يدري ولا يدري انه يدري فذلك ناس فذكروه ورجل لا يدري ويدري
انه لا يدري فذلك مسترشد فعلموه ورجل لا يدري ولا يدري انه لا يدري
فذلك الجاهل فارفضوه وانشد ابو القسم الاموي

اذا كنت لا تدري ولم تك بالذي ... يسايل من يدري فكيف اذا تدري
جهلت ولم تعلم بانك جاهل ... فمن لي بان تدري بانك لا تدري
اذا جئت في كل الامور بغمة ... فكن هكذا ارضا يطاك الذي يدري
ومن اعجب الاشيا انك لا تدري ... وانك لا تدري بانك لا تدري

وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على ان ياتمر بما يامر به فلا
يكن ممن قال الله تعالى فيه مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار

يحمل اسفارا فقد قال قتادة في قول الله تعالى وانه لذو علم لما علمناه
يعني انه لعامل بما علم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ويل
لاقماع القول وويل للمصرين ويل للذين يستمعون القول فلا يعملون به وروى
عبد الله بن وهب عن سفيان ان الخضر قال لموسى عليهما السلام يا ابن عمران
تعلم العلم لتعمل به ولا تعلمه لتحدث به فيكون عليك بوره ولغيرك
نوره وقال علي بن ابي طالب انما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من
قلة انتفاع من علم بما عمل وقال ابو الدردا اخوف ما اخاف اذا وقفت
بين يدي الله تعالى ان يقول قد علمت فماذا عملت وكان يقال
خير من القول فاعله وخير من العلم حامله وقيل في منثور
الحكم لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به وقال بعض العلما ثمرة العلم
العمل به وثمرة العمل به ان يوجر عليه وقال بعض الصلحا العلم يهتف
بالعمل فان اجابه والا ارتحل وقال بعض الحكما خير العلم ما
نفع وخير القول ما ردع وقال بعض الادبا ثمرة العلوم العمل بالمعلوم
وقال بعض البلغا من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله
فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد
وقال ابو تمام الطائي

ولم يحمدوا من عالم غير عامل ... خلاقا ولا من عامل غير عالم
راوا طرقات المجد عوجا قطيعة ... واعجز قطع عندهم عجز حازم

ولانه لما كان علمه حجة على من اخذه عنه واقتبسه منه حتى يلزمه
العمل به والمصير اليه كان عليه احج وبه الزم لان مرتبة العمل قبل

القول مرتبة القول كما ان مرتبة العلم قبل مرتبة العمل وقد قال
ابو العتاهية اسمع الى الاحكام تحملها الرواة اليك عنكا
واعلم هديت بانها تجري تكر اليك منكا
ثم ليجتنب ان يقول ما لا يفعل وان يامر بما لا ياتمر وان يسر
غير ما يظهر ولا يجعل قول الشاعر اعمل بقولي وان قصرت في عملي
ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري عذرا له في تقصير يضره
وان لم يضر غيره فان اعذار النفس تغريها وتحسن لها مساويها
وان من قال ما لا يفعل فقد مكر ومن امر بما لا ياتمر فقد خدع
وان من اسر غير ما يظهر فقد نافق وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال المكر والخديعة وصاحبهما في النار على ان امره
بما لا ياتمر مطرح وانكاره ما لا ينكره مستقبح بل ربما كان سببا
لاغراء المامور بترك ما امر به عنادا وارتكاب ما نهي عنه كيادا
وحكي ان اعرابيا اتى ابن ابي ذيب فساله عن مسئلة طلاق
فافتاه بطلاق امراته فقال انظر حسنا فقال قد نظرت وقد
بانت منك فولى الاعرابي وهو يقول شعر
اتيت ابن ذيب ابتغي العلم عنده فطلق حتى البت تبت انامله
اطلق في فتيا ابن ذيب حليلتي وعند ابن ذيب اهله وحلايله
فظن بجهله انه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق فما
ظنك بقول يجب اشتراك الآمر والمامور فيه كيف كان مقبولا وهو
غير عالم به ولا عامل به كلا وقد قال احمد بن يوسف

وعامل بالفجور يامر بالبر كهاد يخوض في الظلم
او كطبيب قد شفه سقم وهو يداوي من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ ثوبك طهر اولا فلا تلم
عود لسانك قلة اللفظ واحفظ كلامك ايما حفظ
اياك ان تعظ الرجال وقد اصبحت محتاجا الى الوعظ
فاما الانقطاع عن العلم الى العمل اذا عمل بموجب العلم فقد حكي
عن الزهري فيه ما يغني عن تكلف غيره وهو انه قال العلم افضل من
العمل به لمن جهل والعمل افضل من العلم لمن علم فاما فضل
ما بين العلم والعبادة اذا لم يخل بواجب ولم يقصر في فريضة وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يبعث العالم والعابد فيقال للعابد
ادخل الجنة ويقال للعالم اتئد حتى تشفع للناس ومن اداب العلما
ان لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون ولا يمتنعوا من افادة ما يعلمون فان البخل
به لوم وظلم والمنع منه حسد واثم وكيف يسوغ لهم البخل بما
منحوه جودا من غير بخل واوتوه عفوا من غير بذل ام كيف يجوز
لهم الشح بما ان بذلوه زاد وان كتموه تناقص وباد ولو استن بد
بذلك من تقدمهم لما وصل العلم اليهم ولانقرض عنهم بانقراضهم
ولصاروا على مرور الايام جهالا وبتقلب الاحوال وانقراضها ارذالا
وقد قال الله تعالى واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب
لتبيننه للناس ولا تكتمونه وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا
تمنعوا العلم اهله فان في ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم ثم قرا

ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى اولئك يلعنهم الله ويلعنهم
اللاعنون وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من كتم علما يحسنه الجمه
الله بلجام من النار وروي عن علي بن ابي طالب انه قال ما اخذ الله
العهد على اهل الجهل ان يتعلموا حتى اخذ العهد على اهل العلم ان يعلموا
وقال بعض الحكما اذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل
فاحرى ان يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل وقال بعض الحكما
كما ان الاستفادة نافلة للمتعلم كذلك الافادة فريضة على المعلم وقد
قيل في منثور الحكم من كتم علما فكانه جاهل وقال خالد بن صفوان
اني لافرح بافادتي المتعلم اكثر من فرحي باستفادتي من المعلم ثم
له بالتعليم نفعان احدهما ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبي
صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال تصدقوا على اخيكم بعلم يرشده
ورأي يسدده وروى ابو مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تعلموا
وعلموا فان اجر العالم والمتعلم سوا قيل وما اجرهما قال مائة
مغفرة ومائة درجة في الجنة والنفع الثاني زيادة العلم واتقان
الحفظ فقد قال الخليل بن احمد اجعل تعليمك دراسة لعلمك
واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما عندك وقال ابن المعتز في منثور
الحكم النار لا ينقصها ما اخذ منها ولكن يخمدها ان لا تجد حطبا كذلك
العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه فاياك
والبخل بما تعلمه وقال بعض العلما علم علمك وتعلم علم غيرك
فاذا انت قد علمت ما جهلت وحفظت ما علمت واعلم

وظنا بكل مصيبة في ماله فاذا اصيب بدينه لم يشعر
واما الحالة الثالثة وهو ان يزيد فيما كلف وهذا
على ثلاثة اقسام احدها ان يكون الزيادة ريا للناظرين وتصنعا
للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخدع به العقول الواهية
فيتبهرج بالصلحا وليس منهم ويتدلس في الاخيار وهو ضدهم وقد
ضرب النبي صلى الله عليه وسلم للمرائي بعمله مثلا فقال المتشبع بما لا
يملك كلابس ثوبي زور يريد بالمتشبع بما لا يملك المتزين بما ليس فيه
وقوله كلابس ثوبي زور اي هو الذي يلبس ثياب الصلحا ويفعل
افعال الطلحا فهو بريائه محروم الاجر مذموم الذكر لانه لم يقصد
به وجه الله تعالى فيؤجر عليه ولا يخفى رياؤه على الناس فيحمد به
وقد قال الله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا
يشرك بعبادة ربه احدا قال جميع اهل التاويل معنى قوله ولا
يشرك بعبادة ربه احدا اي لا يرائي بعمله احدا فجعل الريا شركا
لانه جعل ما يقصد به وجه الله مقصودا به غير الله تعالى وقال
الحسن البصري في قوله تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال
لا تجهر بها ريا ولا تخافت بها حيا وكان سفيان بن عيينة
اول قوله تعالى ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتا[illegible] القربى
وينهى عن الفحشا والمنكر والبغي ان العدل استوا السريرة
في العمل لله تعالى والاحسان ان يكون سريرته احسن من علانيته
والفحشا والمنكر ان يكون علانيته احسن من سريرته وكان
يقول العدل شهادة ان لا اله الا الله والاحسان الصبر

على امره و نهيه و طاعة الله في سره وجهره و ايتا ذي القربى
صلته الارحام و ينهى عن الفحشا يعني الزنا و المنكر القبائح
والبغي الكبر و الظلم وليس يخرج الريا بالاعمال من هذه ا
الابواب ايضا لانه من جملة القبائح وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال اخوف ما اخاف على امتي الريا الظاهر والشهوة الخفية
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اشد الناس عذابا يوم
القيامة من يرى ان فيه خيرا ولا خير فيه وقال علي بن ابي طالب
لا تعمل شيئا من الخير ريا ولا تتركه حيا وقال بعض البلغا كل
حسنة لم يرد بها وجه الله فعليها قبح الريا وثمرتها سوء الجزا
وقد يفضي الريا بصاحبه الى الاستهزا به الناس به كما يحكى
ان طاهر بن الحسين قال لابي عبد الله المروزي منذ كم صرت
الى العراق يا ابا عبد الله فقال دخلت العراق منذ عشرين سنة
وانا منذ ثلثين سنة صائم فقال يا ابا عبد الله سالناك عن
مسئلة فاجبتنا عن مسئلتين وحكى الاصمعي ان اعرابيا صلى
فاطال والى جنبه قوم فقالوا ما احسن صلوتك فقال و انا مع
ذلك صائم فقال ______ اعرابي كان فيهم
صلى فاعجبني وصام فرابني نح القلوص عن المصلي الصائم
فانظر الى هذا الريا به على الاستهزا بصنعته وكما حكي كيف حمله
ان رجلا رئى على باب سلطان رجلا واقفا في وجهه سجادة
كبيرة فقال له مثل هذا الدرهم بين عينيك و انت هاهنا فقال
انه ضرب على غير السكة وهذا من اجوبة الخلاعة

الاغنيا ومعونة لذوي الحاجات تكفهم عن البغضا وتمنعهم من
التقاطع وتبعثهم على التواصل لان الامل وصول والراجي هايب
فاذا ال الامل وانقطع الرجا واشتد الحسد فحدث التقاطع
بين ارباب الاموال والفقرا ووقعت العداوة بين ذوي الحاجات
والاغنيا حتى تفضي الى التغالب على الاموال والتغرير بالنفوس
مع ما في اداء الزكوة من تمرين النفوس على السماحة المحمودة والشح
المذموم لان السماحة تبعث على اداء الحقوق والشح يصد عنها وما
بعث على اداء الحقوق فاجدر به حمدا وما صد عنها فاخلق به
ذما وقد روى ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال شر
ه اوجبن خالع
ما اعطي العبد شح هالع حين استوجب خالع فسبحان من دبرنا
بلطيف حكمته واخفى عن فطنتنا جزيل نعمته حتى استوجب من
الشكر باخفائها اعظم ما استوجبه بابدائها ثم فرض
الحج فكان اخر فروضه لانه يجمع عملا على بدن وحقا في مال
فجعل فرضه بعد استقرار فروض الابدان وفروض الايمان
فيكون استيناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة الى تسهيل ما جمع
النوعين وكان في ايجابه تذكير ليوم الحشر في مفارقة الاموال المال
والاهل وخضوع العزيز والذليل في الوقوف بين يديه واجتماع
المطيع والعاصي في الرهبة منه والرغبة اليه واقلاع اهل المعاصي
عما اجترحوه وندم المذنبين على ما اسلفوه فقل من حج
الا واحدث توبة من ذنب واقلاعا عن معصية ولذلك قيل

من علامة الحجة المبرورة ان يكون صاحبها بعدها خيرا منه قبلها وهذا
صحيح لان الندم على الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة عنها مكفرة
لما سلف منها فاذا كف عما كان يقدم عليه انبا عن صحة توبته وصحة
التي به تقتضي قبول الحج ثم نبه بما يعاني فيه من مشاق
السفر المؤدي اليه على موضع النعمة بمفارقة الاقامة وانسة الاوطان
ليحنوا على من سلك هذه النعمة من ابناء السبيل ثم اعلم بعد
مشاهدة حرمه الذي انشا منه دينه وبعث فيه رسوله ثم مشاهدة
دار الهجرة التي اعز الله اهل الطاعة [طاعته] واذل بنصرة نبيه اهل معصيته
حتى خضع لها عظماء المتجبرين وتذلل له زعماء المتكبرين انه لم ينشر عن
ذلك المكان المنقطع ولا قوي بعد الضعف البين حتى طبق الارض شرقا
ومغربا الا بمعجزة ظاهرة ونصر عزيز فاعتبر الهمك الله الشكر
ووفقك للتقوى انعامه عليك فيما كلفك واحسانه اليك فيما تعبدك
فقد وكلك الى فطنتك واحالك على بصيرتك بعد ان كنت له
زائدا اصدق وفاء وناصحا شفيقا فهل تحسن نهوضا بشكره اذا فعلت ما امرك
وتقبلت ما كلفك كلا لانه لا يوليك نعمة توجب الشكر الا و
وصلها قبل شكر ما سلف بنعمة توجب الشكر في المؤتنف ولذلك
قال الحسن بن علي رضي الله عنهما نعم الله اكثر من ان تشكر
الا ما اعان عليه وذنوب ابن ادم اكثر من ان تغفر الا ما عفى الله عنه
وانشدنا المنصور بن اسماعيل المصري

شكر الاله نعمة موجبة لشكره • فكيف شكري بره وشكره من بره

ويظهر من محبته وهو يقدر على استصلاح من يعاديه بحسن
صنائعه واياديه قال عبد الله بن الزبير ثلثة ابيات جامعة
لكل ما قالته العرب وهي للافوه

بلوت الناس قرنا بعد قرن • فلم ار غير ختال وقال
وذقت مرارة الاشياء جميعا • فما شيء امر من السؤال
ولم ار في الخطوب اشد هولا • واصعب من معادات الرجال

التنوخي

الق العدو بوجه لا قطوب به • يكاد يقطر من ماء البشاشات
فاحزم الناس من يلقى اعاديه • في جسم حقد وثوب من مودات
الرفق يمن وخير القول اصدقه • وكثرة المزح مفتاح العداوات

وانشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

لما عفوت ولم احقد على احد • ارحت نفسي من هم العداوات
اني احيي عدوي عند رؤيته • كانما قد حشا قلبي محبات
واظهر البشر للانسان ابغضه • لادفع الشر عني بالتحيات
الناس داء ودواء الناس قربهم • وفي اعتزالهم قطع المودات

كذا وليس وان كان يتالف الاعداء مأمورا او الى معاونتهم مندوبا
ينبغي ان يكون اليهم ركونا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر
ومن مكرهم على تحرز فان العداوة اذا استحكمت في الطباع
صارت طبعا لا يستحيل وجبلة لا تزول وانما يستكفى بالتالف
اظهارها ويستدفع به اضرارها كالنار يستدفع بالماء احراقها

ويستفاد به انضاجها وان كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا
يتغير وقد قال

فاذا عجزت عن العدو فداره ... وامزح له ان المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها ... تعطي النضاج وطبعها الاحراق

فصل وأما البر وهو الخامس من اسباب الالفة
فلانه يوصل الى القلوب الطافا ويثنيها محبة وانعطافا
ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون به وقرنه بالتقوى فقال
وتعاونوا على البر والتقوى لان في التقوى رضى الله تعالى وفي
البر رضى الناس ومن جمع بين رضى الله ورضى الناس فقد
تمت سعادته وعمت نعمته وروى الاعمش عن خيثمة عن ابي
مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جبلت القلوب
على حب من احسن اليها وبغض من اساء اليها
وحكي ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلام ذكر عبادي
احساني اليهم ليحبوني فان عبادي لا يحبون الا من احسن
اليهم وانشدني ابو الحسن بن الحرث الهاشمي

الناس كلهم عيال ... الله تحت ظلاله
فاحبهم طرا اليه ... ابرهم بعياله

والبر نوعان صلة ومعروف فاما الصلة فهي التبرع ببذل
المال في جهات محمودة لغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه
سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها واباؤها قال الله تعالى

اذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق معهما وحشة وقال
بعض الحكماء لا تكثرن معاتبة اخوانك فيهون عليهم سخطك
وقال منصور النمري

اقلل عتاب من استربت بوده ... ليست تنال مودة بعتاب

وقال بشار بن برد

اذا كنت في كل الامور معاتبا ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
وان انت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت واي الناس تصفو مشاربه
فعش واحدا او صل اخاك فانه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه

ثم من حق الاخوان ان تغفر خطيئتهم هفوتهم وتستر زلتهم
لان من رام بريا من الهفوات سليما من الزلات رام امرا معوزا
واقترح وصفا معجزا وقالت الحكماء اي عالم لا يهفو وصارم
لا ينبو وجواد لا يكبو وقال من حاول صديقا يامن
زلته ويدوم اغتباطه به كان كضال الطريق الذي لا يزداد
لنفسه اتعابا الا ازداد من غايته بعدا وقيل لخالد بن صفوان
اي اخوانك احب اليك فقال من غفر زللي وقطع عللي
وبلغني املي وقال بعض الشعراء

ما كدت افحص عن اخي ثقة ... الا ندمت عواقب الفحص

وانشدت عن الربيع للشافعي

احب من الاخوان كل مواتي ... وكل غضيض الطرف عن هفواتي
يوافقني في كل امر اريده ... ويحفظني حيا وبعد وفاتي

من لي بهذا ليت اني اصبته ۰ فقاسمته مالي من الحسنات
تصفحت اخواني فكان اقلهم ۰ على كثرة الاخوان اهل ثقات
وانشد ثعلب
اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد ۰ بكفيك في ادباره متعلقا
اذا انت لم تترك اخاك وزلة ۰ اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

وحكى الاصمعي عن بعض الاعراب انه قال تناسى مساوي الاخوان يدم لك ودهم وقال بعض الادبا لأخ له فقال كن للمود حافظا وان لم يكن محافظا وللخليل واصلا وان لم تجد مواصلا وقال رجل من اياد ليزيد بن المهلب

اذا لم تجاوز عن اخ عند زلة ۰ فلست غدا عن عاتبي متجاوزا
وكيف يرجيك البعيد لنفعه ۰ اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا
ظلمت اخا كلفته فوق وسعه ۰ وهل كانت الاخلاق الا غرائزا

وقال مسعود كاتب الرضى كنا في مجلس الرضى فشكى رجل اخاه فانشا الرضى يقول

اعذر اخاك على ذنوبه ۰ واستر وغط على عيوبه
واصبر على بهت السفيه ۰ والزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا ۰ وكل الظلوم الى حسيبه
واعلم بان الحلم عند ۰ البغي اولى من ركوبه

ويحكى عن بنت عبد الله بن مطيع انها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري وكان اجود قريش في زمانه

ما را

ما رايت قوما الأم من اخوانك قال لها مه ولم قالت انهم اذا ايسرت لزموك واذا اعسرت تركوك قال هذا والله من كرمهم ياتونا في حال القوة بنا عليهم ويتركونا في حال الضعف منا عنهم انظر كيف تاول بكرمه هذا التاويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفا وهذا محض الكرم ولباب الفضل وبمثل هذا يلزم ذوي الفضل ان يتاولوا هفوات اخوانهم وقال بعض الشعرا

اذا ما بدت من صاحب لك زلة ۰ فكن انت محتالا لزلته عذرا
أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه ۰ كان به عن كل فاحشة وقرا

والداعي الى هذا التاويل شيئان التغافل الحادث عن الفطنة والثاني الصادر عن الوفا وقال اكثم بن صيفي من شدد نفر ومن تراخى تالف والشرف في التغافل وقال شبيب بن شيبة الا الاديب العاقل هو الفطن المتغافل وقال بعض الحكما وجدت اكثر امور الدنيا لا تجوز الا بالتغافل وقال الطائي

ليس الغبي بسيد في قومه ۰ لكن سيد قومه المتغابي

وقال ابو العتاهيه

ان في صحة الاخاء من الناس ۰ وفي خلة الوفاء لقلة
فالبس الناس ما استطعت على النقص ۰ والا لم تستقم لك خله
عش وحيدا ان كنت لا تقبل العذر ۰ وان كنت لا تجاوز زله
من اب واحد وام خلقنا ۰ غير انا في المال اولاد عله

ومما يتبع هذا الفصل تألف الأعداء بما يثنيهم عن البغضة
ويعطفهم على المحبة وذلك قد يكون بصنوف من البر ويختلف
بحسب اختلاف الأحوال فإن ذلك من سيمات الفضل وشروط السودد
فإنه ما أحد يعدم عدوا ولا يفقد حاسدا وبحسب وفور النعمة
تكثر الأعداء والحسدة كما قال الشاعر

ولن تستبين الدهر موقع نعمة ... إذا أنت لم تدلل عليها بحاسد

فإن أغفل تألف الأعداء مع وفور النعمة وظهور الحسدة توالى
عليه من مكر حليمهم وبادرة سفيههم ما تصير به النعمة غرما
والدعة ملاما وروى ابن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس
وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه لا تستكثر أن يكون
لك ألف صديق فالألف قليل ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد
فالواحد كثير ونظم ابن الرومي هذا المعنى فقال

تكثر من الإخوان ما استطعت إنهم ... بطون إذا استنجدتهم وظهور
وليس كثيرا ألف خل وصاحب ... وإن عدوا واحدا لكثير

وقيل لعبد الملك بن مروان ما الذي أفدت في ملكك هذا
قال مودات الرجال وقال بعض الحكماء من علامات الإقبال
اصطناع الرجال وقال بعض البلغاء من استصلح عدوه ومن استفسد
صديقه نقص من عدده وقال بعض الأدباء العجب ممن يطرح
عاقلا كافيا لما يتوقع من عداوته ويصطنع عاجزا جاهلا لما

شر الأخلاء من كانت مودته ... مع الزمان إذا ما خاف أو رغبا
إذا وترت امرأ فاحذر عداوته ... من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
إن العدو وإن أبدى مسالمة ... إذا رأى منك يوما فرصة وثبا

وينبغي أن يتقي في الإفراط الداعي إلى التقصير ولأن
تكون الحال بينهما نامية أولى من أن تكون متناهية وقد
روى ابن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما
وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما
وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا
بغضك تلفا وقال أبو الأسود الدؤلي

وكن معدنا للخير واصفح عن الأذى ... فإنك راء ما علمت وسامع
وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا ... فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا أبغضت غير مباين ... فإنك لا تدري متى أنت راجع

وقال عدي بن زيد

لا تأمنن من مبغض قرب داره ... ولا من محب أن يمل فيبعدا

وإنما يلزم من قرب الإخاء بذل المجهود في النصح والتناهي في
رعاية ما بينهما من الحق فليس في ذلك إفراط وإن تناهى ولا
مجاوزة حد وإن كثر وأوفى وتستوي حالتاهما في المغيب
والمشاهد ولأن يكون مغيبهما أفضل من مشهدهما أولى فإن فضل
المشهد على المغيب لؤم وفضل المغيب على المشهد كرم واستواؤهما

حفاظ وقال الشاعر

علي لاخواني رقيب من الصفا ۞ تبيد الليالي وهو ليس يبيد
يذكرنيهم في مغيب ومشاهد ۞ فسيان منهم غائب وشهيد
واني لاستحيي أخي ان أبره ۞ قريبا وأجفوه وهو بعيد

وهكذا يقصد التوسط في زيارته وغشيانه غير مقلل ولا مكثر فان تقليل الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم يا ابا هريرة زر غبا تزدد حبا وقال بعض الوزراء لبعض الخلفاء حين اراد ان يتخذه وزيرا اجعل بيني وبينك العناية درجة يخافها العدو ويأملها الصديق وقال لبيد

توقف عن زيارة كل يوم ۞ اذا اكثرت ملك من تزور

وقال

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل ۞ هجرانه فيلج في هجرانه
ان الصديق يلج في غشيانه ۞ لصديقه فيمل من غشيانه
حتى تراه بعد طول سروره ۞ بمكانه متثاقلا لمكانه
واذا توانى عن صيانة نفسه ۞ رجل تنقص واستخف بشانه

وبحسب ذلك فليكن في عتابه فان كثرة العتاب سبب القطيعة واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بامر الصديق وقد قيل علة المعاداة قلة المبالاة بل يتوسط حالتي تركه وعتابه فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة فان المسامحة والاستصلاح

من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها والسابع اختيار خلفائه في الامور ان يكونوا من اهل الكفاية فيها والامانة عليها فاذا فعل من أفضى اليه سلطان الامة ما ذكرنا من هذه الاشياء السبعة كان مؤديا لحق الله فيهم مستوجبا لطاعتهم ومناصحتهم مستحقا لصدق ميلهم ومحبتهم وان قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها كان بها مؤاخذا وعليها معاقبا ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت يتربصون الفرص باظهارهما ويتوقعون الدوائر باعلانهما وقد قال الله تعالى قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم او يلبسكم شيعا وفي قوله عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم تاويلان احدهما ان العذاب الذي من فوقهم أمراء السوء والذي من تحتهم عبيد السوء وهذا قول ابن عباس والثاني ان العذاب الذي من فوقهم الرجم والذي من تحتهم الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفي قوله او يلبسكم شيعا تاويلان احدهما الاهواء المختلفة وهذا قول ابن عباس والثاني انه الفتن والاختلاط وهذا قول مجاهد وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من امير عشرة الا وهو يجي يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه حتى يكون عمله الذي يطلقه او يوبقه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم خيار ائمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشرار ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم وهذا صحيح لانه اذا كان ذا خير احبهم واحبوه واذا كان ذا شر ابغضهم وابغضوه وقد كتب عمر رض الى سعد بن ابي وقاص ان الله تعالى

اذا احب عبداً احببه الى خلقه فاعرفوا منزلتكم من الله بمنزلتكم
من الناس واعلموا ان ما لكم عند الله مثل ما لله عندكم فكان
موضحا لما مضى مما ذكرناه واصل هذا ان خشية الله تبعث على طاعته
في خلقه وطاعته في خلقه تبعثهم على محبته فلذلك كانت محبتهم دليلا
على خيره وخشيته وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته وقد قال
عمر بن الخطاب رض اوصيك ان تخشى الله في الناس ولا تخشى الناس
في الله وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه اني اخاف الله
فيما تقلدت قال لست اخاف عليك ان تخاف وانما اخاف عليك الا تخاف
وهذا اوضح لان الخائف من الله مأمون الحيف كالذي روي عن
عمر بن الخطاب انه قال لابي مريم السلولي وكان قتل اخاه زيد بن
الخطاب والله اني لا احبك حتى تحب الارض الدم قال فتمنعني ذلك
حقا قال لا قال لا ضير انما يأسى على الحب النساء وروى عبد الملك
بن محمد قال اصدق طلحة بن عبيد الله ام كلثوم بنت ابي بكر الصديق رض
مائة الف درهم وهو اول من اصدق هذا القدر فمر بالمال على ابي
الخطاب رض فقال ما هذا قالوا صداق ام كلثوم بنت ابي بكر قال
ادخلوه بيت المال فأخبر طلحة وقيل كلمه فقال ما انا بفاعل لئن
كان عمر يرى له فيه حقا لا يرده بكلامي ولئن كان لا يرى فيه حقا
ليردنه قال فلما اصبح عمر امر بالمال فدفع الى ام كلثوم وحكي
ان الرشيد حبس ابا العتاهية فكتب على حائط الحبس
اما والله ان الظلم لؤم   وما زال المسيء هو الظلوم

بعض البلغاء لا كثير مع اسراف ولا قليل مع احتراف واعلم
ان السرف والتبذير قد يفترق معناهما فالسرف هو الجهل بمقادير
الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم
وذم التبذير اعظم لان المسرف يخطئ في الزيادة والمبذر يخطئ
في الجميع ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله واخطاها
فهو كمن جهلها بفعاله فتعداها وكان المبذر قد يضع الشيء
في غير موضعه فهكذا انه يعدله عن موضعه لان المال اقل
من ان يوضع في كل موضع من حق وغير حق وقد قال معاوية كل
سرف فبازائه حق مضيع وقال بعض الحكماء الخطأ في اعطاء ما لا ومنع ما ينبغي
ينبغي واحد وقال سفيان الثوري الحلال لا يحتمل السرف وليس
يتم السخاء ببذل ما في يده حتى تسخو نفسه عما بيد غيره فلا يميل
الى الطلب ولا يكف عن بذل وقد حكي ان الله تعالى اوحى الى
ابرهيم الخليل عليه السلام اتدري لم اتخذتك خليلا قال لا يا رب
قال لاني رأيتك تحب ان تعطي ولا تحب ان تأخذ وروى سهل
بن سعد الساعدي قال اتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم قال يا رسول الله
اخبرني بعمل يحبني الله عليه ويحبني الناس فقال ازهد في الدنيا
يحبك الله وازهد فيما بايدي الناس يحبك الناس وقال ايوب
السختياني لا يسود الرجل حتى تكون فيه خصلتان العفة عن اموال
الناس والتجاوز عنهم وقيل لسفيان ما الزهد في الدنيا
قال الزهد في الناس وكتب كسرى الى ابنه هرمز يا بني

استقلل الكثير مما نعطي واستكثر القليل مما ناخذ فان قرة
عيون الكرام في الاعطا وسرور اللئام في الاخذ ولا
تعد الشحيح امينا ولا تعد الكذاب حرا فانه لا عفة مع الشح
ولا مروة مع الكذاب وقال بعض الحكما السخا سخاان فاشرفهما
سخاوك عما بيد غيرك وقال بعض البلغا السخا ان تكون بمالك
متبرعا وعن مال غيرك متورعا وقال بعض الحكما الجود غاية
الزهد والزهد غاية الجود وقال بعض الشعرا

اذا لم تكن نفس الشريف شريفة ... وان كان ذا قدر فليس له شرف

والبذل على وجهين احدهما ما ابتدأ به الانسان من غير سؤال
والثاني ما كان عن طلب وسؤال فاما المبتدأ به فهو اطبعهما
سخا واشرفهما واما ما كان عن مسئلة فحيا وتكرم وقال بعض
الحكما اجل النوال ما وصل قبل السؤال وقال بعض الشعرا

وفتى خلا من ماله ... ومن المروة غير خال
اعطاك قبل سؤاله ... فكفاك مكروه السؤال

وهذا النوع من البذل قد يكون لاحد تسعة اسباب
فالسبب الاول انه يرى خلة يقدر على سدها وفاقة يتمكن من
ازالتها فلا يبعثه الكرم او التدين الا ان يكون زعيم
صلاحها وكفيل نجاحها رغبة في الاجر ان تدين وفي الشكر
ان تكرم وقال ابو العتاهية

ما الناس الا آلة معتمله ... للخير والشر معا نفعله

ومشكر الصديق بحسن الجزا ... ومشكر من دونك بسبب العطا

وقال بعض الشعرا

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد ... لعزة ملك او علو مكان
لما امر الله العباد بشكره ... فقال اشكروا لي ايها الثقلان

فاما شكر معروف من احسن اليه ونشر افضال من انعم عليه فقد
ادى حق النعمة وقضى موجب الصنيعة ولم يبق عليه الا استدامة
ذلك الشكر ليكون للمنة بيد مستحقا ولمتابعة الاحسان مستوجبا
حكي ان الحجاج أتي بقوم من الخوارج وكان فيهم صديق
له فامر بقتلهم الا ذلك الصديق فانه عفا عنه واطلقه ووصله
فرجع الرجل الى قطري وكان من اصحابه فقال له عد الى قتال عدو
الله الحجاج فقال (هيهات) غل يدا مطلقها واسترق رقبة معتقها
وانشا يقول

أأقاتل الحجاج عن سلطانه ... بيد تقر بانها مولاته
اني اذا لاخو الدناءة والذي ... شهدت باقبح فعله غدراته
ماذا اقول اذا وقفت ازاءه ... في الصف واحتجت له فعلاته
أأقول جار علي لا اني اذا ... لاحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الاقوام ان صنائعا ... غرست لدي فحنظلت نخلاته

وقيل في منثور الحكم المعروف رق والمكافاة عتق ومن
اشكر الناس الذي يقول

لاشكرنك معروفا هممت به ... ان اهتمامك بالمعروف معروف

ولا ألومك ان لم يمضه قدر • فالشيء بالقدر المحتوم مصروف
وهذا النوع من الشكر في الذي يتعجل المعروف ويتقدم البر
وقد يكون على وجوه فيكون تارة من حسن الثقة بالمشكور مع
وصول بره و امتداد عرفه ولا تراني لمن يحسن به ظن شاكر أن
يخلف حسن ظنه فيه فيكون كما قال العتابي
قد اورقت فيك آمالي بوعدك لي • وليس في ورق الآمال لي ثمر
وقد يكون تارة من فرط شكر الراجي وحسن مكافأة الآمل فلا
يرضى لنفسه الا تعجيل الحق وامتلاك الشكر وليس لمن ضاق
لعروفه معد ثان كيا ومعترضا فاميا ان يفوت نفسه غنما ولا
يحرمها بجا فهذان وجهان وقد يكون تارة ادتهانا للمامول
وحبا للمسؤول وبحسب ما اسلف من الشكر يكون الذم عند الناس
وقال بعض الحكما المتقدمين من شكرك على معروف لم تسده اليه
فعاجله بالبر والا فعكس وصاته ذما وقال ابن الرومي في ذلك
وما الحقد الا توأم الشكر في الفتى • وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقدا على ذي اساءة • فثم ترى شكرا على حسن القرض
اذا الارض ادت ريع ما انت زارع • من البذر فيها فهي ناهيك من ارض
فاما من يستر معروف المنعم ولم يشكره على ما اولاه من نعمه فقد
كفر النعمة وجحد الصنيعة وأبان من ذم الخلائق وسوء الطريقة
عما يستوجب به قبح الرد وسوء الرد وقد روى ابو هريرة عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال لا يشكر الله من لا يشكر الناس وقال

بعض الادبا من لم يشكر لمنعمه استحق قطع النعمة وقال بعض
الفصحا من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد وقال بعض
البلغا من انكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة وانشدني
بعض الادبا ما ذكر انه لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه
من جاور النعمة بالشكر لم • يخش على النعمة مغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم • مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم • لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى • زوالها والشكر ابقى لها
فهذا احد ما يتعلق بالقاعدة الثانية من اسباب الالفة الجامعة

فصل واما القاعدة الثالثة فهي المادة
الكافية لان حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر قال
الله تعالى وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين
(ط فالاختلال)
فاذا عدم المادة التي هي قوام نفسه والاختلال في دنياه بقدر
ما تعذر من المادة عليه لان الشيء القائم بغيره يكمل بكماله ويختل
باختلاله ثم لما كانت المادة مطلوبة لحاجة الكافة اليها اعوزت
بغير طلب وعدمت بغير سبب واسباب المواد مختلفة
وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف اسبابها علة للائتلاف بها
وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كي لا يجتمعوا على سبب واحد فلا
يلتئموا ويشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون ثم زهدهم اليها
بعثهم وارشدهم اليها بطباعهم حتى لا يتكلفوا ائتلافهم في

المعايش المختلفة فيتميزون ولا يتعاونون فيتقدر بموادهم بالمكاسب
المتشعبة • حكمة منه سبحانه اطلع بها على عواقب الامور
وقد انبا الله تعالى في كتابه اخبارا واذكارا بفضل ربنا سبحانه
قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى فاختلف المفسرون
في تاويل ذلك فقال قتادة اعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه
له وقال مجاهد اعطى كل شيء صورته ثم هداه الى المعيشة
وقال ابن عباس اعطى كل شيء زوجه ثم هداه لنكاحه وقال تعالى
يعلمون ظاهرا من الحيوة الدنيا يعني معايشهم متى يزرعون ومتى
يغرسون وهم عن الاخرة هم غافلون وقال تعالى وقدر فيها اقواتها
في اربعة ايام سواء للسائلين قال عكرمة قدر في كل بلدة منها
ما لم يجعله في الاخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد
وقال الحسن البصري وعبد الرحمن بن زيد قدر ارزاقها
سواء للسائلين الزيادة في ارزاقهم ثم ان الله تعالى جعل لهم مع
ما هداهم اليه من مكاسبهم وارشدهم اليه من معايشهم دينا يكون حكما
وشرعا يكون عليهم قيما ليصلوا الى موادهم بتقدير ولا يطلبوا اسباب
مكاسبهم بتدبير حتى لا ينفردوا بارادتهم فيتغالبوا فيستولي عليهم
اهواهم فيتقاطعوا قال الله تعالى ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السماوات
والارض ومن فيهن قال المفسرون الحق في هذا الموضع هو الله
جل وعلا فلاجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالالهام حتى جعل العقل
هاديا اليها والدين قاضيا عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة ثم انه تعالى

جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين مادة وكسب
اما المادة فهي حادثة عن اقتناء اصول نامية بذواتها وهي شيئان
نبت نام وحيوان متناسل قال الله تعالى وانه هو اغنى واقنى
قال ابو صالح اغنى خلقه بالمال واقنى فجعل لهم قنية وهي اصول
الاموال واما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة
والتصرف المودي الى الحاجة وذلك من وجهين احدهما تقلب في تجارة
والثاني تصرف في صناعة وهذان الوجهان هما فرع لوجهي المادة
فصارت اسباب المواد المالوفة وجهات المكاسب المعروفة من اربعة اوجه
نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة
وقد حكى الحسن بن رجاء نحو ذلك عن المامون قال سمعته
يقول معايش الناس على اربعة اقسام زراعة وصناعة وتجارة
وامارة فمن خرج منها كان كلا عليها واذ قد تقررت اسباب
المواد بما ذكرنا فسنصف حال كل واحد منها بقول موجز
اما الاول من اسبابها وهو الزراعة فهي مادة اهل الحضر
وسكان الامصار والمدن والاستمداد بها اعم نفعا واوفر فرعا
ولذلك ضرب الله به المثل فقال مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل
الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف
لمن يشاء وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير المال عين ساهرة
لعين نائمة وقال صلى الله عليه وسلم نعمت لكم النخلة تشرب من عين
خرارة وتغرس في ارض خوارة وقال صلى الله عليه وسلم في النخل

من الراسخات في الوحل المطعمات في المحل وقال بعض السلف خير
المال عين خرارة في ارض خوارة تسهر اذا نمت
وتشهد اذا غبت ويكون عقبا اذا امت وروى هشام بن عروة عن
ابيه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق في
خبايا الارض يعني الزرع وحكي عن بعضهم انه قال رايت علي
بن ابي طالب في المنام فناولني مسحاة وقال خذها فانها مفاتيح
خزائن الارض وقال كسرى للموبد ما نيمة تأجي هذا نطرق
مناعة ثم قال ما اعرف له قيمة الا ان يكون مطرة في نيسان
فانها تصلح من معاش الرعية ما يكون قيمته مثل مقدار تاج الملك
ونمى عبد الله بن عبد الملك لابن شهاب الزهري فانشد
ابن شهاب يقول

اقول لعبد الله يوما لقيته • وقد جد في بيع الضياع واسرعا
تتبع خبايا الارض وادع مليكها • لعلك يوما ان تجاب فترزقا
فيؤتيك مالا واسعا ذا مثابة • اذا ما مياه الارض غارت يترعا

وقد اختلف الناس في تفصيل الزرع والشجر بما لا يتسع
كتابنا هذا البسط القول فيه غير ان من فضل الزرع فلقرب
مداه ووفور جدواه ومن فضل الشجر فلثبوت اصله من
توالي ثمره واما الثاني من اسبابها وهو نتاج الحيوان
فهو مادة اهل الفلوات وسكان الخيام لانهم لما لم تستقر بهم
دار ولم تضمهم امصار افتقروا الى الاموال المنتقلة معهم
وما لا ينقطع تناوله بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لانه

يستقل في النقلة بنفسه ويستغني في العلوفة برعيه ثم هو
مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على اهل الخيام ايسر لقلة مؤونته
وتسهيل الكلفة وكانت جدواه عليهم اكثر لوفور نسله واقتناء
نسله الهاما من الله تعالى في تعديل المصالح فيهم وارشادا
لعباده في قسم المنافع بينهم وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال خير المال مهرة مامورة او سكة مابورة معنى قوله
صلى الله عليه وسلم مهرة مامورة اي كثيرة النسل ومنه ما تاول
الحسن وقتادة قوله تعالى امرنا مترفيها ففسقوا فيها اي
اكثرنا عددهم واما السكة المابورة فهي النخل المؤبر للحمل
وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في الغنم سمنها معاش وصوفها
رياش وروى عن ابي ظبيان قال قال لي عمر بن الخطاب ما مالك
يا ابا ظبيان قال عطائي الفان قال اتخذ ها الحرث والسابيا قبل ان
تليك غلمة من قريش لا تعد العطا معهم مالا والسابيا النتاج
وروى ان امراة اتت الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله اني
اتخذت غنما ابتغي نسلها ورسلها وانها لا تنمي فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم
ما الوانها قالت سود فقال عفري هي وهذا مثل قولهم
في مناكح الادميين اغتربوا لا تضووا واما الثالث من
اسبابها وهو التجارة فهو فرع لمادتي الزرع والنتاج وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تسعة اعشار الرزق في التجارة والجزء
الباقي في السابيا وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر

وهذا تربص واحتكار قد رغب عنه أولو الأقدار وزهد فيه
ذوو الأخطار والثاني تقلب المال بالأسفار ونقله إلى الأمصار
فهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غير أنه أكثر خطرا
وأعظم غررا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن المسافر وماله
لعلى قلت إلا ما وقى الله تعالى على خطر وقيل في التوراة يا ابن
آدم أحدث سفرا أحدث لك رزقا وأما الرابع من أسبابها
وهو الصناعة فقد تتعلق بما مضى من الأسباب الثلاثة وتنقسم
أقساما ثلاثة صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر
وعمل لأن الناس آلات الصناعات فأشرفهم نفسا أمهرهم لأشرفها
جنسا كما أن أرذلهم نفسا أمهرهم لأرذلها جنسا لأن الطبع يبعث على ما
لائمه ويدعو إلى ما جانسه حكي أن الإسكندر لما أراد
الخروج إلى أقاصي الأرض قال لأرسطاطاليس أخرج معي قال قد
نحل جسمي وضعفت عن الحركة فلا تزعجني قال فما أصنع في عمالي
خاصة قال انظر من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجند
ومن كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار
الطباع على ما أغناه عن تكلف التجربة وأشرف الصناعات صناعة
الفكر وأرذلها صناعة العمل لأن العمل نتيجة الفكر ومدبره فأما
صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين أحدهما ما وقف على التدبيرات
الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد
أفردنا للسياسة كتابا لخصنا فيه من جملها ما ليس يحتمل هذا الكتاب

كلف

زيادة عليها والثاني ما أدت إلى المعلومات الحادثة عن الأفكار
النظرية وقد مضى في العلم من كتابنا هذا أبواب أغنت ما فيه عن زيادة
قول فيه وأما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين عمل صناعي وعمل
بهيمي فالعمل الصناعي أعلاهما رتبة لأنه يحتاج إلى معاطاة في تعلمه
ومعاناة في تصوره فصار أحد القسمين من المعلومات الفكرية
والآخر فإنما هو صناعة كد وآلة مهنة وهي الصناعة التي تقتصر
عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسية كما قال أكثم بن
صيفي لكل ساقطة لاقطة وقال ___ المتلمس

ولا يقيم على ضيم يراد به * إلا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته * وذا يشج فلا يرثي له أحد

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين
أحدهما أن تكون صناعة الفكر أغلب والعمل تبعا كالكتابة والثاني
أن تكون صناعة العمل أغلب والفكر تبعا كالبناء فأعلاهما رتبة ما
كان صناعة الفكر أغلب عليها والعمل تبعا لها فهذه أحوال الخلق
التي ركبهم الله عز وجل عليها في ارتياد موادهم ووكلهم إلى نظرهم
في طلب اكتسابهم وفرق من هممهم في التماسها ليكون ذلك سببا لائتلافهم
فسبحان من تفرد فينا بلطيف حكمته وأظهر لفطنتنا عزائم قدرته
وإذ قد وضح القول في أسباب المواد وجهات المكاسب فليس يخلو
حال الإنسان فيها من ثلاثة أمور أحدها أن يطلب منها قدر كفايته
ويلتمس وفق حاجته من غير أن يتعدى إلى زيادة عليها أو يقتصر على

نقصان منها فهذه احد احوال الطالبين واعدل مراتب المقتصدين
وقد روى عن قتاده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال
اوحي الي كلمات فدخلن في اذني ووقرن في قلبي من اعطى فضل
ماله فهو خير له ومن امسك فهو شر له ولا يلوم الله على كفاف
وروى حميد عن معويه بن حيده قال قلت يا رسول الله ما يكفيني من
الدنيا قال ما سد جوعتك وستر عورتك فان كان دار فذاك
وان كان حمار فبخ بخ فلق من خبز وجر من ماء وانت مسوول
عما فوق الازار وقد حكي عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى
اذ جعل فيكم انبيا وجعلكم ملوكا ان كل من ملك بيتا وزوجه وخادما
فهو ملك وروى زيد بن اسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان له
بيت وخادم فهو ملك لانه بالزوجه والخادم مطاع في امره وفي الدار
محجوب الاعن ربه وليس على من طلب قدر الكفايه ولم يتجاوز
تبعات الزياده الا توخي الحلال منه واجمال الطلب فيه ومجانبة
الشبه الممازجه له وقد روى نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام بين فدع ما يريبك الى ما لا يريبك
فلن تجد فقد شي تركته لله وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن الزهد قال اما انه ليس باضاعة المال ولا بتحريم الحلال ولكن
ان تكون بما في يد الله اوثق منك بما في يدك وان تكون في امر
المصيبه ارجح عندك من بقائها وحكى عبد الله بن المبارك قال
كتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح بن عبد الله الحكمي ان

استطعت أن تدع مما احل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين
الحرام فافعل فانه من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام وقد
اختلف اهل التاويل في قوله تعالى فان له معيشة ضنكا فقال
عكرمه يعني كسبا حراما وقال ابن عباس هو انفاق من لا
يوقن بالخلف وقال عيسى معاذ الدرهم عقرب فان احسنت
رقيتها والا فلا تاخذها وقيل من قل توقيه كثرت مساويه
وقال بعض البلغا خير الاموال ما انفقته من الحلال وصرفته
في النوال وشر المال ما اخذته من الحرام وصرفته في الاثام
وكان الاوزاعي الفقيه كثيرا يتمثل بهذه الابيات

المال ينفد حله وحرامه • يوما ويبقى بعده اثامه •
ليس التقي بمتق لالاهه • حتى يطيب شرابه وطعامه •
ويطيب ما يحوي ويكسب اهله • ويطيب من لفظ الحديث كلامه •

حكي عن ابي المعتمر السلمي انه قال الناس ثلثه اصناف اغنيا
وفقرا واوساط فالفقرا موتى الا من احياه الله بعز القناعه
والاغنيا سكارى الا من عصمه الله بتوقع الغير واكثر الخير مع
اكثر الاوساط واكثر الشر مع اكثر الفقرا والاغنيا لسخف الفقر
وبطر الغنى والحال الثانيه ان يقصر عن طلب كفايته
ويزهد في التماس مادته وهذا التقصير قد يكون على ثلثه اوجه
يكون تارة كسلا وتارة توكلا وتارة زهدا وقنعا فان كان
تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومرح الاغتباط فلن يعدم

ان يكون كلاً مفضياً او ضايعاً متفقاً وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال كاد الحسد يغلب القدر وكاد الفقر يكون كفراً
وقال بزرجمهر ان كان شيء فوق الحياة فالصحة وان كان شيء
مثلها فالغنى وقيل في منثور الحكم الغنى خير من الفقر
ووجد في نيل مصر مكتوباً على حجر عقبة الصبر نجاح وغنى
ورداء الفقر من نسج الكسل وقال بعض الشعراء

اعوذ بك اللهم من بطر الغنى ۝ ومن هلكة البلوى ومن ذلة الفقر
ومن امل يقتاد في كل شارق ۝ ويرجعني منه بحظ من صفر
اذا لم تدنسني الذنوب بعارها ۝ فلست ابالي ما تشعث من امري

وان كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد عذر به نفسه وترك حزم
قد عذر اسمه لان الله امر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم
الى القضاء بعد الاعذار وقد روى معمر عن ايوب عن ابي قلابه
قال ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فذكر فيه خير قالوا يا رسول الله
خرج معنا حاجاً فاذا نزل منزلاً لم يزل يصلي حتى يرحل فاذا
ارتحلنا لم يزل يذكر الله عز وجل حتى ينزل فقال صلى الله عليه وسلم
فمن كان يكفيه علف ناقته وصنيع طعامه قالوا كلنا يا رسول الله
قال فكلكم خير منه وقال بعض الحكما ليس من توكل المرء
اضاعته للحزم ولا من الحزم اضاعة نصيبه من التوكل وان كان تقصيره
لزهد صدق كل وتقنع فهذه حال من علم بمحاسبة نفسه بتبعات
الغنى والثروة وخاف عليها بوائق الهوى والفتن واثر الفقر

على الغنى

على الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى وقد روى ابو الدرداء
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلعت فيه شمس
الا بجنبتيها ملكان يناديان يسمعها خلق الله كلهم الا الثقلين
يا ايها الناس هلموا الى ربكم ان ما قل وكفى خير مما كثر والهى وروى
وروى زيد بن علي بن الحسين عن ابيه عن جده قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج من الله عز وجل عبادة ومن
قنع بالقليل من الرزق رضي الله منه بالقليل من العمل وقد روي
عن عمر بن الخطاب رض قال من نبل الفقر انك لا تجد احداً
يعصي الله ليفتقر واخذه محمود الوراق فقال شعراً

يا عائب الفقر الا تزدجر ۝ عيب الغنى اكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله ۝ على الغنى ان صح منك النظر
انك تعصي لتنال الغنى ۝ ولست تعصي الله كي تفتقر

وقال ابن المقفع

دليلك ان الفقر خير من الغنى ۝ وان القليل المال خير من المثري
لقاؤك مخلوقاً عصى الله بالغنى ۝ ولم تر مخلوقاً عصى الله بالفقر

وهذه الحال انما تصح لمن نصح نفسه فاطاعته وصدقها فاجابته
حتى لان قيادها وهان عنادها وعلمت ان من لم يقنع بالقليل
لم يقنع بالكثير كما كتب الحسن البصري الى عمر بن عبد العزيز
يا اخي من استغنى بالله اكتفى ومن انقطع الى غيره تعنى ومن
كان من قليل الدنيا لا يشبع لم يغنه منها كثرة ما يجمع فعليك

منها بالكفاف وان لم تمنعك العفاف واياك وجمع الفضول فان
حسابه يطول ● وقال بعض الحكماء هيهات منك الغنى ان لم تسعدك
ما حويت فاما من عزفت نفسه عن قبول نصحه وجمحت عن قناعة
زهده فليس الى اكراهها سبيل ولا الى الحمل عليها وجه الا بالحمل
بالرياضه والمرون وان يستنزلها باليسير الذي لا تنفر منه
فاذا استقرت عليه استنزلها الى ما هو اقل منه لينتهي بها
بالتدرج الى الغايه المطلوبه وتتقف بالرياضه والمرون على
الحاله المحبوبه فقد تقدم قول الحكما الكره يسهل بالمرون فهذا
حكم ما في الحالة الثانية من التقصير عن طلب الكفاية **واما**
الحالة الثالثة فهو ان لا يقنع بالكفايه ويطلب الكثرة والزيادة
فقد يدعو الى ذلك اربعة اسباب احدها منازعة الشهوات
التي لا تنال الا بزيادة المال وكثرة المادة فاذا نازعته
الشهوة طلب من المال ما يوصله اليها وليس للشهوات حد متناه
فيصير ذلك ذريعة الى ان ما يطلبه ليس بمتناه ومن لم يتناه
طلبه استدام كده وتعبه ومن استدام به الكد والتعب لم
يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة كده واتعابه
مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعرض لاكتساب
التبعات حتى يصير كالبهيمة التي قد انصرف طلبها الى ما تدعو
اليه شهوتها فلا تنزجر عنه بعقل ولا تكتف عنه بقناعة وقد
روى علي بن ابي طالب كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

انه قال من اراد الله به خيرا حال بينه وبين شهواته وحال
بينه وبين قلبه واذا اراد الله به شرا وكله الى نفسه وقال الشاعر
وانك ان اعطيت بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم اجمعا
والسبب الثاني ان يطلب الزيادة ويلتمس الكثرة ليصرفها
في وجوه الخير ويتقرب بها في جهات البر ويصطنع بها المعروف
ويغيث بها الملهوف فهذا اعذر وهو بالحمد احرى
واجدر اذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوقى شبهات المكاسب
واحسن التقدير في حالتي فايدتها وافادتها على قدر الزمان
وبقدر الامكان لان المال آلة المكارم وعون على الدين ومتألف
للاخوان ومن فقده من ابناء الدنيا قلت الرغبة فيه والرهبة منه
ومن لم يكن منهم بموضع رهبة ولا رغبة استهانوا به وقد روى
عبد الله بن بريدة عن ابيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
احساب اهل الدنيا هذا المال وقال مجاهد الخير في القران
كله المال وانه لحب الخير لشديد يعني المال واحببت حب الخير
عن ذكر ربي يعني المال فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا يعني مالا
وقال شعيب اني اراكم بخير يعني الغنى والمال وانما سمى الله المال
خيرا اذا كان في الخير مصروفا لان ما ادى الى الخير فهو في
نفسه خير **وقد اختلف** اهل العلم في قوله تعالى ومنهم من
يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب
النار فقال السدي وعبد الرحمن بن زيد الحسنة في الدنيا المال

وفي الاخرة الجنة وقال الحسن البصري وسفيان الثوري
الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الاخرة الجنة وقال عبد الله
بن عباس الدراهم والدنانير خواتيم الله في ارضه الارض لا توكل
ولا تشرب الا بها حيث قصدت بها قضيت حاجتك وقال قيس بن سعد
اللهم ارزقني حمدا ومجدا فانه لا حمد الا بفعال ولا مجد الا
بمال وقيل لابي الزناد لم تحب الدراهم وهي تدنيك من
الدنيا قال هي وان ادنتني من الدنيا فقد صانتني عنها وقال
بعض الحكما من اصلح ماله فقد صان الاكرمين الدين والعرض
وقيل في منثور الحكم من استغنى كرم على اهله ومر رجل
من ارباب الاموال ببعض العلما فتحرك له واكرمه فقيل له بعد
ذلك اكانت لك الى هذا حاجة قال لا ولكني رايت ذا المال مهيبا
وسال رجل محمد بن عمير بن عطارد وعتاب بن ورقا في
عشر ديات فقال محمد علي دية وقال عتاب الباقي علي فقال محمد
نعم العون اليسار على المجد وكان يقال الدراهم مراهم لانها
تداوي كل جريح ويطيب بها كل صحيح وقيل في منثور الكلام
الفقر مخزنه والغنى مجده والبوس مذله والسوال مبذله

وقال اوس بن حجر

اقيم بدار الحزم ما دام حزمها ۰ واحر اذا حالت بان اتحولا
فاني وجدت الناس الا اقلهم ۰ خفاف العهود يكثرون التنقلا
بني ادم يرون ذي المال الكثير يرونه ۰ وان كان عبدا سيد الامر جحفلا

كرام

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا تزال امتي بخير ما لم
ترى الامانة مغنما والصدقة مغرما وقال بعض الحكما من
التمس اربعا باربع التمس ما لا يكون من التمس الجزاء بالرياء التمس
ما لا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون ومن
التمس العلم براحة الجسم التمس ما لا يكون ومن التمس الاخوان بغير
وفاء التمس ما لا يكون والداعي الى الخيانة شيئان المهانة وقلة
الامانة فاذا حسمهما عن نفسه بما وصفت ظهرت مروته فهذان
شرطان قد استوفينا فيه به اقسام العفة واما النزاهة فنوعان
احدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثاني النزاهة عن مواقف الريبة
فاما المطامع الدنية فلان الطمع ذل والدناءة لوم وهما ادفع شي
لمروءة وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه اللهم اني اعوذ بك
من طمع يهدي الى طبع وقال بعض الشعرا

لا تخضعن لمخلوق على طمع ۰ فان ذلك نقص منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه ۰ فانما هو بين الكاف والنون

والباعث على ذلك شيئان الشره وقلة الانفة فلا يقنع بما
اوتي وان كان كثيرا لاجل شرهه ولا يستنكف مما منع وان كان
حقيرا لقلة انفته وهذه حال من لا يرى لنفسه قدرا ويرى المال
اعظم خطرا فيرى بذل اهون الامرين لاجلهما غنما وليس فيمن
كان المال عنده اجل ونفسه عليه اقل اصغا لتانيب ولا قبول لتاديب
وروي ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اوصني قال عليك باليأس

مما في ايدي الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر واذا صليت
صلوة فصل صلوة مودع واياك وما تعتذر منه وقال بعض
الحكما عز النزاهة اشرف من سرور الفائدة وقال بعض الشعرا
ومن كانت الدنيا مناه وهمه * سبته المنى واستعبدته المطامع
وحسم هذه المطامع شيئان الياس والقناعة روي عن عبد الله
بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان روح القدس نفث في روعي
ان نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله تعالى واجملوا
في الطلب ولا يحملنكم ابطا الرزق على ان تطلبوه بمعاصي الله فان
الله لا يدرك ما عنده الا بطاعته فهذان شرط واما مواقف
الريبة فهي التردد بين منزلتي حمد وذم والوقوف بين حالتي
سلامة وسقم فتتوجه اليه لائمة المتوهمين وينالهُ ذلة المريبين
وكفى بصاحبها موقفا ان صح افتضح وان لم يصح وقد قال النبي
صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك وسئل محمد بن علي
عن المروة فقال ان لا تعمل في السر عملا تستحيي منه في العلانية
وقال حسان بن ابي سنان ما وجدت شيئا هو اهون من الورع
قيل وكيف قال اذا ارتبت بشيء تركته والداعي الى هذه الحال
شيئان الاسترسال وحسن الظن والمانع منه شيئان الحيا والحذر
وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة
كالذي حكي عن عيسى بن مريم عليهما السلام انه راه بعض الحواريين
وقد خرج من منزل ذات فجور فقال له يا روح الله ما تصنع

لا

٨٥

سمت امرءا بالعرف ثم اطرحته * ومن افضل الاشيا رب الصنائع
وقال محمود بن داود الاصبهاني
بدات بنعمى اوجبت لي حرمة * عليك فعد بالفضل والعود احمد
والسبب الثامن المحبة التي تورثها المحبوب على ماله
فلا يضن عليه بمرغوب فيه ولا يبخس عليه بمطلوب اللذة التي عنده
احظى والى نفسه اشهى لان محبوبها الى النفس الى محبوبها اسوق
والى ما يليه اسبق قال الشاعر
وما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى * الى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل
وهذا وان دخل في اقسام العطا فخارج عن حد السخا وهكذا
الخامس والسادس من هذه الاسباب وانما ذكرناها لحصر لها تحت
اقسام العطا السبب التاسع وليس بسبب ان يفعل ذلك لغير
ما سبب دعا انما هي سجيه قد فطر عليها وشيمه قد طبع لها فلا
يميز بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال
الشاعر ليس يعطيك للرجاء ولا الخوف * ولكن يلذ طعم العطاء
وقد اختلف الناس في مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخا
فيحمد ام خارجا عنه فيذم فقال قوم هذا هو السخي طبعا
والجواد كرما وهو احق من كان به ممدوحا واليه منسوبا
قالوا والتمييز بمنظر البخل والبذل بسبب الجا والعوض وقال
ابو تمام
من غير ما سبب وفي كفى سببا * للجود ان يجود بلا سبب
قال الحسن بن سهل اذا لم اعط الا لاستحقاق فكاني ما

كذا الحق

اعطيت الاعز بها وقال الشرف في السرف فقيل له لا خير في السرف فقال ولا سرف في الخير وقال الفضل بن سهل العجب لمن يرجو

من فوقه كيف يحرم من دونه وقال بشار

وما الناس الا صاحباك فمنهم * سخي ومغلول اليدين من البخل

فسامح بدنيا ما امكنتك فانها * تقل وتثري والفواضل في شغل

وقال اخرون هذا خارج من السخا المحمود الى السرف

والتبذير المذموم لان العطا اذا كان لغير سبب لان المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فاذا اعطى غير المستحق فقد يمنع مستحقا وما يناله من الذم بمنع المستحق اكثر مما يناله من الحمد باعطا غير المستحق وحسبك ذما بمن كانت افعاله تصدر عن غير تمييز وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا فنهى عن بسطها سرفا كما نهى عن قبضها بخلا فدل على استوا الامرين ذما وعلى انتفائهما مدحا وقال الشاعر

وكان المال ياتينا فكنا * نبذره وليس لنا عقول

فلما ان تولى المال عنا * عقلنا حين ليس لنا فضول

قالوا ولان العطا والمنع اذا كانا لغير علة افضيا الى ذم الممنوع وقلة شكر المعطى اما الممنوع فلانه قد فضل عليه من ساواه واما المعطى فلانه وجد ذلك اتفاقا وربما امل بالاتفاق اضعافا فصار ذلك مفضيا الى اجتلاب الذم واحباط الشكر وليس فيما افضى

الى واحد منهما خير يرتجى وهو جدير ان يكون شرا يتقى ولمثل ذلك قيل منع الجميع ارضى للجميع وعطا يكون المنع ارضى منه

خسران

مبين فاما اذا كان البذل والعطا عن سؤال وطلب فشروطه معتبرة من وجهين احدهما في السائل والاخر في المسؤول فاما ما كان معتبرا في السائل فثلثة شروط فالشرط الاول ان يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فان كان لضرورة ارتفع عنه الحرج وسقط عنه اللوم قال بعض الحكما الضرورة توقح الصورة وقال بعض الشعرا

وقال الكميت

الا قبح الله الضرورة انها * تكلف اعلى الخلق ادنى الخلائق

ولله درّ الاتساع فانه * يبين فضل السبق من غير سابق

اذا لم يكن الا الاسنة مركب * فلا راي للمضطر الا ركوبها

فاذا ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو اولى الامرين ان يكون وان جاز ان لا يكون فالسنن المسامحة تطلب الحاجة وتسمح في الطلب وتراعي ما استقام به الحال وانتظم به الامر وان نالت بذله ولحق وهن وتناول صاحبها قول البحتري

وربما كان مكروه الامور الى * محبوبها سببا ما مثله سبب

والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعي النزاهة وتحمل من الضر ما احتملت ومن الشدة ما اطاقت فيبقى تحملها ويبقى ومن نصونها فيكون كما قال الشاعر

قد يكتسي المرء خز الثياب * ومن دونها حالة مضنية

كما يكتسي خده حمرة * ...

فعلتها وجمع ابل

ولا يرى أن يتدنس بمطالب الشؤم ومطالع اللؤم فإن من البهائم الوحشية ما يأبى ذلك ويأنف منه

وليس الليث من جوع بغاد • على جيف بجانبها كلاب

فكيف بالانسان الفاضل الذي هو اكرم الحيوان جنسا واشرفه فما أقبح به ان يرى لوحشي البهائم عليه فضلا وقد قال الشاعر

على كل حال يأكل المرء زاده • على البؤس والضراء والحدثان

والفضل في مثل هذا ما قيل لبعض الزهاد لو سألت جارك لأعطاك فقال والله ما أسأل الدنيا من يملكها فكيف من لا يملكها ووصف بعض الشعراء قوما فقال

اذا افتقروا عضوا على الفقر حسبة • وان أيسروا عادوا سراعا الى الفقر

فأما أن يسأل من غير ضرورة مست ولا حاجة دعت فذلك صريح اللؤم ومحض الدناءة قلما يجد مثله ملحوظا او ممولا محظوظا لان الحرمان قاده الى اضيق الارزاق واللؤم قاده الى اخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ماء الا اراقه ولا ذل الا اذاقه وقال عبد الصمد لابي تمام

انت بين اثنتين تبرز للنا • س وكلتاهما بوجه مذال
لست تنفك طالبا لوصال • من حبيب او طالبا لنوال
اي ماء لحر وجهك يبقى • بين ذل الهوى وذل السؤال

ولو استقبح العار وانف من الاذلال لوجد عند السؤال مكتسبا

وقال

وهم لفضل المال اولاد علة • وان كان محضا في العشيرة مخولا
اجلك قوم حين صرت الى الغنى • وكل غني في العيون جليل
وليس الغنى الا غنى زين الفتى • عشية يقري او غداة ينيل

وقد اختلفت اقوال الناس في تفضيل الغنى والفقر مع اتفاقهم ان ما احوج من الفقر مكروه وما ابطر من الغنى مذموم فذهب بعضهم الى تفضيل الغنى على الفقر لان الغني مقتدر والفقير عاجز والقدرة افضل من العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب اخرون الى تفضيل الفقر على الغنى لان الفقير تارك والغني ملابس وترك الدنيا افضل من ملابستها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة وذهب اخرون الى تفضيل التوسط بين الامرين بان يخرج عن حد الفقر الى ادنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الامرين ويسلم من مذمة الحالين وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وان خيار الامور اوساطها وقد مضى من شواهد كل فريق في موضعه ما اغنى عن اعادته والسبب الثالث ان همي يطلب الزيادة ويقتني الاموال ليدخرها لولده ويخلفها على ورثته مع شدة ضنه على نفسه وكفه عن صرف ذلك في حقه اشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب فهذا اشقى بجمعها ما جده بقدرها فقد استحق اللوم واستوجب الذم من وجوه لا تخفى على ذي لب منها سوء ظنه بخالقه في انه لا يرزقهم

الامن جهته وقد قيل قتل القنوط صاحبه وفي حسن الظن
بالله تعالى راحة القلوب وقال عبد الحميد كيف تبقي على حالك
والدهر على احالتك ومنها الثقه ببقاء ذلك على ولده
مع نوائب الزمان ومصائبه وقد قيل الدهر حسود لا يأتي
على شيء الا غيره وقيل في منثور الحكم المال ملول وقال
بعض الحكما الدنيا ان بقيت لك لم تبق لها ومنها ما حرم
من منافع ماله وسلب من وفور حاله وقد قيل انما مالك لك
او للوارث او للجائحة فلا تكن اشقى الثلاثه وقال عبد الحميد
اطرح كواذب املك وكن وارث مالك ومنها ما لحقه من شقا
جمعه وناله من عنا كده حتى صار ساعيا محروما وجاهدا معروما
وقد قيل رب مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم
هو شفاؤه وقال الشاعر
ومن كلفته النفس فوق كفافها • فما ينقضي حتى الممات عناؤه
ومنها ما يواخذ به من وزره واثامه ويحاسب عليه من
تبعاته واجرامه كما حكي ان هشام بن عبد الملك لما ثقل
بكى عليه ولده فقال لهم جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه
بالبكا وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب ما اسوء حال
هشام ان لم يغفر الله له فاخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال
تمتع بمالك قبل الممات • والا فلا مال ان انت متا
شقيت به ثم خلفته • لغيرك بعدا وسحقا ومقتا

فجادوا عليك بزور البكا • وجدت لهم بالذي قد جمعتا
وارهنتهم كل ما في يديك • وخلوك رهنا بما قد كسبتا
وقد روي ان العباس بن عبد المطلب رحمة الله عليه جا الى
النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ولني فقال له النبي صلى الله عليه وسلم
يا عباس يا عم النبي قليل يكفيك خير من كثير يرديك يا عباس
يا عم النبي نفس تنجيها خير من امارة لا تحصيها يا عباس يا عم
النبي ان الامارة اولها ندامه واخرها خزي يوم القيامه فقال
يا رسول الله الامن عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف
تعدلون مع الاقارب وقال رجل للحسن البصري اني اخاف
الموت واكرهه قال انك خلفت مالك ولو قدمته لسرك اللحاق
به وقيل في منثور الحكم كثرة مال الميت يعزي ورثته عنه
فاخذ هذا المعنى ابن الرومي فقال
بقيت مالك ميراثا لوارثه • فليت شعري ما ابقى لك المال
القوم بعدك في حال تسرهم • فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكا فما يبكيك من احد • واستحكم القول في الميراث والقال
وكفتهم عنك دنيا اقبلت لهم • وادبرت عنك والايام احوال
والسبب الرابع ان يجمع المال ويطلب المكاثرة استجلالا لجمعه وشغفا باحتجابه فهذا اسوء الناس حالا
فيه واشدهم حرمانا له قد توجهت اليه ذمائم الملاوم حتى
صار وبالا عليه ومن ام له قال الله تعالى والذين يكنزون الذهب

والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم قال
النبي صلى الله عليه وسلم تباً للذهب تباً للفضة فشق ذلك على اصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا واي مال نتخذ قال عمر انا اعلم لكم
ذلك فقال يا رسول الله ان اصحابك قد شق عليهم وقالوا
اي مال نتخذ فقال لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مؤمنة
تعين احدكم على دينه وروى شهر بن حوشب عن ابي امامة قال
مات رجلان من اهل الصفة فوجد في مئزرهما ديناران فقال
النبي صلى الله عليه وسلم كيتان وانما ذكر ذلك فيهما وان كان قد مات
في عهده من ترك اموالا جمة واحوالا ضخمة فلم يكن منه فيهم ما
كان في هذين لانهما تظاهرا بالقناعة واحتجنا ما ليس لهما اليه
حاجة فصار ما احتجناه وزرا عليهما وعقابا لهما وقد قال الشاعر

اذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندى • فانت اذا والمقترون سواء •
على ان في الاموال يوما تباعة • على اهلها والمقترون براء •

وانشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه •

ان الذي رزق اليسار فلم يصب • حمدا ولا اجرا لغير موفق •
والجد يدني كل شيء شاسع • والجد يفتح كل باب مغلق •
واحق خلق الله بالهم امرؤ • ذو همة يبلى بعيش ضيق •
ومن الدليل على القضاء وكونه • بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق •

وآفة من بلي بالجمع والاستكثار ومني بالامساك والادخار
حتى انصرف عن رشده فغوي وانحرف عن سنن قصده فهوي

ان يستولي عليه حب المال وبعد الامل فيبعثه حب المال على
الحرص في طلبه ويدعوه بعد الامل على الشح به والحرص والشح
اصلا كل ذم وسببا كل لوم لان الشح يمنع من اداء الحقوق
ويبعث على القطيعة والعقوق ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم
شر ما اعطي العبد شح هالع وجبن خالع وقال بعض الحكما
الغني البخيل كالقوي الجبان واما الحرص فيسلب فضائل
النفس لاستيلائه عليها ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها
ويبعث على التورط في الشبهات لقلة تحرزه منها وهذه ثلاث خصال
هي جامعات الرذائل وسالبات الفضائل مع ان الحريص لا
يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى الاذلال لنفسه واسخاط
خالقه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحريص الجاهد والقنيع
الزاهد يستويان اكلهما غير منتقص منه شيئا فعلام التهافت
في النار وقال بعض الحكما الحرص مفسدة للدين
والمروءة والله ما عرفت من وجه رجل حرصا فرايت ان فيها
مصطنعا وقال اخر الحريص اسير مهانة لا يفك اسره
وقال بعض البلغا المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة والارزاق
والارزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمكالبة فذلل للمقادير
نفسك واعلم بانك غير نائل بالحرص الا حظك وقال بعض
الادبا رب حظ ادركه غير طالبه ودر احرزه غير جالبه
وانشدني بعض اهل الادب لمحمد بن حازم •

يا أسير الطمع الكا ... ذب في غل الهوان
ان عز اليأس خير ... لك من ذل الاماني
تامح الدهر اذا عز ... ونحن صفو الزمان
ت بما أعدمه و الحرص ... وأترك ذو التواني

وليس للحريص غايه مقصوده يقف عليها عندها ولا نهايه محدوده
يقنع بها لانه ان وصل بالحرص الى ما امل اغراه ذلك زيادة الحرص
والامل وان لم يصل نزي اضاعة الغنى لوما والصبر عليه حزما
وضاق لما اسلف من عنايه اقوى رجا وابسط املا وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يشيب ابن ادم ويبقى منه خصلتان
الحرص والامل وقيل للمسيح عليه السلام ما بال المشايخ احرص
على الدنيا من الشباب قال لانهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه
الشباب ولو صدق الحريص نفسه واستنصح عقله لعلم ان من
تمام السعاده وحسن التوفيق الرضى بالقضاء والقناعه بالقسم و
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقتصد واتقي الطلب فان ما رزقتموه
اشد طلبا منكم له وما حرمتموه فلن تنالوه ولو حرصتم وروي أن
جبريل عليه السلام هبط على النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقتصد فقال
ان الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول لك اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم
ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا
لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى فأمر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا
فنادى من لم يتادب بادب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات

وقيل مكتوب في بعض الكتب ردوا ابصاركم عليكم فان
لكم فيها شغلا وقال مجاهد في قوله تعالى فلنحيينه حيوة
طيبه قال بالقناعه وقال اكثم بن صيفي من باع الحرص
بالقناعه ظفر بالغنى والثروه وقال بعض السلف قد يخيب
الجاهد الساعي ويظفر الوادع الهادي واخذه البحتري فقال

لم ألق مقدورا على استحقاقه ... في الحظ اما ناقصا او زائدا
وعجبت للمجدود يحرم ناصبا ... كلفا وللمحدود يغنم قاعدا
ما خطب من حرم الارادة وادعا ... خطب الذي حرم الارادة جاهدا

وقال بعض الحكما ان من قنع كان غنيا وان كان مقترا
ومن لم يقنع كان فقيرا وان كان مكثرا وقال بعض البلغا
اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعه واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعه
فمن اطاع الله عز وجل نصره ومن لزم القناعه زال فقره وقال
بعض الادبا القناعه عز المعسر والصدقه حرز الموسر
وقال بعض الشعرا

اني أرى من له قنوع ... يدرك ما نال من تمنى
والرزق يأتي بلا عناء ... وربما فات من يعني

والقناعه قد تكون على ثلثه اوجه فالوجه الاول ان يقنع
بالبلغه من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه وهذا
اعلى منازل اهل القناعه وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال اذا شئت ان تحيى غنيا فلا تكن في حالة الا رضيت

به ونها وقال مالك بن دينار ازهد الناس من لم تتجاوز
رغبته من الدنيا بلغته وقال بعض الحكما الرضى بالكفاف
يودي الى العفاف وقال بعض الادبا رب ضيق افضل من
سعة وعنا خير من دعة وأنشدني بعض اهل الادب
وذكر انه لعلي رضي الله عنه

افادتني القناعة كل عز • واي غنى اعز من القناعه •
وصيرها لنفسك راس مال • وصير بعدها التقوى بضاعه •
تحز ربحين تغنى عن بخيل • وتنعم في الجنان بصبر ساعه •

والوجه الثاني ان تنتهي به القناعة الى الكفاية وتحذف
الفضول الزايده وهذه اوسط الاحوال المقتنع وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من عبد الا وبينه وبين رزقه
حجاب فان قنع واقتصد اتاه رزقه وان هتك الحجاب لم يزد
في رزقه وقال بعض الحكما طلب ما فوق الكفاف اسراف
وقال بعض البلغا من رضي بالمقدور قنع بالميسور
وقال البحتري

تطلب الاكثر في الدنيا وقد • تبلغ الحاجة منها بالاقل •

وانشدت لابرهيم بن المدبر

ان القناعة والعفاف • ليغنيان عن الغنى •
فاذا صبرت عن المنى • فاشكر فقد نلت المنى •

والوجه الثالث ان ينتهي به القناعة الى الوقوف على

ما سنح فلا يكره ما اتاه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وان
كان يسيرا وهذه الحال ادنى منازل اهل القناعة لانها
مشتركة بين رغبة ورهبة أما الرغبة فلانه لا يكره الزيادة
على الكفاف اذا سنحت واما الرهبة فلانه لا يطلب المتعذر عن
نقصان المادة اذا تعذرت وفي مثل ذلك قال ذو النون من كانت
قناعته سمينة طابت له كل مرقة وقد روى الحسن عن ابيه
عن جده عليهم السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دول
فما كان لك منها اتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه
بقوة ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه ومن رضي بما رزقه
الله تعالى قرت عينه وقال ابو حازم الاعرج وجدت
الدنيا شيئين شيئا لي لن اعجله قبل اجله ولو طلبته بقوة السماوات
والارض وشيئا هو لغيري وذلك مما لم انله فيما مضى ولا اناله
فيما بقي يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني ففي
اي هذين افني عمري واهلك نفسي وقال ابو تمام الطائي

في الاصل المتعذر

لا تاخذني بالزمان فليس لي • تبعا ولست على الزمان كفيلا •
من زاحف الايام ثم عبى لها • غير القناعة لم يزل مفلولا •
من كان يرعى عزمه وهمومه • روض الاماني لم يزل مهزولا •
لو جاز سلطان القنوع وحكمه • في الخلق ما كان القليل قليلا •
الرزق لا تكمد عليه فانه • ياتي ولم تبعث اليه رسولا •

وانشدني بعض اهل الادب لابن الرومي •

جرى قلم القضا بما يكون ... فسيان التحرك والسكون
جنون منك ان تسعى لرزق ... ويرزق في غشاوته الجنين

ونحن نسأل الله اكرم مسئول واكرم مأمول ان يحسن التوفيق فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع استكفافا لتبعات الثروة ومواثقات الشهوة وروى شريك بن ابي بكر عن عمامه واجد اده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير امتي الذين لم يعطوا حتى يبطروا ولم يقتر عليهم حتى يسالوا وقال ابو تمام الطائي

عندي من الايام ما لو انه ... اضحى بشارب مرقد ما غمضا
لا تطلبن الرزق بعد شماسه ... فتروم منه منبعا اذا ما غيضا
ما عوض الصبر امرؤ الا رأى ... ما فاته دون الذي قد عوضا

باب ادب النفس

اعلم ان النفس مجبولة على شيم مهملة واخلاق مرسلة لا يستغني لمحمودها عن التأديب ولا يكتفى بالمرضي منها عن التهذيب لان لمحمودها اضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فان اهمل تاديبها تفويضا الى العقل وتوكلا على ان تنقاد الى الاحسن بالطبع اعدمه التفويض درك المجتهدين واعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الادب عاطلا وفي صورة الجهل داخلا لان اكثر الادب مكتسب بالتجربة او مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما وذكي الطبع اليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الادب لكان انبياء الله عن الادب مستغنين وبعقولهم مستكفين وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بعثت لأتمم مكارم الاخلاق وقيل لعيسى عليه السلام من ادبك فقال ما ادبني احد رايت جهل الجاهل فاجتنبته وقال علي كرم الله وجهه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم فحسب الرجل ان يتصل من الله بخلق منها وقال اردشير بن بابك من فضيلة الادب انه ممدوح ومتزين به في كل مكان وباق ذكره على ايام الزمان وقال مهبود يشبه العالم الشريف العديم الادب بالبنيان الخراب الذي كلما علا سمكه كان اشد لوحشته وبالنهر اليابس الذي كلما كان اعرض واعمق كان اشد لوعورته وبالارض الجيدة المعطلة التي كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافا وصار للهوام مسكنا وقال ابن المقفع ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب باحوج منا الى الادب الذي هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر ان تطلع زهرتها ونضارتها الا بالماء الذي يعود اليها من مستودعها وحكى الاصمعي ان اعرابيا قال

الحمد لله الذي

لابنه يا بني الادب دعامة ايدك الله بها العقل الالباب وحلية زين بها عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغني وان صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته كما لا تستغني الارض وان عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها وقال بعض الحكما الادب صورة العقل فصور عقلك كيف شئت وقال اخر العقل بلا ادب كالشجر العاقر الحائل ومع الادب كالشجر المثمر وقيل الادب احد المنصبين وقال بعض البلغا الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والنسب لان من ساء ادبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل اصله وقال بعض الادبا ذك قلبك بالادب كما تذكى النار بالحطب واتخذ الادب غنما والحرص عليه حظا يرجك راغب ويخف صولتك راهب ويؤمل نفعك ويرجى عدلك وقال بعض العلما الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة وقال بعض الفصحا الادب يستر قبيح النسب وقال بعض الشعرا

فما خلق الله مثل العقول • ولا اكتسب الناس مثل الادب
وما كرم المرء الا التقى • وما حسب المرء الا النسب
وفي العلم زين لاهل الحجى • وآفة ذي الحلم طيش الغضب

وانشد الاصمعي

ان يكن العقل مولودا فلست ارى • ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب
اني رايتهما كالماء مختلطا • بالترب تظهر عنه زهرة العشب
وكل من اخطاته في موالده • غريزة العقل حاكى البهم في النسب

فالتادب يلزم من وجهين احدهما ما لزم الوالد للولد في صغره

والثاني ما لزم الانسان في نفسه عند نشئه وكبره فاما الادب اللازم للاب فهو ان ياخذ ولده بمبادي الادب ليانس بها وينشا عليها فيسهل عليه قبولها في الصغر الكبير لاستيناسه بمبادئها في الصغر لان نشأ الصغير على الشي يجعله متطبعا به ومن اغفل في الصغر كان تاديبه في الكبر عسيرا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما نحل والد ولده افضل من ادب حسن يفيده اياه او جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه وقال بعض الحكما بادروا بتاديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق البال وقال بعض الشعرا

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت • ولا تلين اذا قومت من الخشب
قد ينفع الادب الاحداث في صغر • وليس ينفع في ذي الشيبة الادب

وقال اخر

ينشو الصغير على ما كان والده • ان العروق عليها ينبت الشجر

واما الادب اللازم للانسان عند نشئه وكبره فادبان ادب مواضعة واصطلاح وادب رياضة واستصلاح فاما ادب المواضعة والاصطلاح فيؤخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلا واتفق عليه استحسان الادبا وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى ان الانسان الان اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبا

للادب مستوجبا الذم لان فراق المالوف في العادة ومجانبة ما
صار متفقا عليه بالمواضعة مفض الى استحقاق الذم بالعقل
مالم تكن مخالفته عليه ظاهرة ومعنى حادثا وقد كان جائزا
في العقل ان يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه
حسنا ويرون ما سواه قبيحا فصار هذا مشاركا لما وجب بالعقل
من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفا له من حيث انه كان جائزا
في العقل ان يوضع على خلافه **واما** ادب الرياضة والاستصلاح
فهو ما كان محمولا على حال لا يجوز في العقل ان يكون بخلافها
ولا ان يختلف العقلا في صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله
بالعقل مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط وللنفس على ما تاتي
من ذلك شاهد الهمها الله ارشادا لها قال الله تعالى فالهمها
فجورها وتقواها **قال** ابن عباس بين لها ما تاتي من الخير وتذر
من الشر وسنذكر تعليل كل شي في موضعه فانه اولى به
واحق به **فاول** مقدمات ادب الرياضة والاستصلاح ان لا
يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمته ومساوي
اخلاقه لان النفوس بالشهوات امرة وعن الرشد زاجرة وكذا
قال الله تعالى ان النفس لامارة بالسو **قال** النبي صلى الله عليه وسلم
اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ثم اهلك ثم عيالك وسمعت
اعرابية رجلا فقالت كفاك الله كل عدو لك الا نفسك فاخذه
بعض الشعرا **فقال**

قلبي الى ما ضرني داعي * يكثر اسقامي واوجاعي *
كيف احتراسي من عدوي اذا * كان عدوي بين اضلاعي *
واذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها
وتحكيمها داع الى سلاطتها وفساد الاخلاق بها واذا صرف عنها
حسن الظن وتوهمها بما هي عليه من التسويف والمكر فان
بطاعتها راجحا عن معصيتها وقد قال عمر بن الخطاب رضه العاجز
من عجز عن سياسة نفسه **قال** بعض الحكما من ساس
نفسه ساد ناسه **فاما** سوء الظن بها فقد اختلف
الناس فيه فمنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد
مناصحتها فان النفس وان كان لها مكر يردي فلها نصح يهدي
فلما كان حسن الظن بها يعمي عن مساويها كان سوء الظن بها
يعمي عن محاسنها ومن عمي عن محاسن نفسه كان كمن عمي عن مساويها
فلم ينف عنها قبيحا ولم يهد اليها حسنا وقد قال الجاحظ في
كتاب البيان يجب ان يكون في التهمة لنفسه معتدلا وفي حسن الظن
بها مقتصدا فانه ان تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها فاودعها
ذلة المظلومين وان تجاوز بها الحق في مقدار حسن الظن اودعها
تهاون الامنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار
من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل **وقال** الاحنف
بن قيس من ظلم نفسه كان لغيره اظلم ومن هدم دينه كان لمجده
اهدم **وذهب** قوم الى ان سوء الظن بها ابلغ في صلا حها

واوفق في اجتهاده فالان للنفس حوزة الا يكون الا بالسخط عليها
وغرورا الا يكشف الا بالتهمة لها لانها محبوبة تحوز ادلالا
وتعز مكرا فان لم يسئ الظن بها غلب عليه حوزها وتموه عليه
غرورها فصار بميسورها قانعا وبالشبه من افعالها راضيا
وقد قالت الحكما من رضي عن نفسه سخط عليه الناس
وقال شاعر

لم ارض عن نفسي مخافة سخطها … ورضى الفتى عن نفسه اغضابها
ولو انني عنها رضيت لقصرت … عما تزيد بفضله ادابها
وتبينت اثار ذاك فاكثرت … عذلي عليه وطال فيه عتابها

وقد استحسن قول ابي تمام الطائي

ويسيء بالاحسان ظنا لا كمن … هو بابنه وبشعره مفتون

فلم يرى واساءة ظنه بالاحسان ذما ولا استقلال عمله لوما
بل راوا ذلك ابلغ في الفضل وابعث على الازدياد فاذا عرف
من نفسه ما يجن وتصور منها ما تكن لم يطاوعها فيما تحب اذا
اذا كان غيا ولا صرف عنها ما تكره اذا كان رشدا فقد ملكها
بعد ان كان في ملكها وغلبها بعد أن كان في غلبتها وقد
روى ابو حازم عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
الشديد من غلب نفسه وقال عون بن عبد الله اذا عصتك
نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما احبت ولا يغرنك ثنا من جهل امرك
قال بعض البلغا من قوي على نفسه تناهى في القوة

ومن صبر عن شهوته بالغ في المروة فحينئذ ياخذ نفسه عند
معرفة ما اكنت وخبرة ما اجنت بتقويم علاجها واصلاح فاسدها
فقد روي عن عائشة انها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله
متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه ثم يراعي
منها ما صلح واستقام من زيغ يحدث عن اغفال او ميل يكون
عن اهمال ليتم له الصلاح وتستديم له الاستقامة فان المغفل
بعد المعاناة ضايع والمهمل بعد المراعاة زايغ وسنذكر
من احوال ادب الرياضة والاستصلاح فصولا تحتوي على ما
يلزم مراعاته من الاخلاق ويجب معاناته من الادب وهي
ستة فصول متفرعة فالفصل الاول منها مجانبة
الكبر والاعجاب لانهما يسلبان الفضايل ويكسبان الرذايل
وليس لمن استوليا عليه اصغا لنصح ولا قبول لتاديب لان الكبر
يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه
عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتا
دبين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بابانة ما يكسبانه
من ذم ويوجبانه من لوم فنقول اما الكبر فيكسب المقت
ويلهي عن التألف ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك
سوا عن استقصا ذمه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم
لعمه العباس انهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب
منهما وقال اردشير بن بابك ما الكبر الا فضل حمق

لم يدت صاحبه اين يذهب به فيصرفه الى الكبر وما اشبه ما قال
بالحق حكى ان مُطرف بن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب بن
ابي صفرة وعليه حُلة يسحبها ويمشي الخيلا فقال يا ابا عبد الله ما
هذه المشيه التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب اُوما تعرفني
قال بلى اُعرفك اوّلك نطفه مذرة واخرك جيفه قذرة وحشوك
فيما بين ذلك بول وعذرة فاخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرا
فقال عجبت من مُعجب بصورته ٭ وكان بالامس نطفةً مذره ٭
وفي غدٍ بعد حسن هيئته ٭ يصير في اللحد جيفةٌ قذرة ٭
وهو على تيهه ونخوته ٭ ما بين ثوبيه يحمل العذرة ٭
وقد كان المهلب افضل من ان يخدع نفسه بهذا الجواب ولكنها زلة
من زلاتِ الاشر مال وخطيئه من خطايا الادلال فامّا الحمق
الصريح والجهل القبيح فهو ما حكي عن نافع بن جبير بن مطعم
انه جلس في حلقة العلا بن عبد الرحمن الجرمي وهو يقرئ الناس فلما
فرغ قال اتدرون لم جلست اليكم قالوا جلست لتستمع قال لا ولكني
اردت ان اتواضع لله بالجلوس اليكم فهل يرجى من مثل هذا
فضل او ينفع فيه عقل وقد قال ابن المعتز لما عرف اهل
النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا
ويرفع حقيرا وليس بفاعل **واما الاعجاب** فيخفي
المحاسن ويظهر المساوي ويكسب المذام ويصد عن الفضائل
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العجب ياكل الحسنات

١

كما تاكل النار الحطب وقال علي بن ابي طالب الاعجاب ضد الصواب
وافة الالباب وقال بزرجمهر النعمة التي لا يحسد عليها صاحبها
التواضع والبلا الذي لا يرحم صاحبه العجب وقال بعض الحكما
عجب المرء بنفسه احد حساد عقله وليس لما يكسبه الكبر من المقت
حد واذا انتهى اليه العجب من الجهل غايه حتى انه ليطفئ من المحاسن
ما انتشر ويسلب من الفضائل ما اشتهر وناهيك بسيئه تحبط كل
حسنه وبمذمه تهدم كل فضيله مع ما تثيره من حنق وتجلبه من حقد
حكى عمر بن حصين قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك
بالعراق قال خير منزل لو كان الله بلغني اربعة فتقربت اليه بدماهم
قيل ومن هم قال مقاتل بن مسمع ولي سجستان فاتاه الناس فاعطاهم
الاموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط له الناس ارديتهم فمشى
عليها وقال لرجل ما شاه لمثل هذا فليعمل العاملون وعبيد الله بن
زياد بن ظبيان التيمي حزب اهل البصرة امر فخطب خطبة اوجز فيها
فنادى الناس من اعراض المسجد كثر الله فينا مثلك فقال لقد كلفتم
الله شططا ومعبد بن زرارة كان ذات يوم جالسا في طريق فمرت
به امراة فقالت يا عبد الله كيف الطريق الى موضع كذا فقال يا هنتاه مثلي
يكون من عبيد الله وابو سماك الاسدي اضل راحلته فالتمسها الناس
فلم يجدوها فقال والله لئن لم يردد علي راحلتي لا صليت له ابدا فالتمسها
الناس حتى وجدوها فقالوا له قد رد الله راحلتك فصل فقال ان يميني
يمين مصر فانظر الى هولا كيف افضى بهم العجب الى حمق صاروا به

١

نكالاً في الاولين ومثلاً في الاخرين ولو تصور المعجب والمتكبر ما
فطر عليه من جبله وبلي به من مهنته لخفض جناح نفسه
واستبدل لينا من عتوه وسكونا من تهوره قال الاحنف
بن قيس عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد
وصف الانسان بعض الشعرا فقال

يا مظهر الكبر اعجابا بصورته ⁕ انظر خلاك فان النتن تثريب
لو فكر الناس فيما في بطونهم ⁕ ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل في ابن ادم مثل راس مكرمة ⁕ وهو بخمس من الاقذا مضروب
انف تسيل واذن ريحها سهك ⁕ والعين مرمصة والثغر ملعوب
يا ابن التراب وماكول التراب غدا ⁕ اقصر فانك ماكول ومشروب

واحق من كان للكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل في الدنيا قدره
وعظم فيها خطره لانه قد يستقل بعالي همته كل كثير ويستصغر
معها كل كبير وقد قال محمد بن علي لا ينبغي للشريف ان يرى
شيا من الدنيا لنفسه خطرا فيكون تايها وقال ابن السماك
لعيسى بن موسى تواضعك في شرفك اشرف لك من شرفك وكان
يقال اسمان متضادان لمعنى واحد التواضع والشرف وللكبر
اسباب فمن اقوى اسبابه علو اليد ونفاذ الامر وقلة مخالطة
الاكفا حكي ان قوما مشوا خلف علي بن ابي طالب رضي الله عنه
فقال ابعدوا عني خفق نعالكم فانها مفسدة لقلوب نوكى الرجال
ومشوا خلف ابن مسعود فقال ارجعوا فانها ذلة التابع وفتنة

للمتبوع

٩٧

وقال عبد الله بن الزبير
ولا يستوي في الحكم عبدان واصل ⁕ وعبد لارحام القطيعة قاطع
واما المظاهرة وهي الثالث من اسباب الالفة فلانها استمرار
مواصلة وتمازج مودة ~~مؤ~~ [مقاربة] اصله صدرا عن رغبة واختيار وانعقدا
عن خبرة وايثار فاجتمع فيها اسباب الالفة ومواد
المظاهرة قال الله تعالى ومن اياته ان خلق لكم من انفسكم
ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة يعني بالمودة
المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من اوكد اسباب
الالفة تاويل اخر قال الحسن البصري ان المودة النكاح
والرحمة الولد وقال تعالى والله جعل لكم من انفسكم ازواجا
وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة واختلف المفسرون
في الحفدة فقال عبد الله بن مسعود هم اختان الرجل على بناته
وقال عبد الله بن عباس هم ولد الرجل وولد ولده وحكي
عنه انهم بنو امراة الرجل من غيره وسموا حفدة لتحفدهم في
الخدمه وسرعتهم في العمل ومنه قولهم في القنوت واليك نسعى
ونحفد اي نسرع الى العمل بطاعتك ولم تزل العرب
تتجنب البعدا وتتالف الاعدا بالمصاهرة حتى يرجع النافر موافقا
ويصير العدو موالياً بل يصير الصهر بين الاثنين الفة بين
القبيلتين وموالاة [وموالاة] بين العشيرتين حكي عن خالد بن يزيد بن
معاويه انه قال كان ابغض خلق الله الي ال الزبير حتى تزوجت

فيهم رعله فصار ما أحب خلق الله الي وفيها يقول

أُحِبّ بني العوام طُرًّا لأجلها ... ومن أجلها أحببت اخوالها كلبا
فان تسلمي نسلم وان تتنصّري ... يخطّ رجال بين اعينهم صلبا

فلذلك قيل المرء على دين زوجته لما يستقره الميل اليها من المتابعه ويجدبه الحب لها من الموافقه فلا يجد الى المخالفه سبيلا ولا الى المباينه والمشاقه طريقا واذا كانت المصاهرة بالنكاح بهذه المنزله من الالفة فقد يبتغى بعقدها احد خمسة اوجه وهي المال والجمال والدين والالفه والتعفف وقد روى سعيد عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تنكح المراة لاربع لمالها ولجمالها ولحسبها ونسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت يداك فان كان عقد النكاح لاجل المال وكان اقوى الدواعي اليه اذا هو المنكوح فان اقترن بذلك احد الاسباب الباعثه على الايتلاف جاز ان ملبث العقد وتدوم الالفه وان تجرد عن غيره من الاسباب وعرى عما سواه من المواد فاخلق بالعقد أن ينحل وبالالفه أن تزول ولا سيما اذا غلب الطمع وقل الوفا لان المال ان وصل اليه فقد نقضى منه الالفة به وقد قيل من ودك لشيء ولى مع انقضائه فان اعوز الوصول اليه وتعذرت القدرة عليه اعقب ذلك استهانة الايس بعد شدة الامل فحدثت منه عداوة الخايب بعد استحكام الطمع فصارت الوصله فرقه والالفه عداوة وقد قيل من ودك طمعا فيك يبغضك اذا أيس منك

[redacted]

بل هم من الاعداء المحذورين وانما يداجون بالمودة امتكانا لشرهم وتحرزا من مكاشفتهم فلا تطوى عداد الاخوان بالمظاهرة والمساترة وفي الاعداء عند المكاشفه والمجاهرة وقال بعض الحكما مثل العدو الضاحك اليك كالحنظله الخضره اوراقها القاتل مذاقها وقيل في حكم الفرس لاتغترن بمقاربة العدو فانه كالماء ان اطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفائها وقال يزيد بن الحكم الثقفي

تكاشرني كرها كانك ناصح ... وعينك تبدي ان صدرك لي دوي
لسانك معسول ونفسك علقم ... وشرك مبسوط وخيرك ملتوي
فليت كفافا كان خيرك كله ... وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوي

فاذا خرج من كان كذلك من عداد الاخوان فهم اصناف الاخوان من كان منهم كالغذاء او كالدواء لان الغذاء قوام النفس وحيوتها والدواء علاجها وصلاحها وافضلهما من كان كالغذاء لان الحاجة اليه اعم واذا تبين ان الاخوان مختلفون وجب ان ينزل كل واحد منهم حيث نزلت به احواله اليه والتقت خلاله وخصاله عليه فمن قويت اسبابه قويت الثقه به وبحسب الثقه به يكون الركون اليه والتعويل عليه وقال الشاعر

ما انت بالسبب الضعيف وانما ... نجح الامور بقوة الاسباب
فاليوم حاجتنا اليك وانما ... يدعى الطبيب لشدة الاوصاب

وقد اختلف مذاهب الناس في اتخاذ الاخوان

فاذا استكملت هذه الخصال في انسان وجب اخاؤه وتعين اصطفاؤه
وبحسب وفورها فيه يجب ان يكون الميل اليه والثقة به وبحسب
ما ترى من غلبة احدها عليه يجعله مستعملا في الخلق الغالب عليه
فان الاخوان على طبقات مختلفة وانحاء متشعبة ولكل واحد
منهم حال يختص بها في المشاركة وثلمة يسدها في الموازرة
والمضافرة وليس تتفق احوال جميعهم على حد واحد لان التباين
في الناس غالب واختلافهم في الشيم ظاهر وقال بعض الحكما
الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره مختلف فاخذ هذا المعنى
منصور بن اسماعيل الفقيه فقال
بنو ادم كالنبت ونبت الارض الوان فمنه شجر الصندل والكافور
والبان ومنه شجر افضل ما يحمل قطران
ومن رام اخوانا تتفق احوال جميعهم رام متعذرا بل
لو اتفقوا لكان ربما وقع به خلل في نظامه اذ ليس الواحد
من الاخوان يمكن الاستقلال به في كل حال ولا المجبولون على
الخلق الواحد يمكن ان يتصرفوا في جميع الاعمال وانما بالاختلاف
يكون الايتلاف وقال بعض الحكما ليس بلبيب من لم يعاشر من
لم يجد بدا من معاشرته وقال المامون الاخوان ثلث طبقات
طبقة كالغذا لا يستغنى عنه وطبقة كالدوا لا يحتاج اليه احيانا
وطبقة كالدا لا يحتاج اليه ابدا ولعمري ان الناس على وضع
لا الى الاخوان وليس من كان منهم كالدا من الاخوان المعدودين

فهو كالصورة الممثلة يروقك حسنها ويخونك نفعها فلا هو
مشكور لنفع غيره ولا هو مذموم لقبيح شره وان كان
بالذم اجدر وفيه قال الشاعر
وانسوا ايام الفتى يوم لا يرى له احد يزري عليه وينكر
غير ان فساد الوقت وتغير اهله يوجب شكر من كان
شره مقطوعا وان كان خيره ممنوعا كما قال المتنبي
انا الذي رمي تورك القبيح به من لو اتاه اكثر الناس احسانا واجمالا
من ينفعن ولا يضرن فهو لئيم كل ومهان مستبذل
قد قطع منه الرغبة وبسط فيه الرهبة فلا خيره يرجى ولا شره
يؤمن وحسبك مهانة برجل يستثقل عند اقلاله ويستقل عند
استقلاله فليس لمثله في الاخا حظ ولا في الوداد نصيب وهو
ممن جعله المامون من دا المامون الاخوان لا من دوابهم
ومن شيمهم لا من غذايهم وقال بعض الحكما شر ما في الكريم
ان يمنعك خيره وخير ما في اللئيم ان يكف عنك شره وقال ابن الرومي
عذرنا النخل في ابدا شوكه يرد به الانامل عن جناه
فما للعوسج الملعون ابدى لنا شوكا بلا ثمر نراه
من ينفعن ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع قد
حاز فضيلتي الابتداء والاكتفا فلا يرى ثقيلا في نايبة ولا يقعد
عن نهضة في معونة فهذا اشرف الاخوان نفسا واكرمهم طبعا
فينبغي لمن اوجده الزمان مثله وقل ان يكون له مثل لانه البر الكريم

والادن الينيمران يثني عليه خنصره ويعض عليه بناجذه
ويكون به اشد هشًا منه بنفايس امواله وسني ذخايره لان
نفع الاخوان عام ونفع الاموال خاص وما كان اعم نفعًا
فهو بالادخار احق وقال ـــــــــــ الفرزدق

مضى اخوك فلا تلقى له خلفًا ۞ والمال بعد ذهاب المال يكتسب

وقال اخر
لكل شيء عدمته عوض ۞ وما لفقد الصديق من عوض

ثم لا ينبغي ان يزهد فيه لخلق او خلقين يكرههما منه اذا رضي
سائر اخلاقه وحمد اكثر شيمه فان اليسير مغفور والكمال
معوز وقد قال الكندي كيف تريد من اخيك صديقًا خلقًا
واحدًا وهو ذو طبايع اربع مع ان نفس الانسان التي هي اخص
النفوس به ومدبرة باختياره وارادته لا تعطيه قيادها في كل ما
يريد ولا تجيب الى طاعته فيما في كل ما يحب فكيف بنفس غيره وحسبك
ان يكون لك من اخيك اكثره وقد قال ابو الدردا معاتبة الاخ خير
من فقده ومن لك باخيك كله فاخذ الشعرا هذا المعنى فقال
ابو العتاهية

أأخي من لك من بني الدنيا بكل اخيك من لك ۞ فاستبق بعضك لا يملك كل من اعطيته كلك

وقال ـــــــــــ ابو تمام الطائي

ما غبن المغبون مثل عقله ۞ من لك يومًا باخيك كله

وقال بعض الحكما طلب الانصاف من قلة الانصاف وقال بعض
البلغا لا يزهدنك في رجل حمدت سيرته وعرفت فضله وفطنت
عقله عيب خفي يحيط به كثرة فضائله او ذنب صغير تستغفر له
قوة وسايله فانك لن تجد ما بقيت مهذبًا لا يكون فيه عيب
ولا يقع منه ذنب واعتبر بنفسك بعد ان لا تراها بعين الرضى
ولا تجري فيها على حكم الهوى فان في اعتبارك بها وفي اختيارك
لها ما يويسك مما تطلب ويعطفك على من يذنب وقال الشاعر

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ۞ كفى المرء نبلًا ان تعد معايبه

وقال ـــــــــــ النابغة

ولست بمستبق اخًا لا تلمه ۞ على شعث اي الرجال المهذب

وليس ينقض هذا القول ما وصفنا من اختياره واختبار الخصال الاربع
فيه لان ما اعوز معفو عنه وهكذا لا ينبغي ان توحشه
فترة يجدها منه ولا ان يسيء به الظن في نبوة تكون منه ما لم
يتحقق تغيره ولم يتيقن تنكره وليصرف ذلك الى فترات النفوس
واستحالات الخواطر فان الانسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التي
هي اخص النفوس به فلا يكون ذلك من عداوة لها ولا ملل منها
وقد قيل في منثور الحكم لا يفسدك الظن على صديق قد اصلحك
اليقين له وقال جعفر بن محمد لابنه يا بني من غضب من اخوانك ثلث
مرات فلم يقل فيك سوءًا فاتخذه لنفسك خلًا وقال الحسن بن وهب
من حقوق المودة اخذ عفو الاخوان والاغضاء عن تقصير ان
كان وقد روي عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى فاصفح الصفح
الجميل قال الرضى بغير عتاب وقال ـــــــــــ ابن الرومي

هم الناس في الدنيا ولابد من قذى   يلم بعين او يكدر مشربا
ومن قلة الانصاف انك تبتغي   المهذب في الدنيا ولست مهذبا

وقال بعض الشعراء

تواصلنا على الأيام باقٍ   ولكن هجرنا مطر الربيع
يروعك صوبه لكن تراه   على علاته داني النزوع
معاذ الله أن نلقى غضابا   سوى دل المطاع على المطيع

وانشد الازدي

لا تنو يسك من صديق نبوة   ينبو الفتى وهو الجواد الخضرم
فاذا نبا فاستبقه وتأنه   حتى يفي به الطباع الاكرم

واما الملول فهو السريع التغير الوشيك التنكر فوداده خطر وإخاؤه غدر لانه لا يبقى على حاله ولا يخلو من استحالة

وقال ابن الرومي في ذلك

اذا انت عاتبت الملول فانما   تخط على صحفٍ من الماء احرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب الم تكن   مودته طبعا فصارت تكلفا

وهو نوعان منهم من يكون ملله استراحة ثم يعود الى المعهود من اخائه فهذا اسلم المللين واقرب الرجلين فيا نج في وقت استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى ويؤوب الى الاخاء وان تقدم المثل ثم بما نظمه الشاعر حيث يقول

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما   عفت منه آثار وجفت مشارعه
فقلت الى ان يرجع الماء عائدا   ويعشب شطاه تموت ضفادعه

لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمته بالظنون

وقال الشاعر

اذا ما حال عهد اخيك يوما   وحاد عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدمه   فان اخا الحفاظ المستديم
فان تك زلة منه تبدت   فلا تبعد عن الخلق الكريم

ومنهم من يكون ملله تركا واطراحا ولا يراجع اخاء ولا ودا ولا يتذكر حفاظا ولا عهدا كما قال الاشجع السلمي

اني رأيت لها مودة اصلها   كالسم تمزجه على الشهد
فاذا اخذت بعهد ذمتها   لعب الصدود بذلك العهد

وهذا اذم الرجلين حالا لان مودته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات وليس الا استدراك الحال معه بالاقلاع قبل المخالطة وحسن المتاركة بعد الورطة كما قال العباس بن الاحنف

تداركت نفسي فعز بينها   وبغضتها فيك آمالها
وما طابت النفس عن سلوة   ولكن حملت عليها لها

وما مثل من هذه حاله الا كما قال ابراهيم بن هرمة

فانك واطراحك وصل سلمى   لأخرى في مودته نكوب
كتاركة بحجلي مستعار   باذنيها فشانهما الثقوب
فأذمت حجلي جارتها اليها   وقد بقيت باذنيها ثقوب

فاذا صفت عنده اخلاق من سبره وتهذبت لديه

اخوال من خبرته واقدم على اصطفايه اخا وعلى اتخاذه
خدنا لن منه حرمت حقوقه ووجبت عليه حرماته فقد
قال عمرو بن مسعدة العبودية عبودية الاخا لا عبودية
الرق وقال بعض الحكما من جاذلك بمودته فقد جعلك
عديل نفسه فاول حقوقه اعتقاد مودته ثم ايناسه
بالانبساط اليه في غير محرم ثم نصحه في السر والعلانيه
ثم تخفيف الاثقال عليه ثم معاونته فيما ينوبه من حادثه او
يناله من نكبه فان من اقبله في الظاهر نفاق وتركه في الشدة
لوم وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير اصحابك
المعين لك على دهرك وشرهم من سعى لك سوق لومه
يا رسول الله اي الاصحاب خير قال الذي اذا ذكرت اعانك
واذا نسيت ذكرك وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه خير
اخوانك من واساك وخير منه من كفاك وكان ابو هريرة
يقول اللهم اني اعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتي الا
لمن نفقة شهوتي وممن ساعدني ساعتي على سروري ساعتي ولا
يفكر في حوادث غدي وقال بعض البلغا عقود المفاد محلوله
وعهوده مدخوله وقال بعض البلغا ما ودك من اهمل ودك
ولا احبك من ابغض حبك وقال بعض الشعرا
وكل اخ عند الهوينا ملاطف ولكنما الاخوان عند الشدايد
وقال صالح بن عبد القدوس

وروى قيس بن حازم ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم
فاخذته رعدة فقال النبي صلى الله عليه وسلم هون عليك فانما انا ابن امراة
كانت تاكل القديد وانما قال ذلك حسما لمواد الكبر وقطعا
لذرايع الاعجاب وكسرا لاشر النفس وتذليلا لسطوة الاستعلا
ومن ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال نادى
الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله واثنى
عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال ايها الناس لقد رايتني
ارعى على خالات لي من بني مخزوم فيقبض لي القبضة من التمر
والزبيب فاظل بيوم واي يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف
والله يا امير المومنين ما زدت على ان قصرت بنفسك فقال له عمر
ويحك يا ابن عوف اني خلوت فحدثتني نفسي فقالت انت امير
المومنين فمن ذا افضل منك فاردت ان اعرفها نفسها وللاعجاب
اسباب فمن اقوى اسبابه كثرة مديح المتقربين واطرا المتملقين
الذين قد جعلوا النفاق مادة ومكسبا والتملق خديعة وملعبا فاذا
وجدوه مقبولا في العقول الضعيفه اغروا اربابها باعتقاد كذبهم
وجعلوا ذلك ذريعة الى الاستهزاء بهم وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه سمع رجلا يزكي رجلا فقال قطعت مطاه لو سمعها ما افلح بعدها
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المدح ذبح وقال ابن المقفع
قابل المدح كمادح نفسه وقال بعض الحكما من رضي ان
يمدح بما ليس فيه فقد امكن الساخر منه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم

تكونوا عيابين ولا تكونوا لعانين ولا متمادحين ولا متماوتين ـه
الاصمعي ان ابا بكر الصديق رض كان اذا مدح قال اللهم
انت اعلم بي من نفسي وانا اعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا
مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تواخذني بما يقولون وقال
اذا الهم ... حسن فعاله فمادحه يهذي وان كان مفصحا
وقد يكون حب المدح بصاحبه الى ان يصير مادح نفسه اما
لتوهمه ان الناس قد غفلوا عن فضله واخلوا بحقه واما
ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والاطراء فيعتقدوا ان قوله حق
متبع وصدق مستمع واما لتلذذ بسماع الثنا وسرور نفسه
بالمدح والاطرا كما يتغنى لنفسه طربا اذا لم يسمع صوتا مطربا
ولا غنا ممتعا ولاجل ذلك كان هو الجهل الصريح والنقص
الفاضح وقال بعض الشعرا
وما شرف ان يمدح المرء نفسه ولكن اعمالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه ولا كل اصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظا ولا كل من ضم الوديعة يصلح
فينبغي للعاقل ان يسترشد اخوان الصدق الذين هم اصفيا
القلوب ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من
مساويه التي طرقه حسن الظن عنها فانهم امكن نظرا واسلم
فكرا ويجعل ما ينبهونه عليه من مساويه محرضا عوضا عن
تصديق المدح فيه وقد روى انس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

انه قال اياكم والتمادح فانه الذبح ان كان احدكم مادحا اخاه لا
محالة فليقل احسب ولا ازكي على الله احدا وقيل فيما انزل الله
من الكتب السالفة عجب لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجب
لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب وقال بعض الشعرا
يا جاهلا غره افراط مادحه لا يغلبن جهل من اطراك علمك بك
اثنى وقال بلا علم احاط به وانت اعلم بالمحصول من ريبك
وهذا امر ينبغي للعاقل ان يضبط نفسه عن ان يستفزها
ويمنعها من تصديق المدح لها فان للنفس ميلا الى حب الثنا
وسماع المدح وقد قال الشاعر
يهوى الثنا مبرز ومقصر حب الثنا طبيعة الانسان
فاذا سامح نفسه في هذه الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل
بها عن الفضائل الممدوحة ولها بها عن المحاسن الممنوحة فصار الظاهر
من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون
الصدق الزم الامرين وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع
فيه مميز وليعلم ان المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع
الاباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو اعرف بحقيقته
وليكن تهمة المادح اغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا
وقل ثنا كان كله حقا ولذلك كره اهل الفضل ان يطلقوا
السنتهم بالثنا والمدح تحرزا من التجوز فيه وتنزها عن التملق
به وقد روي عن مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمدح

انه قال المؤمن مرآة المؤمن اذا رأى فيه عيبا اصلحه وكان
عمر بن الخطاب يقول رحم الله امرأ اهدى الينا مساوينا وقيل
لبعض الحكما اتحب ان تهدى اليك عيوبك قال نعم من ناصح
ومما يقارب هذا القول ما روي عن عمر انه قال لابن عباس
من ترى ان نوليه حمص قال رجلا صحيحا منك صحيحا لك قال فكن
انت ذلك الرجل قال لا ينفعني مع سوء ظني بك وسوء ظنك بي
وقد قيل في منثور الحكم من اظهر عيب نفسه فقد زكاها
فاذا قطع اسباب الكبر وحسم مواد العجب اعتاض بالكبر تواضعا
وبالعجب توددا وذلك من اشرف اوكد اسباب الكرامه واقوى مواد
النعم وابلغ شافع الى القلوب يعطفها على المحبه ويثنيها عن البغضه
وقد قال بعض الحكما من برئ من ثلث نال ثلثا من برئ من الشره
نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال
الكرامة وقال مصعب بن الزبير التواضع مصائد الشرف
وقيل في منثور الحكم من دام تواضعه كثر صديقه وقد
تحدث المنازل والولايات لقوم اخلاقا مذمومه يظهرها سوء
طباعهم ولاخرين فضائل محموده يبعث عليها زكي شيمهم لان لتقلب
الاحوال سكرة يظهر من الاخلاق مكنونها ومن السرائر مخزونها
لاسيما اذا هجمت بغير تدريج وطرقت من غير تاهب وقد
قال بعض الحكما في تقلب الاحوال تعرف جواهر الرجال وقال
الفضل بن سهل من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها ومن كانت

ولايته دون قدره تواضع لها وقال بعض البلغا الناس
في الولايه رجلان رجل يجل عن العمل بفضله ومروته ورجل
يجل بالعمل لدناته ونقصه فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا
وبشرا ومن جل عنه عمله تلبس به تجبرا وكبرا

الفصل الثاني في حسن الخلق

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله اختار لكم الاسلام
دينا فاكرموه بحسن الخلق والسخا فانه لا يكمل الا بهما وقال
الاحنف بن قيس الا اخبركم بادوى الدا قالوا بلى قال الخلق
الدني واللسان البذي وقال بعض الحكما من ساء خلقه
ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة وقال بعض البلغا
الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامه والسيئ
الخلق الناس منه في بلا وهو من نفسه في عنا وقال بعض
الحكما عاشر اهلك باحسن اخلاقك فان الثوا فيهم قليل وقال بعض الشعرا

اذا لم تتسع اخلاق قوم ... تضيق بها الفسيح من البلاد
اذا ما المرء لم يخلق لبيبا ... فليس اللب عن قدم الولاد

فاذا حسنت اخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت
عليه الامور الصعاب ولانت له القلوب الغضاب وقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال حسن الخلق وحسن الجوار يعمران
الديار ويزيدان في الاعمار وقال بعض الحكما

في سعة الاخلاق كنوز الارزاق وسبب ذلك ما ذكرناه
من كثرة الاصفياء المسعدين وقلة الاعداء المجحفين ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم أحبكم إلي أحسنكم اخلاقا الموطئون
اكنافا الذين يألفون ويؤلفون وحسن الخلق ان يكون
سهل العريكة لين الجانب طلق الوجه قليل النفور طيب
الكلمة وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاوصاف
فقال اهل الجنة كل هين لين سهل طلق ولهذا ذكرنا من هذه
الاوصاف حدود مقدرة ومواضع مستحقة كما قال الشاعر

أصفح وأكدر احيانا لمختبري * وليس مستحسنا صفو بلا كدر

وليس يريد الكدر الذي هو البذا وشراسة الخلق فان ذلك
ذم لا يستحسن وعيب لا يرتضى وانما يريد الكف والانقباض في
موضع يلام فيه المساعد ويذم فيه الموافق واذا كانت
لمحاسن الاخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فان تجاوز
بها الحد صارت تملقا وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملق
ذل والنفاق لوم وليس لمن وسم بهما ود مبرور ولا
اثر مشكور وقد روى حكيم عن جابر بن عبد الله قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي
هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وروى مكحول عن ابي هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لذي الوجهين ان يكون
وجيها عند الله تعالى وقال سعيد بن ابي عروبة لان

يكون لي نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر
وعجز المخبر أحب الي من ان اكون ذا وجهين وذا لسانين وذا
قولين مختلفين وقال الشاعر

خل النفاق لأهله * وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن ترى * الا عدوا او صديقا

وقال ابرهيم بن محمد

وكم من صديق وده بلسانه * خؤون بظهر الغيب لا يتذمم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا * وفي غيبه إن غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوطا الى الشراسة والبذا
لاسباب عارضة وامور طارية تجعل اللين خشونة والوطا
غلظة والطلاقة عبوسا فمن أسباب ذلك الولاية
التي قد تحدث في الاخلاق تغيرا وعلى الخلطاء تنكرا إما من
لؤم طبع واما من ضيق صدر وقد قيل من تاه في ولايته
ذل في عزله وقيل ذل العزل يضحك من تيه الولاية ومنها
العزل فقد يسيء الخلق ويضيق به الصدر اما لشدة أسف او
لقلة صبر حكى حميد الطويل ان عمار بن ياسر عزل عن ولايته
فاشتد ذلك عليه وقال اني وجدتها حلوة الرضاع مرة الفطام
ومنها الغنى فقد تتغير به اخلاق اللئيم بطرا وتسوء
طرائقه أشرا ولذلك قيل من نال استطال وانشد

غضبان يعلم ان المال ساق له * ما لم يسقه له دين ولا خلق

فمن يكن عن كرام الناس يسالني ۝ فاكرم الناس من كانت له ورق

وقال الشاعر

فان تكن الدنيا انالتك ثروة ۝ فاصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر

لقد كشف الاثراء منك خلايقا ۝ من اللوم كانت تحت ثوب من الفقر

وبحسب ما افسد الغنى كذلك يصلحه الفقر كتب قتيبة بن مسلم الى الحجاج ان اهل الشام قد التاثوا عليه فكتب اليه ان اقطع عنهم الارزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا اليه فقالوا اقلنا فكتب الى الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت آنست منهم رشدا فاجر عليهم ما كنت تجري واعلم ان الفقر جند الله الاكبر يذل به كل جبار عنيد متكبر وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لولا ان الله تعالى اذل ابن ادم بثلث ما طاطا راسه لشي الفقر والمرض والموت ومنها الفقر فقد يعير به الخلق اما انفة من ذل الاستكانة او اسفا على فايت الغنى ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كاد الفقر ان يكون كفرا وكاد الحسد ان يغلب القدر قال ابو تمام الطايي

واعجب حالات ابن ادم خلقه ۝ يضل اذا افكرت في كنهه الفكر

فيفرح بالشي القليل بقاوه ۝ ويجزع لما صار وهو له ذخر

وربما تسلى من هذه حاله بالاماني وان قل صدقها فقد قيل قلما تصدق الامنية لكن قد يعتاض بها سلوة من هم ومسرة من تحي وقد قال ابو العتاهية

الى ديان يوم الحشر ناتي ۝ وعند الله تجتمع الخصوم

ستعلم في المعاد اذا التقينا ۝ غدا عند المليك من الظلوم

فاخبر الرشيد بذلك فبكى بكا شديدا ودعا ابا العتاهية فاستحله ووهب له الف دينار واطلقه واما القاعدة الثالثة فهي عدل شامل يدعو الى الالفة ويبعث على الطاعة وتعمر به الارض وتنمى به الاموال ويكثر معه النسل ويامن به السلطان وقد قال ابن المرزبان لعمر حين راه وقد نام متبذلا عدلت فامنت فنمت وليس شي اسرع في خراب الارض ولا افسد لضماير الخلق من الجور لانه ليس يقف على حد ولا ينتهي الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد وقال النبي صلى الله عليه وسلم ثلث منجيات وثلث مهلكات فاما المنجيات فالعدل في الغضب والرضى وخشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر واما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وحكي ان الاسكندر قال لحكما الهند وقد راى قلة الشرايع بها لم صارت سنن بلادكم قليلة قالوا لاعطاينا الحق من انفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم ايما افضل العدل ام الشجاعة قالوا اذا استعمل العدل استغني عن الشجاعة وقال بعض الحكما بالعدل والانصاف تكون مدة الايتلاف وقال بعض البلغا ان العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق فلا تخالفه في ميزانه

ولا تعارضه في سلطانه واستعن على العدل بخلتين قلة الطمع
وكثرة الورع فاذا كان العدل من احدى قواعد الدنيا التي لا
انتظام لها الا به ولا صلاح فيها الا معه وجب ان نبدا بعدل
الانسان في نفسه ثم بعدله في غيره فاما عدله في نفسه فيكون
بحملها على المصالح وكفها عن القبائح ثم بالوقوف في احوالها على اعدل
الامرين من تجاوز او تقصير فان التجاوز فيها جور والتقصير فيها
ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره اظلم ومن جار عليها فهو لغيره على غيره
اجور وقد قال بعض الحكما من توانى في نفسه ضاع واما عدله
في غيره فقد ينقسم حال الانسان مع غيره ثلثة اقسام فالقسم
الاول عدل الانسان في من دونه كالسلطان مع رعيته والرئيس مع
صحابته فعدله فيهم يكون باربعة اشيا باتباع الميسور وحذف
المعسور وترك التسلط بالقوة واتباع الحق في السيرة فان اتباع
الميسور ادوم وحذف المعسور اسلم وترك التسلط اعطف على
المحبة وابتغا الحق ابعث على النصرة وهذه امور ان لم تسلم
للزعيم المدبر كان الفساد بنظره اكثر والاختلال بتدبيره اظهر
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اشد الناس عذابا يوم القيامة
من اشركه الله في سلطانه فجار في حكمه وقال بعض الحكما الملك
يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم وقال بعض الادبا ليس للجائر جار
ولا تعمر له دار وقال بعض البلغا اقرب الاشيا صرعة
الظلوم وانفذ السهام دعوة المظلوم وقال بعض حكما الملوك انه

العجب من ملك استفسد رعيته وهو يعلم ان عزه بطاعتهم
وقال ازدشير بن بابك اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن
الطاعة وعوتب انوشروان على ترك عقاب المذنبين
فقال هم المرضى ونحن الاطبا فاذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم
والقسم الثاني عدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع
سلطانها والصحابة مع رئيسهم فقد يكون بثلثة اشيا باخلاص
الطاعة وبذل النصرة وصدق الولا فان اخلاص الطاعة
اجمع للشمل وبذل النصرة ادفع للوهن وصدق الولا انفى
لسوء الظن وهذه امور ان لم تجتمع في المرعي تسلط عليه
من كان يحميه واضطر الى اتقا من كان يتقيه كما قال الشاعر
متى اخرجت ذا كرم تخطى اليك بعض افعال السفيه
وفي استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل وقد
قال ابرويز اطع من فوقك يطعك من دونك وقال بعض الحكما
الظلم سلبة النعم والبغي مجلبة النقم وقال بعض البلغا ان
الله لا يرضى لمن خلقه الابناديه حقه وحقه شكر نعمه ونصح الامه
وحسن الصنيعه ولزوم الشريعه والقسم الثالث عدل
الانسان مع اكفائه وقد يكون بثلثة اشيا بترك الاستطاله ومجانبة
الادلال وكف الاذى لان ترك الاستطاله آلف ومجانبة الادلال
اعطف وكف الاذى انصف وهذا ان لم يخلص في الاكفاء اسرع
فيهم تقاطع الاعدا فافسدوا وافسدوا وقد روي عن عمر بن عبد العزيز

عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انبئكم بشر
الناس قالوا بلى يا رسول الله قال من نزل وحده ومنع رفده وجلد
عبده ثم قال أفلا أنبئكم بشر من ذلكم قالوا بلى يا رسول الله
قال من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره الا انبئكم بشر من ذلكم
قالوا بلى يا رسول الله قال من يبغض الناس ان عيسى بن مريم
قام خطيبا في بني اسرائيل فقال يا بني اسرائيل لا تتكلموا بالحكمة
عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم ولا تكافئوا
ظالما فيبطل فضلكم يا بني اسرائيل الامور ثلثة امر بين رشده
فاتبعوه وامر بين غيه فاجتنبوه وامر اختلفتم فيه فردوه الى الله
وهذا الحديث جامع لاداب العدل في الاحوال كلها وقال
بعض الحكما كل عقل لا يداري به الكل فليس بعقل تام وقال
بعض الشعرا ما دمت حيا فدار الناس كلهم فانما انت في دار
المداراة وقد تتعلق بهذه الطبقات امور خاصة يكون
العدل فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسهو لان العدل ما خرج
من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل وقد
قالت الحكما الفضائل هيئات متوسطة بين حالتين ناقصتين
وافعال الخير توسطت بين رذيلتين فالحكمة واسطة بين الشر والجهالة
والشجاعة واسطة بين التهور والجبن والعفة واسطة بين الشره
وضعف الشهوة والسكينة واسطة بين السخط وضعف الغضب والغيرة
واسطة بين الحسد وسوء العادة والظرف واسطة بين الخلاعة وال

والفدامه

ظ والفدامه

والندامه والتواضع واسطة بين الكبر ودناءة النفس والسخا واسطة
بين افراط الغضب وعدمه والمودة واسطة بين الخلاعة وحسن الخلق
والحيا واسطة بين الوقاحة والحصر والوقار واسطة بين الهزل و...
والسخافة واذا كان ما خرج عن الاعتدال الى ما ليس باعتدال
خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل وقد قال بعض البلغا السلطان السوء
يخيف البريء ويصطنع الدني والبلد السوء يجمع السفل ويورث العلل
والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف والجار السوء يفشي السر
ويهتك الستر فجعل هذه الاشيا بخروجها عن الاولى الى ما ليس باولى
خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل ولست تجد فسادا الا وسبب
نتيجته الخروج منه عن حال الى ما ليس بعدل من حالتي الزيادة والنقصان
فاذا لا شيء انفع من العدل كما انه لا شيء اضر مما ليس بعدل واما

واما القاعدة الرابعة

فهو امن عام
تطمئن النفوس اليه وتنتشر فيه الهمم ويسكن اليه البريء ويانس
به الضعيف فليس لخائف راحة ولا لحاذر طمأنينة وقد قال
بعض الحكما الامن اهنى عيش والعدل اقوى جيش ولان الخوف
يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم ويكفهم عن اسباب
المواد التي بها قوام اودهم وانتظام جملتهم ولئن كان الامن من
نتائج العدل والجور من نتائج ما ليس بعدل فقد يكون تارة
بمقاصد الادميين الخارجة عن العدل وتارة يكون باسباب حادثة
عن غير مقاصد الادميين فلا تكون خارجة عن العدل فمن اجل

والسخا واسطة بين الاسراف والبخل والتكلم ...

فزالكلام نقص

ذلك لم يكن ما سبق من حال العدل مقنعا عن ان يكون الامن في انتظام
الدنيا قاعدة كالعدل فاذا كان ذلك كذلك فالامن المطلق ما عم
والخوف قد يتنوع تارة ويعم فتنوعه بان يكون تارة على النفس
وتارة على الاهل وتارة على المال وعمومه ان يستوعب جميع
الاحوال فلكل واحدة من انواعه حظ من الوهن ونصيب من الخوف
وقد يختلف باختلاف اسبابه وتتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب
اختلاف الرغبة فيما خيف عليه فمن اجل ذلك تحقق ان نصف
حال كل واحد من انواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن ولا
سيما الخائف على الشي مختص الاهتمام به منصرف الفكرة عن غيره وهو
يظن ان لا خوف الا اياه ويغفل عن قدر النعمة بالامن فيما سواه
فصار كالمريض الذي هو بمرضه متشاغل وعما سواه غافل ويغفل
عما صرف عنه اعظم مما بلي به وانما توكل بالادنى وان جل ما يمضي
حكي ان رجلا قال لاعرابي حاضر ما اشد وجع الضرس فقال
الاعرابي كل داء اشد داء وكذلك من غره الامن كمن استولت
عليه العافية فهو لا يعرف قدر النعمة بامنه حتى يخاف كما لا يعرف
المعافى قدر النعمة بعافيته حتى يصاب وقال بعض الحكماء انما
تعرف النعمة بمقاساة ضدها فاخذ ذلك ابو تمام الطائي فقال

والحادثات وان اصابك بؤسها ✽ فهو الذي انباك كيف نعيمها

فالاولى بالعاقل ان يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما
سوى ذلك من عافيته وامنه وما انصرف عنه مما هو اشد من مرضه

(وخوفه) ليستبدل بالشكوى شكرا وبالجزع صبرا فيكون مسرورا فرحا حكي
ان يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه اي شيء كان خبرك
بعدي قال لا تسألني عما فعله بي اخوتي سلني عما صنعه بي ربي
وقد قال الشاعر

لا تنس في الصحة ايام السقم ✽ فان عقبى تارك الحزم الندم

واما القاعدة الخامسة فهي خصب دار
يتسع به الاحوال ويشترك فيه ذوو الاكثار والاقلال فيقل
في الناس الحسد وينتفي عنهم تباغض العدم وتتسع النفوس في
التوسع ويكثر المواساة والتواصل وذلك من اقوى الدواعي في صلاح
الدنيا وانتظام احوالها ولان الخصب يؤول الى الغنى والغنى يورث
الامانة والسخاء كتب عمر بن الخطاب الى ابي موسى
الاشعري لا تستقضين الا ذا حسب ومال فان ذا الحسب يخاف
العواقب وذا المال لا يرغب في مال غيره وقال بعض المتقدمين اني
وجدت خير الدنيا والاخرة في خصلتين فخير الدنيا والاخرة
في التقى والغنى وشر الدنيا والاخرة في الفجور والفقر وقال (بعض الشعراء)

ولم ار بعد الدين خيرا من الغنى ✽ ولم ار بعد الكفر شرا من الفقر

وبحسب الغنى يكون اقلال البخيل وعطاؤه واكثار الجواد
وسخاؤه كما قال دعبل

لئن كنت لا تولي يدا دون امرة ✽ فلست بمول نائلا آخر الدهر
واي اناء لم يفض عند ملئه ✽ واي بخيل لم ينل ساعة الوفر

فإذا كان الخصب يحدث من أسباب الصلاح ما وصفت كان الجدب يحدث من أسباب الفساد ما ضادها وكما أن صلاح الخصب عام كذلك فساد الجدب عام وما عم به الصلاح ان وجد وعم به الفساد ان فقد فأحرى أن يكون من قواعد الصلاح ودواعي الاستقامة والخصب يكون من وجهين خصب في المكاسب وخصب في المواد فأما خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد وهو من نتائج العدل المقترن بها وأما القاعدة السادسة فهي أمل فسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه ويحث على انشاء ما لا يؤمل في دركه بحياة اربابه ولولا أن الثاني يرتفق بما أنشأه الأول حتى يصير به مستغنيا لافتقر أهل كل عصر الى انشاء ما يحتاجون اليه من منازل السكنى واراضي الحرث وفي ذلك من الاعواز وتعذر الامكان ما لا خفاء به فلذلك ما أرفق الله خلقه باتساع الآمال حتى عمر به الدنيا فعم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتمم الثاني ما أبقاه الأول من عمارتها ويرمم الثالث ما أحدثه الثاني من شعثها لتكون أحوالها على الاعصار ملتئمة وأمورها على مرور الدهور منتظمة ولو قصرت الآمال لما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا لا يجد فيها بلغة ولا يدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعده بأسوأ من ذلك حالا حتى لا ينمو بها نبت ولا يمكن فيها لبث وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الأمل رحمة الله لأمتي ولولاه ما غرس غارس شجرا

ولا أرضعت أم ولدا وقال الشاعر

وللنفوس وان كانت على وجل ... من المنية آمال تقويها
فالمرء يبسطها والدهر يقبضها ... والنفس تنشرها والموت يطويها

فأما حال الأمل في حال الآخرة فهو من أقوى الأسباب في الغفلة عنها وقلة الاستعداد لها وقد أفصح لبيد بن ربيعة مع أعرابيته بما تبين به حال الأمل فالأمل مومن وقال

وأكذب النفس اذا حدثتها ... ان صدق النفس يزري بالأمل
غير أن لا تكذبنها في التقى ... واخزها بالبر لله الأجل

والفرق بين الآمال والأماني لأن الآمال ما تقيدت بأسباب والأماني ما تجردت عنها **فصل** فهذه القواعد الست التي بها تصلح أحوال الدنيا وتنتظم أمور جملتها فان كملت فيها كمل صلاحها وبعيد أن يكون أمر الدنيا تاما كاملا وان يكون صلاحها عاما شاملا لأنها موضوعة للتغيير والفناء منشأة على القصر والانقضاء وقد رأى بعض الحكماء رجلا يقول قلب الله الدنيا قال اذا تستوي لأنها مقلوبة وقال بعض الشعراء

ومن عادة الأيام أن خطوبها ... اذا سر منها جانب ساء جانب
وما أعرف الأيام الا ذميمة ... ولا الدهر الا وهو للثأر طالب

وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها

فصل فأما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلاثة أشياء هي قاعدة أمره ونظام حاله وهي نفس مطيعة الى رشدها

منتهية عن غيرها وألفة جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع
المكروه بها ومادة كافية تسكن نفسه إليها ويستقيم أوده بها
أما القاعدة الأولى التي هي نفس مطيعة فلأنها إذا أطاعته
ملكها وإذا عصته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بأن لا
يملك غيرها أحرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى
وقد قال بعض الحكماء لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة نفسه ممتنعة
عليه وقال الشاعر

أتطمع أن يطيعك قلب سعدى ... وتزعم أن قلبك قد عصاكا

وطاعة نفسه تكون من وجهين أحدهما نصح والثاني انقياد فأما
النصح فهو أن تنظر إلى الأمور بحقائقها فترى الرشد رشدا
وتستحسنه وترى الغي غيا وتستقبحه وهذا يكون من صدق
النفس إذا سلمت من دواعي الهوى ولذلك قيل من تفكر أبصر
وأما الانقياد فهو أن تسرع إلى الرشد إذا أمرها وتنتهي عن الغي
إذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس إذا كفيت منازعة الشهوات
قال الله تعالى ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما
وللنفس آداب هي من تمام طاعتها وكمال مصلحتها قد أفردنا لها
من هذا الكتاب بابا واقتصرنا في هذا الموضع على ما اقتضاه الترتيب
واستدعاه التقريب وأما القاعدة الثانية التي هي الألفة
الجامعة فلأن الإنسان مقصود بالأذية محسود بالنعمة فإذا لم
يكن آلفا مألوفا تخطفته أيدي حاسديه وتحكمت فيه أهواء أعاديه

فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة فإذا كان آلفا مألوفا انتصر
بالألفة على أعاديه وامتنع بهم من حساده فسلمت نعمته منهم
وصفت مدته عنهم وإن كان صفو الزمان عسيرا وسلمه
خطرا وقد روى ابن جريج عن عطاء عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير
الناس أنفعهم للناس وروي عنه صلى الله عليه وسلم أن الله يرضى لكم
ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا
وأن تعتصموا بحبله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله
أمركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال وكل
ذلك حث منه على الألفة والعرب تقول من قل ذل وقال
قيس بن عاصم

إن القداح إذا اجتمعن فرامها ... بالكسر ذو حنق وبطش أيد
عزت فلم تكسر وإن هي بددت ... فالوهن والتكسير للمتبدد

وإذا كانت الألفة تجمع الشمل وتمنع
الذلة اقتضت الحال ذكر أسبابها وأسباب الألفة خمسة
وهي الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر فأما الدين
وهو الأول من أسباب الألفة فلأنه يبعث على التناصر ويمنع من
التقاطع والتدابر وبمثل ذلك وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه
فقال لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله
إخوانا لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام وهذا
وإن كان اجتماعهم في الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من

تذكي ترات الجاهلية واحن الضلالة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
والعرب اشد الناس تقاطعا وتعاديا واكثرهم اختلافا وتماديا
حتى ان بني الاب الواحد كانوا يتفرقون احزابا مختلفة فنشا
بينهم بالتحزب والافتراق احقاد الاضداد واحن البعداء وكانت
الانصار اشدهم تقاطعا وتعاديا وكان بين الاوس والخزرج
من الاختلاف والتباين اكثر من غيرهم الى ان اسلموا فذهبت احنهم
وانقطعت عداوتهم وصاروا بالاسلام اخوانا متواصلين وبالفة
الدين اعوانا متناصرين قال الله تعالى واذكروا نعمة الله عليكم
اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا يعني اعداء في
الجاهلية فالف بين قلوبكم بالاسلام وقال الله تعالى ان الذين امنوا
وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا يعني حبا وعلى حسب التالف
على الدين تكون العداوة فيه اذا اختلف باهله فان الانسان قد يقطع
في الدين من كان به برا وعليه مشفقا هذا ابو عبيدة بن الجراح
وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل والاثرة المشهورة في الاسلام
قتل اباه يوم بدر واتى براسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة
لله ولرسوله حين بقي على ضلاله وانهمك في طغيانه فلم يعطفه عليه
رحم ولا كفه عنه اشفاق وهو من ابر الابناء به تغليبا للدين
على النسب ولطاعة الله على طاعة الادب وفيه انزل الله تعالى لا
تجد قوما يومنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله
ولو كانوا اباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم وقد يختلف

اهل الدين

اهل الدين على مذاهب شتى واراء مختلفة فيحدث من المختلفين
فيه من العداوة والتباين مثل ما يختلف يحدث بين المختلفين في الاد يان
وعلة ذلك ان الدين والاجتماع على العقل الواحد فيه لما كذا احق
من اقوى اسباب الفرقة واذا تكافا اهل الاديان المختلفة والمذاهب
المتباينة ولم يكن احد الفريقين اعلى يدا واكثر عددا كانت العداوة
بينهما اقوى والاحن فيهما اعظم لانه ينضم الى عداوة الاختلاف
تحاسد الاكفاء وتنافس النظراء واما النسب وهو الثاني من
اسباب الالفة فلان تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على
التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة انفة من استعلاء
الاباعد على الاقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الاجانب وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الرحم اذا تماست تعاطفت
ولذلك حفظت العرب انسابها لما امتنعت عن سلطان يقهرها ويكف
الاذى عنها لتكون به متظاهرة على من ناواها متناصرة على من شاقها
وعاداها حتى بلغت بالالفة الانساب وتناصرها على القوي الابي
وتحكمت فيه تحكم المتسلط المشتط وقد عدم نبي الله لوط نصره
حين عدم عشيرة مانعة فروى ابو سلمة عن ابي هريرة ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال رحم الله لوطا لقد كان ياوي الى ركن شديد
يعني الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فما بعث من نبي بعده
الا في ثروة من قومه وقال وهب لقد وجدت الرسل على لوط
وقالوا ان ركنك لشديد وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان لا يترك

في الام والد

المرء حتى يضمه الى قبيلة هو منها قال الماوردي المفرد الذي لا ينتهي
الى قبيلة يكون منها كل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفة وكف
عن الفرقة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من كثر سواد قوم فهو منهم
فاذا كان النسب بهذه المنزلة من الالفة فقد تعرض عوارض تمنع منها
وتبعث على الفرقة المنافية لها فاذا فقد لزم ان نصف حال الانساب
وما يعرض لها من عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة المنافية لها من
الاسباب فاعلم انها قد تنقسم على ثلثة اقسام قسم والدون وقسم
مولودون وقسم مولودون مناسبون ولكل صنف منهم منزلة
في البر والصلة وعوارض يطرا فيبعث على العقوق والقطيعة فاما
الوالدون فهم الاباء والامهات والاجداد والجدات وهم موصوفون
مع سلامة احوالهم بخلقين احدهما لازم بالطبع والثاني حادث
بالاكتساب فاما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر والاشفاق وذلك
لا ينفك عن الوالد وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شيء ثمرة
وثمرة القلب الولد وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الولد مبخلة
مجهلة مجبنة محزنة فاخبر ان الحذر عليه يكسب هذه الاوصاف
ويحدث هذه الاخلاق وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهذه
الحال التي لا يقدر على صبر دفعها عن نفسه للزومها طبعا وحدوثها
حتما قيل ليحيى بن زكريا ما بالك تكره الولد فقال مالي وللولد
ان عاش كدني وان مات هدني وقيل لعيسى بن مريم الا تتزوج
فقال انما يحب التكثر في دار البقا واما ما كان حادثا بالاكتساب

كره الاولاد

فهي المحبة التي تنمي مع الاوقات وتتغير مع تغير الحالات وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الولد المريط يعني ان حبه
يلتصق بنياط القلب فان انصرف الوالد عن حب ولده فليس ذلك
لبغضه منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق او تقصير مع بقاء
الحذر والاشفاق الذي لا يزول عنه ولا ينتقل منه وقد قال
محمد بن علي ان الله رضي الاباء للابناء فحذرهم فتنتهم ولم يوصهم
بهم ولم يرض الابناء للاباء فاوصاهم بهم فان نشز الابناء عن
دعاة التقصير الى العقوق ونشز الاباء عن دعاة البر الى الافراط
والامهات اكثر اشفاقا واوفر حبا لما باشرن من الولادة وعانين
من التربية ولانهن ارق قلوبا والين نفوسا وبحسب ذلك وجب
ان يكون التعطف من الابناء عليهن اوفر جزاء لفعالهن وكفا لنهن
وان كان الله تعالى قد اوصى شرك بينهما في البر وجمع بينهما
في الوصية فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا وقد روي
ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان لي اما انا مطيتها اقعدها
على ظهري ولا اصرف عنها وجهي وارد اليها كسبي فهل جزيتها فقال
لا ولا بزفرة واحدة قال ولم قال لانها كانت تخدمك وهي تحب
حيوتك وانت تخدمها وانت تحب موتها وقال الحسن البصري
حق الوالد اعظم وبر الوالدة الزم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال انهاكم عن عقوق الامهات ووأد البنات ومنع وهات
وروى خالد بن معدان عن المقدام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول ان الله تعالى يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم
بامهاتكم ثم يوصيكم باباكم ثم يوصيكم بالاقرب فالاقرب واما
المولودون فهم الاولاد واولاد الاولاد والعرب تسمي ولد الولد
الصفوة وهم مختصون مع سلامة احوالهم بخلقين احدهما لازم
والاخر منتقل فاما اللازم فهو الانفة للاباء من تهضم او خمول
والانفة في الابنا مقابلة الاشفاق في الاباء وقد لحظ ابو تمام
الطائي هذا المعنى في شعره فقال
فاصبحت يلقاني الزمان من اجله باعظام مولود واشفاق والد
واما المنتقل فهو الادلال وهو اول حال الولد والادلال
في الابنا في مقابلة المحبة في الابا لان المحبة بالابا اخص
والادلال بالابنا اليق وقد روي عن عمر بن الخطاب انه قال
قلت يا رسول الله ما بالنا نرق على اولادنا ولا يرقون علينا
قال لانا ولدناهم ولم يلدونا ثم ان الادلال في الابنا
قد ينتقل مع الكبر الى احد امرين اما الى البر والاعظام واما
الى الجفا والعقوق فان كان الولد رشيدا او كان الاب برا
عطوفا صار الادلال برا واعظاما وقد روى الزهري عن
ابن عاص بن شراحيل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لجرير بن عبد الله
ان حق الوالد ان يخشع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند
السغب والنصب فان الكافي ليس بالواصل ولكن الواصل من اذا
قطعت رحمه وصلها وان كان الولد غاويا او كان الوالد جافيا

صار الادلال قطيعة وعقوقا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم رحم
الله امرأ اعان ولده على بره وبشر عمر بن الخطاب رض بولد
فقال ريحانة اشمها ثم هي عن قريب ولد بار او عدو ضار
وقيل في منثور الحكم العقوق ثكل من لم يثكل وقال
بعض الحكما ابنك ريحانتك سبعا وخادمك سبعا ووزيرك
سبعا ثم هو صديق او عدو واما المناسبون فهم من عدا
الابا والابنا ممن يرجع بتعصيب او رحم فالذي يجتمعون به هي
الحمية الباعثة على النصرة وهي ادنى رتبة من الانفة لان الانفة
تمنع من التهضم والخمول معا والحمية تمنع من التهضم وليس لها في
كراهة الخمول نصيب الا ان يقترن بها ما يبعث على الانفة وحمية
المناسبين انما تدعو الى النصرة على البعدا الاجانب وهي مع
لحسد الادانى والاقارب موكولة الى مناسبة الصاحب فالصاحب
فان حرست بالتواصل والتلاطف تاكدت اسبابها واقترنت بحمية
النسب مضافاة المودة وذلك اوكد اسباب الالفة وقيل لبعض
قريش ايما احب اليك اخوك ام صديقك قال اخي اذا كان
صديقا وقال مسلمة بن عبد الملك العيش في ثلثة سعة المنزل
وكثرة الخدم وموافقة الاهل وقال بعض الحكما البعيد قريب
بمودته والقريب بعيد بعداوته فان اهملت الحال بين المناسبين
ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب عليه اما
مقت الحسد او منازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة

تباعد وقال الكندي في بعض رسايله الأب رب والولد كمد
والاخ فخ والعم غم والخال وبال والاقارب عقارب وقال
عبد الله بن المعتز

لحومهم لحمي وهم يأكلونه · وما داهيات المرء الا اقاربه

ومن اجل ذلك امر الله سبحانه بصلة الارحام واثنى على
واصليها فقال والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل ويخشون
ربهم ويخافون سوء الحساب قال المفسرون هي التي امر الله
بوصلها ويخشون ربهم في قطعها ويخافون سوء الحساب في المعاقبة
عليها وقد روي عن عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال يقول الله تعالى انا الرحمن وهي الرحم اشتققت اسمها من
اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته وروي عنه صلى
الله عليه وسلم انه قال صلة الرحم منماة للعدد مثراة للمال محبة
في الاهل منساة في الاجل وقال بعض الحكما بلوا ارحامكم
بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق وقال بعض البلغا صلوا ارحامكم
فانه لا يبلى عليها اصولكم ولا يهتصر عليها فروعكم وقال بعض
الادبا من لم يصلح لاهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب
عنك وقال بعض الفصحا من وصل رحمه وصله الله ورحمه
ومن اجار جارة اعانه الله واجاره وقال محمد عبد الله الازدي

وحسبك من ذل وسوء صنيعة · مناواة ذي القربى وان قيل قاطع
ولكن اواسيه وانسى ذنوبه · لترجعه يوما الي الرواجع

وقال بعض السلف الحسد اول ذنب عصي الله به في السما
يعني حسد ابليس لادم عليه السلام واول ذنب عصي الله به في
الارض يعني حسد ابن ادم لاخيه حتى قتله وقال بعض
الحكما من رضي بقضا الله لم يسخطه احد ومن رضي بعطايه
لم يدخله حسد وقال بعض البلغا الناس حاسد ومحسود
ولكل نعمة حسود وقال بعض الادبا ما رايت ظالما اشبه
بمظلوم من الحسود نفس دايم وهم لازم وقلب هايم اخذه
بعض الشعرا فقال

ان الحسود الظلوم في كرب · يخاله من يراه مظلوما
ذا نفس دايم على نفس · يظهر منه ما كان مكتوما

ولو لم يكن من ذم الحسد الا انه خلق دني يتوجه نحو الاكفا
والاقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة عنه
كرما والسلامة منه مغنما فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم
مضر حتى ربما افضى بصاحبه الى التلف من غير نكاية في عدو
ولا اضرار بمحسود وقد قال معاوية ليس في خصال الشر
اعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل ان يصل الى المحسود
وقال بعض الحكما يكفيك من الحسود انه يغتم في وقت سرورك
وقيل في منثور الحكم عقوبة الحاسد من نفسه وقال
الاصمعي قلت لاعرابي ما اطول عمرك قال تركت الحسد فبقيت
وقال رجل لشريح القاضي اني لاحسدك على ما ارى من صبرك

على الخصوم ووقوفك على غامض الحكم فقال ما نفعك الله بذاك
ولا ضرني وقال عبد الله بن المعتز

اصبر على كيد الحسود فان صبرك قاتله
فالنار تاكل بعضها ان لم تجد ما تاكله

وحقيقة الحسد شدة الاسى على الخيرات تكون للناس الافاضل وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا ان المنافسة في الخير هي الحسد وليس الامر كما ظنوا لان المنافسة طلب التشبه بالافاضل من غير ادخال ضرر عليهم والحسد مصروف الى الضرر لان غايته ان يعدم الفاضل فضله من غير ان يصير الفضل له فهذا هو الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسة اذاً فضيلة لانها داعية الى اكتساب الفضائل بالاقتداء بالاخيار الافاضل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المومن يغبط والمنافق يحسد وقال الشاعر

نافس على الخيرات اهل العلى فانما الدنيا احاديث
كل امرئ في شانه كادح فوارث منهم وموروث

واعلم ان دواعي الحسد ثلثة احدها بغض المحسود فيأسى عليه بفضيلة تظهر او منقبة تشكر فيثير حسداً قد خامر بغضاً وهذا النوع لا يكون عاماً وان كان اضرها لانه بغض كل الناس والثاني ان يظهر من المحسود فضل يعجز عنه الحاسد فيكره تقدمه فيه واختصاصه به فيثير ذلك

حسداً لولاه لكف وهذا اوسطها لانه لا يحسد الاكفاء من دونه وانما يختص بحسد من علا وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسداً والثالث ان يكون في الحاسد شح بالفضائل وبخل بالنعم وليست اليه فيمنع منها ولا بيده فيدفع عنها لانها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله في قضائه ويحسد على ما منح من عطائه وان كانت نعم الله تعالى عنده اكثر ومنحه عليه اظهر وهذا النوع من الحسد اعمها واخبثها اذ ليس لصاحبها راحة ولا لرضاه غاية فان اقترن بشر وقدرة كان بواراً وانتقاماً وان صادف عجزاً كان كمداً وسقاماً وقد قال عبد الحميد الحسود من الهم كساقي السم فاذا سرى سمه سرى عنه غمه واعلم ان بحسب فضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس عليه له فان كثر فضله كثر حساده وان قل قلوا لان ظهور الفضل يثير الحسد وحدوث النعمة يضاعف الكمد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء الحوائج بسترها فان كل ذي نعمة محسود وقال عمر رض ما كانت لله تعالى على احد نعمة الا وجد لها حاسداً ولو كان الرجل اقوم من القدح لما عدم غامزاً وقد قال الشاعر

ان يحسدوني فاني غير لائمهم قبلي من الناس اهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات اكثرنا غيظاً بما يجد

وربما كان الحسد منبهًا على فضل المحسود ونقص الحسود
كما قال ابو تمام الطائي

واذا اراد الله نشر فضيلةٍ ‧ طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ‧ ما كان يعرف طيب عرف العود
لولا التخوف للعواقب لم تزل ‧ للحاسد النعمى على المحسود

فأما ما يستعمله من كان الحسد عليه غالبًا وكان طبعه اليه مائلًا لينفي عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعدواه فأمور هي له حسم ان صادفها عزم منها اتباع الدين في اجتنابه والرجوع الى الله في ندمه وادابه فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن لئيم طبعها وان كان نقل الطباع عسيرًا لكن بالرياضة والتدرج يسهل منه ما استصعب ويحبب منه ما اتعب وان تقدم قول القائل من رامه خلقه كيف تخلى خلقه غير انه اذا عانى تهذيب نفسه تظاهر بالتخلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالخلق قال ابو تمام

فلم أجد الاخلاق الا تخلقًا ‧ ولم أجد الافضال الا تفضلا

ومنها العقل الذي يستقبح من نتائج الحسد ما لا يرضيه ويستنكف من هجنة مساويه فيذلل نفسه أنفةً ويقهرها حميةً فتذعن لرشدها وتجيب الى صلاحها وهذا انما يصح لذي النفس الابية والهمة العلية وان كان ذو الهمة يجل عن دناءة الحسد وقد قال الشاعر

أبى له ذاك نفسٌ زكيةٌ ‧ ونفسٌ اذا ما خافت الظلم تشمس

ومنها ان يستدفع ضرره ويتوقى اثره ويعلم ان نكايته في نفسه ابلغ ومن المحسود اكثر فيستعمل الحزم في دفع ما كده وأكمده ليكون اطيب نفسًا واهنى عيشًا وقد قيل العجب لغفلة الحساد عن سلامة الاجساد وقال الشاعر

يصيب باعقاب الامور كانما ‧ يرى بصواب الراي ما هو واقع

ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم اما على نفسه من عداوة او على عرضه من ملامة فيتألفهم بمعالجة نفسه ويراهم ان صلحوا اجدى نفعًا واخلص ودًّا وقال ابن العميد

داوى جوى بجوى وليس بسالمٍ ‧ من يستكف النار بالحلفاء

وقال المؤمل بن اميل

لا تحسبوني غنيًا عن مودتكم ‧ اني اليكم وان ايسرت مفتقر

ومنها ان يساعد القضا ويستسلم للمقدور ولا يرى ان يغالب قضا الله فيرجع مغلوبًا ولا ان يعارض في امره فيرد مسلوبًا ومحروبًا وقد قال ازدشير بن بابك اذا لم يساعدنا القضا ساعدناه وقال محمود الوراق

قدرُ الله كائنٌ حين يقضى ورودُه ‧ قد مضى فيه علمه وانتهى ما يريده
وأخو الحزم حزمه ‧ ليس مما يزيده ‧ فأرد ما يكون ان لم يكن ما تريده

فان أظفرته السعادة باحد هذه الاسباب وهدته المراشد الى استعمال الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل

فالنقص فضلا واعتاض من الذم حمدا فاطلق استنزل نفسه عن
منافسة وصرفها عن لائمة اظهر جرما واقوى عزما ممن كفته
النفس جهادها واعطته قيادها ولذلك قال علي رضي الله عنه
خياركم كل مفتن تواب وان صدته الشهوة عن مراشده واضله
الحرمان عن مقاصده فانقاد للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق
الذميم حتى ظهر حسده واشتد كمده فقد باء باربع مذام
احداهن حسرات الحسد وسقام الجسد ثم لا يجد لحسرته انتهاء ولا
يامل لسقامه شفاء وقال ابن المعتز الحسد داء الجسد
والثانية انخفاض المنزلة وانحطاط الرتبة لانحراف
الناس عنه ونفورهم منه وقد قيل في منثور الحكم الحسود لا
يسود والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محبا له
وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا فيصير بالعداوة موتورا
وبالمقت مزجورا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم شر الناس من
يبغض الناس ويبغضونه والرابعة اسخاط الله تعالى في
معارضته واجتناب الاوزار في مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله
عدلا ولا لنعمه من الناس اهلا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم
ان الحسد ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب وقال عبد الله
بن المعتز الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه
طالب لما لا يجده واذا بلي الانسان بمن هذه حاله من حساد النعم
واعداء الفضل استعاذ بالله من شره وتوقى مصارع كيده وتحرز

من غوائل حسده وبعد عن ملابسته وادنائه لعضل دائه
واعواز دوائه فقد قيل حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها
وقال بعض الحكماء من ضر بطبعه فلا تانس بقربه فان قلب
الاعيان صعب المرام وقال عبد الحميد اسد تقاربه خير من
حسود تراقبه وقال محمود الوراق

اعطيت كل الناس من نفسي الرضى ... الا الحسود فانه اعياني
ما ان لي ذنبا اليه علمته ... الا تظاهر نعمة الرحمن
وابى فما يرضيه الا ذلتي ... وذهاب اموالي وقطع لساني

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلث لا يسلم احد منهن
الطيرة وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت فلا
تحقق واذا حسدت فلا تبغ

فصل

واما اداب المواضعة والاصطلاح فضربان احدهما ما تكون
المواضعة في فروعه والعقل موجب لاصوله والثاني ما تكون
المواضعة في فروعه واصوله وذلك منصح في الفصول التي
نذكرها اذا سبرت وهي ثمانية

الفصل الاول في الكلام والصمت

اعلم ان الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات
السرائر لا يمكن استرجاع بوادره ولا يقدر على رد شوارده فحق
على العاقل ان يتحرز من زلله بالامساك عنه او بالاقلال منه
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رحم الله من قال خيرا

فغنم او سكت فسلم وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ انت سالم
ما سكت فاذا تكلمت فعليك او لك وقال علي رضي الله عنه اللسان
معيار اطاشه الجهل وارجحه العقل وقال بعض الحكما الزم
الصمت تعد حكيما جاهلا كنت او عليما وقال بعض الادبا
سعد من لسانه صموت وكلامه قوت وقال بعض العلما
من اعوز ما يتكلم به العاقل ان لا يتكلم الا لحاجته او بحجته
ولا يتكلم الا في عاقبته او اخرته وقال بعض البلغا الزم
الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ويؤمنك سوء المغبة
ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مؤونة الاعتذار وقال
بعض الفصحا اعقل لسانك الا عن حق توضحه او باطل تدحضه
او حكمة تنشرها او نعمة تذكرها وقال الشاعر

رايت العز في ادب وعقل ... وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن ... اذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا ان تراه ... له وجه وليس له لسان

واعلم ان للكلام شروطا لا يسلم المتكلم من الزلل الا بها
ولا يعرى من النقص الا ان يستوعبها وهي اربعة فالشرط الاول
ان يكون الكلام لداع يدعو اليه اما في اجتلاب نفع او دفع ضرر
والشرط الثاني ان ياتي به في موضعه ويتوخى به اصابة فرصته
والشرط الثالث ان يقتصر منه على قدر حاجته والشرط
الرابع ان يتخير اللفظ الذي يتكلم به فهذه اربعة شروط

متى اخل المتكلم بشرط منها فقد اوهن فضيلة باقيها وسنذكر
من تعليل كل شرط منها ما ينبي عن لزومه **فاما الشرط الاول**
وهو الداعي الى الكلام فلان ما لا داعي له هذيان وما لا سبب له هجر
ومن سامح نفسه في الكلام اذا عن ولم يراع صحة دواعيه واصابة
معانيه كان قوله مرذولا ورايه معلولا كالذي حكي عن ابن عائشة ان
شابا كان يجالس الاحنف ويطيل الصمت فاعجب ذلك الاحنف فخلت
الحلقة يوما فقال له الاحنف تكلم يا ابن اخي فقال يا عم ارايت لو ان
رجلا سقط من شرفة هذا المسجد كان يضره شي فقال يا ابن اخي
ليتنا تركناك مستورا ثم تمثل الاحنف بقول الاعور الشني حيث يقول

وكاين ترى من صامت لك معجب ... زيادته او نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وكالذي حكي عن ابي يوسف الفقيه ان رجلا كان يجلس اليه
ويطيل الصمت فقال له ابو يوسف الا تسال فقال بلى متى يفطر
الصائم فقال اذا غربت الشمس قال فان لم تغرب الى نصف الليل
قال فتبسم ابو يوسف وتمثل ببيتي الخطفي جد جرير

عجبت لازراء العيي بنفسه ... وصمت الذي قد كان بالعلم اعلما
وفي الصمت ستر للعيي وانما ... صحيفة لب المرء ان يتكلما

قال القاضي ابو الحسن رحمه الله ومما اطرفك
به عني انني كنت يوما في مجلسي بالبصرة وانا مقبل على تدريس
اصحابي اذ دخل شيخ قد ناهز الثمانين او جاوزها فقال لي

قد قصدتك بمسئلة اخترتك لها فقلت سل عافاك الله فظننته
يسال عن حادث قد نزل به فقال أخبرني عن نجم ابليس ونجم
آدم ما هو فان هذين لعظم شانهما لا يسال عنهما الا العلما الذين
فعجبت وعجب من في مجلسي من سواله وبدر اليه قوم اليه بالانكار
والاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقنع مع ما يظهر من حاله
الا بجواب مثله فاقبلت عليه وقلت يا هذا ان المنجمين يزعمون ان
نجوم الناس لا تعرف الا بمعرفة مواليدهم فان ظفرت بمن يعرف ذلك
فاساله فقال لي جزاك الله خيرا ثم انصرف مسرورا فلما كان
بعد ايام عاد وقال ما وجدت الى وقتي هذا من يعرف مولد هذين
فانظر الى هولا كيف أبان الكلام عن جهلهم واعرب السوال
عن نقصهم اذ لم يكن لهم داع اليه ولا روية فيما تكلموا به ولو
صدر عن روية ودعا اليه داع لسلموا من شينه وبرئوا من
عيبه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لسان العاقل من وراء قلبه
فاذا اراد الكلام يرجع خيرا الى قلبه فان كان له تكلم وان كان
عليه امسك وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له
وقال عمر بن عبد العزيز من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه
وقال بعض الحكما عقل المرء مخبو تحت لسانه وقال بعض البلغا
احبس لسانك قبل ان يطيل حبسك او يتلف نفسك فلا شي أولى
بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع الى الجواب
وقال ابو تمام الطائي

ومما كانت

ومما كانت الحكما قالت لسان المرء من تبع الفؤاد
وكان بعض البلغا يحسم الرخصة في الكلام ويقول اذا ما
جالست الجهال فانصت لهم واذا جالست العلما فانصت لهم فان
في انصاتك للجهال زيادة في الحلم وفي انصاتك للعلما زيادة في العلم
واما الشرط الثاني وهو ان ياتي بالكلام في موضعه
فلان الكلام في غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به وما لا ينفع من الكلام
فقد تقدم القول فيه بانه هذيان وهجر فان قدم ما يقتضي
التاخير كان عجلة وخرقا وان اخر ما يقتضي التقديم كان توانيا
وعجزا لان لكل مقام قولا وفي كل زمان عملا وقد قال الشاعر
تضع الحديث على مواضعه وكلامها من بعده نزر
واما الشرط الثالث وهو ان يقتصر منه على قدر حاجته
لان الكلام اذا لم ينحصر بالحاجة ولم يتقدر بالكفاية لم يكن
لحده غاية ولا لقدره نهاية وما لم يكن من الكلام محصورا كان إما
حصرا ان قصر او هذرا ان كثر روي أن اعرابيا تكلم عند
رسول الله صلى الله عليه وسلم وطول فقال النبي صلى الله عليه وسلم كم دون
لسانك من حجاب فقال شفتاي واسناني قال فان الله تعالى يكره
الانبعاق في الكلام فنضر الله وجه امرئ أوجز في كلامه واختصر
على حاجته وحكي ان بعض الحكما رأى رجلا يكثر الكلام
ويقل السكوت فقال ان الله تعالى خلق لك أذنين ولسانا واحدا
ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به وقال بعض الحكما

من كثر كلامه كثر اثامه وقال ابن مسعود انذركم فضل
المنطق وقال بعض البلغا كلام المرء بيان فضله وترجمان فضل
عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل واياك وما يسخط
سلطانك ويوحش اخوانك فمن اسخط سلطانه تعرض للمنيه ومن
اوحش اخوانه تبرا من الحريه وقال بعض الشعرا
وزن الكلام اذا نطقت فانما يبدي عيوب ذوي العقول المنطق
وللمخالفة قدر الحاجه من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا
وتكثير يكون هذرا وكلاهما شين وشين الهذر ابلغ وربما
كان في الغالب اخوف وقال النبي صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس
في النار الا حصايد السنتهم وقال بعض الحكما مقتل
الرجل بين فكيه وقال بعض البلغا الحصر خير من الهذر
لان الحصر يضعف الحجه والهذر يتلف المهجه وقال الشاعر
رايت اللسان على اهله اذا ساسه الجهل ليثا عقورا وقال اخر
يا رب السنه كالسيوف تقطع اعناق اصحابها
وما ينقص من شباب الرجال يزيد في نهاها والبابها
وقد ذهب بعضهم الى ان الكلام اذا كثر عن قدر الحاجه
وزاد على حد الكفايه وكان صوابا لا يشوبه خطل وسليما لا
يعتريه زلل فهو البيان والسحر الحلال وقال سليمان
بن عبد الملك وقد ذم الكلام في مجلسه ان كل من تكلم فاحسن
قدر على ان يسكت فيحسن وليس كل من سكت فاحسن قدر على

ان يتكلم

أن يتكلم فيحسن ووصف بعضهم الكاتب فقال الكاتب
من إن وجد شبر اكفاه وان وجد طومارا املاه وانشد
بعضهم في خطبا اياد
يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقبا
وقال الهيثم بن صالح لابنه يا بني اذا اقللت من الكلام
اكثرت من الصواب قال يا ابه فان انا اكثرت واكثرت يعني
كلاما وصوابا قال يا بني ما رايت موعوظا احق بان يكون واعظا
منك وانشد لابي الفتح البستي
تكلم وسدد ما استطعت فانما كلامك حي والسكوت جماد
فان لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد
وقيل لاياس بن معاويه ما فيك عيب الا كثرة الكلام
قال افتسمعون صوابا ام خطا قالوا بل صوابا قال فالزياده
من الخير خير قال ابو عثمان الجاحظ للكلام غايه
ولنشاط السامعين نهايه وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا
الى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر قال
القاضي ابو الحسن صدق ابو عثمان لان الاكثار منه وان
كان صوابا يمل السامع ويكل الخاطر فهو صادر عن اعجاب به
لولا قصر عنه ومن اعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل
في كلامه كثير الزلل دايم العثار وقال بعض الحكما
من اعجب بقوله اصيب بعقله وليس للكثير الهذر رجا يقابل

خوفه ولا نفع يوازي ضرره لانه يخاف من نفسه الزلل ومن معه
التأامه والملل وليس في مقابلة هذين حاجة داعيه ولا نفع
مرتجى وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان ابغضكم
الي المتفيهق المكثار والملح المهذار وسأل رجل حكيما فقال
متى أتكلم قال اذا اشتهيت الصمت قال فمتى اصمت قال اذا
اشتهيت الكلام وقال جعفر بن يحيى اذا كان الايجاز كافيا
كان الاكثار عيّا واذا كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا
وقيل في منثور الحكم اذا تم العقل نقص الكلام
وقال بعض الادبا من اطال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه
ومن الوحشة ما لا يضره وقال بعض البلغا عيّ تسلم به خير
من نطق تندم عليه فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ
حاجتك واياك وفضوله فانها تزل القدم وتورث الندم وقال
بعض الفصحا فم العاقل ملجم اذا هم بالكلام احجم وفم الجاهل
مطلق كلما شا اطلق وقال بعض الشعرا

ان الكلام يغر القوم جلوته حتى يلج به عيّ واكثار

واما الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذي يتكلم
به فلان اللسان عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله
فلزمه ان يكون بتهذيب الالفاظ حريا وبتقويم لسانه مليا وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يعجبني جمالك قيل وما جمال الرجل يا
رسول الله قال لسانه وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا

اللسان هل هو الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة وقال
بعض الحكما اللسان وزير الانسان وقال بعض الادبا
كلام المرء وافد ادبه وقال بعض البلغا يستدل على عقل
الرجل بقوله وعلى اصله بفعله وقال بعض الشعرا

وان لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل

وليس يصح اختيار الكلام الا لمن اخذ نفسه بالبلاغة وكلفها لزوم
البلاغة حتى يصير متدربا بها معتادا لها فلا ياتي الكلام مستكره
اللفظ ولا مختل المعنى لان البلاغة ليست معاني مفرده ولا الفاظ
عاريه وانما البلاغة ان تكون المعاني الصحيحة مستودعة في
الفاظ فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة
وقيل لليوناني ما البلاغة فقال اختيار الكلام وتصحيح الاقسام
وقيل للرومي فقال حسن الاقتصار عند البديهة والغزارة
يوم الاطالة وقيل للهندي فقال معرفة الفصل من الوصل وقيل
للعربي فقال ما حسن ايجازه وقل مجازه وقيل للبدوي فقال
ما دون السحر وفوق الشعر يفت الخردل ويحط الجندل وقيل
للحضري فقال ما كثر اعجازه وتناسبت صدوره واعجازه وقال
ابن المقفع البلاغة قلة الحصر والجراة على البشر وسأل
الحجاج ابن القرية عن الايجاز فقال ان تقول فلا تبطي وان
تصيب فلا تخطي ثم قال أقلني قال قد فعلت قال هو ان لا تبطي
ولا تخطي وقال الشاعر

خير الكلام قليلٌ على كثيرٍ دليل . والعيّ معنىً قصيرٌ يحويه لفظ طويل . وفي الكلام فضولٌ وفيه قالٌ وقيل

وامّا صحة المعاني فتكون من ثلثة اوجه احدها ايضاح تفسيرها حتى لايكون مُشكله ولامجمله والثاني استيفا تقسيمها حتى لايدخل فيها ماليس منها ولايخرج عنها ماهو منها والثالث صحة مقابلاتها والمقابله تكون من وجهين احدهما مقابلة المعنى بمايوافقه وحقيقة هذه المقاربه لان المعاني تصير متشاكله والثاني مقابلته بمايُضادّه وهو حقيقه المقابله وليس للمقابله الا احد هذين الوجهين الموافقه في الايتلاف والمضاده في الاختلاف فأما فصاحة الالفاظ فتكون بثلثه اوجه احدها مجانبة الغريب الوحشي حتى لايمجه سمع ولاينفر منه طبع والثاني تنكب اللفظ المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصّي ولاينبو عن فهمه عاميّ كما قال الجاحظ في كتاب البيان أما أنا فلم أرَ قومًا أمثل طريقةً في البلاغه من الكُتّاب وذلك انهم قد التمسوا من الالفاظ مالم يكن متوعرًا ولا وحشيًا ولاساقطًا عاميًا والثالث ان يكون بين الالفاظ ومعانيها مناسبه ومطابقه اما المطابقه فهو ان يكون الالفاظ كالقوالب لمعانيها فلاتزيد عليها ولاتنقص عنها وقد قال بشر بن المعتمر في وصيته في البلاغه اذا لم تجد اللفظ واقعه في موقعها ولاصايره الى مستقرها ولاحالّه في مركزها بل وجدتها

قلقة

قلقةً في مكانها نافرةً في موضعها فلاتكرهها على القرار في غير موضعها فانك اذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بذلك احد واذا انت تكلفتها ولم تكن حاذقًا فيها عابك من انت أقل عيبًا منه وازرى بك من انت فوقه

واما المناسبه فهو ان يكون المعنى يليق ببعض الالفاظ إما لعُرفٍ مستعملٍ اولاتفاقٍ مستحسنٍ حتى اذا ذكرت تلك المعاني بغير تلك الالفاظ كانت نافرة عنها وان كانت افصح واوضح لاعتياد ما سواها وقد قال بعض البلغا لايكون البليغ بليغًا حتى يكون معنى كلامه اسبق الى فهمك من لفظه الى سمعك فاما معاطاة الاعراب وتجنب اللحن فانما هو من صفات الصواب والبلاغه اعلى منه رتبه واشرف منزله وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الادبا فضلًا عن ان يكون في اعداد البلغا والفصحا واعلم ان للكلام ادابًا ان اغفلها المتكلم اذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولهى الناس عن محاسن فضله بمساوي أدبه وعدلوا عن نشر مناقبه بذكر مثالبه فمن ادابه أن لايتجوز في مدح ولايسرف في ذم فان كانت التزاهه عن الذم كرمًا والتجوز في المدح ملقًا يصدر عن مهانه والسرف في الذم انتقام يصدر عن شر وكلاهما شين وان سلم الكذب روي انه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن الاهتم عن قيس بن عاصم فمدحه فقال قيس والله يارسول الله لقد علم اني خيرٌ مما وصف ولكنه حسدني فذمه عمرو وقال يارسول الله

والله لقد صدقت في الاولى وما كذبت في الثانيه الاخره لاني رضيت
في الاولى فقلت احسن ما علمت وسخطت في الاخرى فقلت اقبح ما علمت
فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا على ان السلامه من
الكذاب في المدح والذم متعذره لاسيما اذا امدح تقربا وذم
حنقا حكي عن الاحنف بن قيس انه قال سهرت ليلتي افكر في
كلمة ارضي بها سلطاني ولا اسخط بها ربي فما وجدتها وقال
عبد الله بن مسعود ان الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج
وما معه دينه قيل وكيف ذلك قال يرضيه بما يسخط الله وسمع
ابن الرومي رجلا يصف رجلا ويبالغ في مدحه فانشا يقول
اذا ما وصفت امرءًا لامرئٍ • فلا تغل في وصفه واقصد
فانك ان تغل تغل الظنون • فيه الى الامد الابعد
فيضؤل من حيث عظمته • لفضل المغيب على المشهد
ومن ادابه ان لا يبعثه الرغبه والرهبه على الاسترسال في وعد
او وعيد فيعجز عنهما ولا يقدر على الوفا بهما فان من اطلق بهما
لسانه وارسل فيهما عنانه ولم يستثقل من القول ما يستثقله من
العمل صار وعده نكثا ووعيده عجزا وقد حكي ان سليمن
بن داود مر بعصفور يدور حول عصفوره فقال لاصحابه
هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يا نبي الله قال انه يخطبها
الى نفسه ويقول زوجيني نفسك اسكنك اي غرف دمشق
شئت قال سليمن وكذب العصفور غرف دمشق مبنيه

لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى وسمع ابن سيرين رجلا يقول
لرجل فعلت فقال ابن سيرين اسكت فلا خير في المعروف اذا احصي
وقال بعض الحكما المن مفسده الصنيعه وقال بعض الادبا كدر
معروفا امتنانه وضيع حسنا امتهانه وقال بعض البلغا من من
بمعروفه سقط شكره ومن اعجب بعمله حبط اجره وقال بعض
الفصحا قوة المن من ضعف المنن وقال بعض الشعرا
افسدت بالمن ما اسديت من حسن • ليس الكريم اذا اسدى بمنان
وقال ابو نواس • فامض لا تمنن علي يدا • منك المعروف من كدره
وانشد عن الربيع للشافعي رضي الله عنه
لا تحملن لمن يمن • من الانام عليك منه
واختر لنفسك حظها • واصبر فان الصبر جنه
منن الرجال على القلوب • اشد من وقع الاسنه
ومن شروط المعروف ان لا يحتقر منه شيا وان كان قليلا نزرا
اذا كان الكثير معوزا وكنت عنه عاجزا فان من حقر يسيره منع
منه امجزه كثيره فامتنع منه وفعل قليل الخير افضل من تركه وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يمنعكم من معروف صغره
وقال عبد الله بن جعفر لا تستحيي من القليل فان البخل اقل منه ولا
تعجب من الكثير فانك اكثر منه وقال الشاعر
اعمل الخير ما استطعت وان كا • ن يسيرا فلن تحيط بكله
ومتى تفعل الكثير من الخير • اذا كنت تاركا لاقله

الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك ستره عن اذاعة يستطيل
بها واخفاؤه من اشاعة يستذل بها وقد قال الحكما اذا
اصطنعت المعروف فاستره واذا اصطنع اليك فانشره وقال
دعبل الخزاعي

اذا استهموا اعلنوا امرهم ... وان انعموا انعموا باكتتام
يقوم القعود اذا اقبلوا ... وتقعد هيبتهم بالقيام

على ان ستر المعروف من اقوى اسباب ظهوره وابلغ دواعي نشره
لما جبلت عليه النفوس من ظهور اظهار ما اخفي واعلان ما كتم
وقد قال سهل بن هرون

خل اذا جئته يوما لمسلة ... اعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفي صنايعه والله يظهرها ... ان الجميل اذا اخفيته ظهرا

ومن شروط المعروف تصغيره عن ان تراه مستكبرا وتقليله
عن ان يكون مستكثرا لئلا يصير من لابطر او مستطيلا اشر
قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه لا يتم المعروف
الا بثلث خصال تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجلته هنأته
واذا صغرته عظمته واذا سترته تممته وقال بعض الشعرا

زاد معروفك عندي عظما ... انه عندك مستور حقير
تتناساه كأن لم تأته ... وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به وترك الاعجاب بفعله
لما فيهما من اسقاط الشكر واحباط الاجر وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال اياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ويمحق الاجر ثم تلا

والى هذا فيما الذهبم واستوى ان ذلك مفض الى انقراض العلم
بانقراضهم وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الا انبيكم
انبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى يا رسول الله قال من لم
يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله ولا
يدع القرآن رغبة الى ما سواه الا لا خير في عبادة ليس
فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراة ليس فيها تدبر
فهذه جملة كافية والله تعالى ولي التوفيق

باب ادب الدين

اعلم ان الله سبحانه وتعالى انما كلف خلقه متعبداته والزمهم
مفترضاته وابتعث اليهم رسله وشرع لهم دينه لغير
حاجة دعته الى تكليفهم ولا ضرورة قادته الى تعبدهم وانما
قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى
عددا من نعمه بل النعمة فيما تعبدهم به اعظم لان نفع
ما سوى المتعبدات نفع مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات
يشتمل على نفع الدنيا والاخرة وما جمع نفعي الدنيا والاخرة كان
اعظم نعمة واكبر تفضلا وجعل ما تعبدهم به ماخوذا من
عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع الشرع
والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل لان الشرع لا يرد بما منع
منه العقل والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع ولذلك
توجه التكليف الى من كمل عقله فارسل رسوله بالهدى

ودين الحق ليظهره على الدين كله فبلغهم رسالته وألزمهم حجته
وبين لهم شريعته وتلا عليهم كتابه فيما أحله وحرمه
وأباحه وحظره واستحبه وكرهه وامر به ونهى عنه وما
وعد به من الثواب لمن أطاعه واوعد به من العقاب لمن عصاه
فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لان الرغبة تبعث على الطاعة
والرهبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع امرا بطاعة ونهيا
عن معصية فلذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة
وكان ما تخلل كتابه من قصص الامم السالفة واخبار القرون
الخالية عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة
فكان ذلك من لطف الله بنا وتفضله علينا فلله الحمد الذي نعمه
لا تحصى وشكره لا يؤدى ثم جعل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بيان ما كان مجملا وتفسير ما كان مشكلا وتحقيق ما كان محتملا
ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة
التفويض اليه قال الله تعالى وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل
اليهم ولعلهم يتفكرون ثم جعل الى العلما بعد رسوله
استنباط ما نبه على معانيه واشار الى اصوله ليتوصلوا بالاجتهاد
فيه الى علم المراد فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب
اجتهادهم قال الله تعالى يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا
العلم درجات وقال وما يعلم تاويله الا الله والراسخون في العلم
فصار الكتاب اصلا والسنة فرعا واستنباط العلما ايضاحا وكشفا

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال القران اصل الشريعة نصه وفحواه
ودليله ومجمله بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم والامة المجمعة حجة
على من شذ عنها ثم كان من رافته بخلقه وتفضله على عباده
ان اقدرهم على ما كلفهم ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم
ليكونوا مع ما قد اعده لهم ناهضين بفعل الطاعات ومجانبة
المعاصي قال الله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها وقال وما
جعل عليكم في الدين من حرج وجعل ما كلفهم ثلثة اقسام
قسما امرهم باعتقاده وقسما امرهم بفعله وقسما امرهم بالكف
عنه ليكون اختلاف جهات التكليف ابعث على قبوله واعون
على فعله حكمة منه ولطفا وجعل ما امرهم باعتقاده قسمين
قسما اثباتا وقسما نفيا فاما الاثبات فاثبات توحيده وصفاته
وبعثة رسله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به واما
النفي فنفي الصاحبة والولد والحاجة والقبائح اجمع وهذان القسمان
هما اول ما كلفه العاقل وجعل ما امرهم بفعله ثلثة اقسام
قسما على ابدانهم كالصلوة والصيام وقسما في اموالهم كالزكوة والكفارات
وقسما على ابدانهم وفي اموالهم كالحج والجهاد ليسهل عليهم فعله ويخف
عنهم اداوه نظرا منه لهم وتفضلا منه عليهم وجعل ما امرهم
بالكف عنه ثلثة اقسام قسما لاحيا نفوسهم وصلاح ابدانهم
كنهيه عن القتل واكل الخبائث والسموم وشرب الخمور المودية الى فساد
العقول وزوالها وقسما لايتلافهم وصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغصب

والغلبة والظلم والسرق المفضي الى القطيعة والبغضا وفيما لحفظ
انسابهم كنهيه عن الزناء ونكاح ذوات المحارم وكانت نعمته فيما حظره
علينا كنعمته فيما اباحه لنا وتفضله فيما كفنا عنه كتفضله فيما امرنا
به وهو نعمه فهل يجد العاقل في رويته مساغا
ان ينقص فيما امر به وهو نعمه عليه او يرى فسحه في ارتكاب
ما نهي عنه وهو تفضل عليه وهل يكون من انعم عليه نعمة فاهملها
فاهملها مع شدة فاقته اليها الا مذموما في العقل مع ما جاء من وعيد
الشرع ثم من لطفه بخلقه وتفضله على عباده ان جعل لهم
من جنس كل فريضة نفلا وجعل لها من الثواب قسطا وندبهم اليه
ندبا وجعل لهم بالحسنة عشرا لتضاعف ثواب فاعله ورفع العقاب
عن تاركه ومن لطيف حكمته ان
جعل لكل عبادة حالتين حالة كمال وحالة جواز رفقا منه
بخلقه لما سبق في علمه ان فيهم العجل المبادر والبطي المتثاقل
ومن لا صبر له على اداء الاكمل ليكون ما اخل به من هيات عبادته
غير قادح في فرض ولا مانع من اجر وكان ذلك من نعمه علينا
وحسن نظره لنا وكان اول ما فرض بعد تصديق نبيه
عبادات الابدان وقدمها على ما يتعلق بالاموال لان النفوس على
الاموال اشح وبما يتعلق بالابدان اسمح وذلك الصلوة والصيام
فقدم فرض الصلوة على الصيام لان الصلوة اسهل فعلا وايسر
عملا وجعلها مشتملة على خضوع له وابتهال اليه فالخضوع

له رهبة منه والابتهال اليه رغبة فيه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم
اذا قام احدكم الى الصلوة فانما يناجي ربه فلينظر احدكم بم يناجيه
وروي عن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه انه كان كلما دخل
وقت الصلوة اصفر مرة واحمر اخرى فقيل له في ذلك فقال
اتتني الامانة التي عرضت على السماوات والارض والجبال فابين ان
يحملنها واشفقن منها وحملتها انا ولا ادري اسيئ فيها ام احسن
ثم جعل لها شروطا لازمة من رفع حدث وازالة نجس
لتستديم النظافة للقاء ربه والطهارة لاداء فرضه ثم ضمنها
تلاوة كتابه المنزل ليتدبر ما فيه من اوامره ونواهيه ويعتبر
ويعتبر اعجاز لفظه ومعانيه ثم علقها باوقات راتبة وازمان
مترادفة ليكون ترادف زمانها وتتابع اوقاتها سببا لاستدامة
الخضوع له والابتهال اليه ولا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة
فيه فاذا لم تنقطع الرهبة والرغبة استدام صلاح الخلق و
بحسب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاؤها على الكمال والتقصير
فيها عن حال الجواز وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
الصلوة مكيال فمن وفى وفي له ومن طفف فقد علمتم ما قال
الله تعالى في المطففين وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من هانت
عليه صلوته كانت على الله اهون وانشدت لبعض الشعرا
اقبل على صلواتك الخمس . كم مصبح وعساه لا يمسي
واستقبل اليوم الجديد بتوبة . تمحو ذنوب صبيحة الامس

وليفعلن بوجهك الغض البلي . فعل الظلام بغرة الشمس .
ثم فرض الله الصيام وقدمه على زكوة الاموال لتعلق الصيام
بالابدان فكان في ايجابه حثا على رحمة الفقرا واطعامهم وسد
جوعاتهم لما قد عانوه من شدة المجاعة في صومهم وقد قيل ليوسف
عليه السلام لم تجوع وانت على خزاين الارض قال اخاف ان اشبع فانسى
الجياع ثم لما كان في الصوم من قهر النفوس واذلالها
وكسر الشهوة المستولية عليها واشعار النفس ما هي عليه من الحاجه
الى يسير الطعام والشراب والمحتاج الى الشي ذليل له بهذا احتج
الله تعالى على من اتخذ عيسى وامه الهين من دونه فقال ما المسيح
ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا ياكلان
الطعام فجعل حاجتهما الى الطعام نقصا فيهما عن ان يكونا
الاهين وقد وصف الحسن البصري رحمه الله في قصصه نقص ابن
الانسان بالطعام وغيره فقال مسكين ابن ادم مكتوم الاجل مكتوم
الامل تؤذيه البقة وتنتنه العرقة وتقتله الشرقة ولا يملك
لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حيوة ولا نشورا فانظر الى
لطفه بنا فيما اوجبه من الصيام علينا كيف ايقظ العقول له وقد
كانت عنه غافلة او متغافلة وجمع قمع النفوس به ولم تكن لولاه
منقمعة ولا نافعة ثم فرض زكوة الاموال وقدمها
على فرض الحج لان في الحج مع انفاق المال سفرا شاقا وكانت
النفوس الى الزكوة اسرع اجابة منها الى الحج فكان في ايجابها مواساتا

ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وروى محمد بن ابرهيم
التيمي عن عروة بن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال السخي قريب
من الله قريب من الجنه قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد
من الله بعيد من الجنه بعيد من الناس قريب من النار وقال
صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم رفع الله عن ابيك العذاب الشديد
لسخاوة نفسه وبلغه عن الزبير امساك بعد ما عظمت نعمة الله عليه وقال يا
زبير اني رسول الله اليك والى غيرك يقول الله انفق انفق
ولا توك فيوكى عليك وروى ابو الدردا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما من يوم غربت فيه شمسه الا وملكان يناديان اللهم اعط
منفقا خلفا وممسكا تلفا وانزل في ذلك القران فاما من اعطى
واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى
وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى قال ابن عباس من اعطى فيما
امر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعني الخلف من عطايه
فعندها قال ابن عباس سادة الناس في الدنيا الاسخيا وفي
الاخرة الاتقيا وقيل في منثور الحكم الجود عز موجود
وقيل في المثل سودد بلا جود كملك بلا جنود وقال بعض
الحكما الجود حارس الاعراض وقال بعض الادبا من جاد ساد
ومن اضعف ازداد وقال بعض البلغا جود الرجل يحببه الى
اضداده وبخله يبغضه الى اولاده وقال بعض الحكما خير
الاموال ما استرق حرا وخير الاعمال ما استحق شكرا

وقال صالح بن عبد القدوس

ويظهر عيب المرء للناس بخله * ويستره عنهم جميعا سخاؤه
تغط باثواب السخا فانني * ارى كل عيب والسخا غطاؤه

وحد السخا بذل ما يحتاج اليه عند الحاجه وان يوصل الى
مستحقه بقدر الطاقه وتحديد ذلك مستصعب ولعل بعض
من يحب الى ان ينسب الى الكرم ينكر حد السخا ويجعل تقدير
العطيه نوعا من البخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف
يفضي الى الجهل بحدود الفضايل ولو كان حد الجود بذل الموجود
لما كان للشرف موضع ولا للتدبير موقع وقد ورد الكتاب بذمها
وجات السنه بالنهي عنها واذا كان السخا محدودا فمن وقف على
حده سمي كريما وكان للحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا
وللذم مستوجبا قال الله تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما اتاهم
الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا
به يوم القيامه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقسم الله
بعزته لا يجاورني بخيل وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال طعام
الجواد دوا وطعام البخيل دا وسمع صلى الله عليه وسلم
رجلا يقول الشحيح اعذر من الظالم فقال لعن الله الشحيح
ولعن الظالم وقال بعض الحكما البخل جلباب المسكنه وقال
بعض الادبا البخيل ليس له خليل وقال بعض البلغا البخيل حارس
نعمته وخازن ورثته وقال بعض الشعرا

اذا كنت جماعا لمالك ممسكا * فانت عليه خازن وامين
تؤديه مذموما الى غير حامد * فياكله عفوا وانت دفين

وتظاهر بعض ذوي النباهة بعيب الشح مع امساك فيه فقال بعض الشعرا فيه

اراك تؤمل حسن الثنا * ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود اخو بطنة * يمن كثيرا ويعطي قليلا

وقد يجتمعا في حب الثنا وحب المال ان حب الثنا يبعث على البذل
وحب المال يمنع منه فان ظهرا كان حب المال كاذبا وقال بعض الشعرا

جمعت امرين ضاع الحزم بينهما * تيه الملوك واخلاق المماليك
اردت شكرا بلا بر ولا صلة * لقد سلكت طريقا غير مسلوك
ظننت عرضك لم يقرع بقارعة * وما اراك على حال بمتروك
لئن سبقت الى مال حظيت به * فما سبقت الى شي سوا النوك

وقد يحدث عن البخل من الاخلاق المذمومه وان كان ذريعه
الى كل مذمومه اربعه اخلاق ناهيك بها ذما وهي الحرص والشره
وسوء الظن ومنع الحقوق فاما الحرص فهو شدة الكدح والاسراف
في الطلب واما الشره فهو استقلال الكفايه والاستكثار لغير
حاجه وهذا فرق بين الحرص والشره وقد روي عن العلا بن
جرير عن سالم بن مسروق قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم
يغنه من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يغنيه وقال بعض
الحكما الشره من غرائز اللوم واما سوء الظن فهو عدم الثقه
بمن هو لها اهل فان كانت بالخالق كانت شكا يؤول الى ضلال

وان كانت بالمخلوق كانت استعانته نصيحة بها تحشما وخوانا الا
يظن الانسان بغيره الا بحسب ما يراه من نفسه فان وجد فيها
خيرا ظنه في غيره وان رأى فيها سوءا اعتقده في الناس
فقد قيل في المثل كل اناء ينضح بما فيه فان قيل فقد تقدم
من قول الحكما من الحزم سوء الظن قيل تاويله قلة الاسترسال
اليهم لا اعتقاد السوء فيهم واما منع الحقوق فان نفس البخيل
لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد الى ترك مطلوبها فلا تذعن
لحق ولا تجيب الى انصاف واذا آل البخيل الى ما وصفنا من هذه
الاخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجو ولا
صلاح مأمول وقد روي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للانصار من
سيدكم قالوا   على بخل فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم واي داء
أدوى من البخل قالوا وكيف ذاك يا رسول الله قال ان قوما
نزلوا بساحل البحر فكره البخلهم نزول الضيف بهم فقالوا ليبعد
الرجال منا عن النساء حتى تعتذر الرجال عن الاضياف ببعد
النساء وتعتذر النساء ببعد الرجال ففعلوا وطال ذلك بهم واشتغل
الرجال بالرجال والنساء بالنساء واما السرف والتبذير فان من
زاد على حد السخاء فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير قال
الله تعالى ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال ما عال مقتصد وقال المأمون لا خير في السرف ولا سرف
في الخير وقال بعض الحكما صديق الرجل قصده وسرفه عدوه

وقال أحيحة بن الجلاح

رزقت لبا ولم أرزق مروته ● وما المروة الا كثرة المال
اذا اردت مساماة تقاعدني ● عما ينوه باسمي رقة الحال

واما صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال في الاستعانة فلان
المنة في استرقاق الاحرار تحدث ذلة في الممنون عليه وسطوة في
المان به والاسترسال في الاستعانة تثقيل ومن ثقل على الناس هان
ولا قدر عندهم لمهان قال رجل لعمر بن الخطاب خدمك
بنوك قال اغناني الله عنهم وقال علي بن ابي طالب لابنه
الحسن في وصيته له ان استطعت ان لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة
فافعل فلا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا فان اليسير من الله
اكرم واعظم من الكثير من غيره وان كان كل منه وقال زياد
لبعض الدهاقين ما المروة فيكم قال اجتناب الريب فانه لا ينبل مريب
واصلاح الرجل ماله فانه من مروته وقيامه بحوائجه وحوائج اهله فانه
لا ينبل من احتاج الى اهله ولا من احتاج اهله الى غيره وانشد ثعلب

من عف خف على الصديق لقاؤه ● واخو الحوائج وجهه مملول
واخوك من وفرت ما في كيسه ● فاذا عبثت به فانت ثقيل

ولئن كان الناس لحمة لا يستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن المساعدة
والتظافر فانما ذلك تعاون ائتلاف يتكافأون فيه ولا يتفاضلون وربما
كان المستعين فيه متفضلا والمعين متفضلا كاستعانة السلطان بجنده
والزارع باكرته فليس من هذا بد ولا باحد عنه غنى وانما الذي

يتصونون عند الكرام تعاون التفضل فينقبضوا عن ان يستعينوا لئلا يكون
عليهم يد ويسارعون الى ان يعينوا لأن تكون لهم يد ومن اقدم من غير
اضطرار على الاستعانة بجاه او بمال فقد اوهن مروته واستبذل
صيانته ومن دعاه الاضطرار لنايبة الم او حادث هجم الى الاستعانة
بمن يتنفس به من خناق كربه ويتخلص من وثاق نوايبه فلا لوم على مضطر
فان اغناه الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال فلا عذر له في التعرض
للمال وليعدل الى ولاة الامور فان الحوايج عندهم انجح وهي عليهم
اسهل وهم لذلك مندوبون فهم لا يجدون له مسا ولا يصعب على انطاقهم
فان تراكم الامور عليهم يشغلهم الا عن الملح الصبور ولذلك قيل
قدم لحاجتك بعض لجاجتك وقد تقدم من قول الحكماء ان السلطان
على قوم نسيم وعلى قوم سموم وقال عبد الله بن المعتز من
صحب السلطان فليصبر على قسوته كصبر الغواص على ملوحة بحره
وقال ابن سيارة سحيم بن الاعرف

تعد قرابة وتعد صهرا * ويسعد بالقرابة من رعاها
وما زناك عن عدم ولكن * يهش الى الامارة من رجاها
وأيا ما فعلت فان نفسي * تعد صلاح نفسك من غناها

فان تعذر عليه صلاح حاله الا بمال يستعين به على نوايبه كان له
مع الضرورة فسحة فيه لكن ان وجد قرضا مودودا لم ياخذه صلة
وجودا فان القرض مستسمح به في المروات هذا رسول الله صلى الله
عليه وسلم مع ما اعلى الله من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضا

ان يتعرض لانكاره ولكن لك الانكار لو كان الانكار يزيد المنهي عنه
اغراء بفعل المنكر وتماديا في الاستكثار منه قبح في العقل انكاره
والحالة الثانية ان يكون فعل المنكر من جماعة قد تظافرت عليه
وعصبة قد تحزبت ودعت اليه فقد اختلف الناس في وجوب
انكاره على مذاهب شتى فقالت طائفة من اصحاب الحديث واهل
الاثار لا يجب انكاره والاولى ان يكون كافا ممسكا ملازما لبيته
وادعا بين منكر ولا مستنصر وقالت طائفة اخرى ممن يقول
بظهور المنتظر لا يجب انكاره ولا التعرض لازالته الا ان يظهر
المنتظر فيتولى انكاره بنفسه ويكونوا حينئذ اعوانه وقالت
طائفة اخرى منهم الاصم لا يجوز للناس انكاره الا ان يجتمعوا على
امام عدل فيجب عليهم الانكار معه وقال جمهور المتكلمين
انكار ذلك واجب عليه والدفع عنه لازم على شروط في وجود
اعوان يصلحون له فاما مع عدم الاعوان فعلى الانسان الكف
لان الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض فيه وذلك قبيح في العقل
ان يتعرض له فهذه احكام ما امر الله به او حظره واتت
به زواجره من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يختلف من
احوال الامرين والمنهيين عنه ثم ليس يخلو حال الانسان
فيما امروا به ونهوا عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصي
من اربعة احوال فمنهم من يستجيب الى فعل الطاعات
ويكف عن ارتكاب المعاصي وهي اكمل احوال اهل الدين وافضل

صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين
روى محمد بن عبد الملك المدني عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديان لا يموت فكن
ما شئت وكما تدين تدان وقد قيل كل يحصد ما يزرع
ويجزى ما يصنع بل قالوا زرع يومك حصاد غدك ومنهم من
يمتنع من افعال الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي وهي اخبث
احوال المكلفين وشر صفات المتعبدين فهذا يستحق عقاب
اللاهي عن فعل ما امر به من طاعاته وعقاب المجتري على ما اقدم
من معاصيه وقد قال ابن شبرمة عجبت لمن يحتمي من الطيبات مخافة
الداء كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النار واخذ ذلك بعض
الشعراء فقال

جسمك بالحمية اخنيته ... مخافة البارد والحار
وكان اولى بك ان تحتمي ... من المعاصي حذر النار

وقال ابن ضبارة انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله اهون
من الصبر على عذاب الله وقال اخر اصبروا عباد الله على عمل
لا غنى بكم عن ثوابه واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه وقيل
للفضيل بن عياض رضي الله عنه قال كيف يرضى عني ولم ارضه وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقلعوا عن المعاصي قبل ان ياخذكم
الله فيدعكم هشيما الحت الكسر والبت القطع ومنهم من
يستجيب الى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي فهذا

وقد قال الشاعر

ولا تسألن امرا حاجة ... يحاول من ربها مثلها
فيترك ما كنت حملته ... ويبدا بحاجته قبلها

فهذا ما يختص بشروط المروة في نفسه فاما شروط
المروة في غيره فثلثة الموازرة والمياسرة والافضال فاما
الموازرة فنوعان احدهما الاسعاد بالجاه والثاني الاسعاف في
النوايب فاما الاسعاد بالجاه فقد يكون من الاعلى قدرا والانفذ
امرا وهو ارخص المكارم ثمنا والطف الصنايع موقعا وربما
كان اعظم من المال نفعا وهو الظل الذي يلجى اليه المضطر والحمى
الذي ياوي اليه الخايفون فان وطاه اتسع بكثرة الاجار والشيع
وان قبضه انقطع بنفور الغاشيه والتبع فهو بالبذل ينمي ويزيد
وبالكف ينقص ويبيد فلا عذر لمن منح جاها ان يبخل به فيكون
اسوا حالا من البخيل بماله لان البخيل بماله قد يعده لنوايبه ويستبقيه
للذاته ويسكنه لذريته وبضد ذلك من بخل بجاهه لانه قد
اضاعه بالشح وبذره بالبخل وحرم نفسه غنيمة مكنته وفرصة
قدرته فلم يعقبه الا ندما على فايت واسفا على ضايع ومقتا يستحكم
في النفوس وذما قد ينتشر في الناس وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال الخلق كلهم عيال الله عز وجل واحب خلق الله اليه احسنهم
صنيعا الى عياله وقال بعض الحكما اصنع الخير عند امكانه
يبقى لك حمده عند زوال ايامه واحسن والدولة لك يحسن

اليك والدولة عليك واجعل زمان رخايك عدة لزمان بلايك
وقال بعض البلغا علامة الاقبال اصطناع الرجال وقال
بعض الادبا بذل الجاه احد الحياتين وقال ابن الاعرابي
العرب تقول من أمّل امرًا هابه ومن جهل شيئًا عابه وبذل
الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وضده من ضده وليس
بذل الجاه التماس الحيابين لا مشكورًا وانما هو بايع جاهه ومعاوض
على نعم الله والاية فكان بالذم احق وانشد بعض اهل الادب
لعلي بن العباس الرومي

لا يبذل الحمد حين يبذله كمشتري الحمد او كمعتاضه
بل يفعل العرف حين يفعله لجوهر العرف لا لاعراضه

وعلى من أسعد بجاهه ثلثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمد بها
المزيد احدها ان يستسهل المعونة مسرورًا بها ولا يستثقلها كارهًا
فيكون بنعمة الله متبرمًا ولاحسانه متسخطا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤونة الناس عليه فمن لم
يحتمل تلك المؤونة عرض تلك النعمة للزوال والثاني مجانبة الاستطالة
وترك الامتنان فانهما من لوم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصنيع
واحباط الشكر وقد قيل للحكيم اليوناني من اضيق الناس
طريقًا واقلهم صديقًا قال من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال
عليهم بنفسه والثالث ان لا يعترض لمشكور سعيه تقريعًا بذنب
ولا توبيخًا على هفوة فلا يفي مضض التوبيخ بادراك النجح ويصير

ابها عرض فان المال يراد لصيانة الاعراض لا لابتذالها ولعز
النفوس لا لاذلالها وقد قال عبد الرحمن بن عوف يا حبذا
المال اصون به عرضي وارضي به ربي وقال ابو بشر الضرير

كفى حزنًا اني أروح واغتدي وما لي من مال اصون به عرضي
واكثر ما ألقى صديقي بمرحبًا وذلك لا يكفي صديقي ولا يرضي

وسئل ابن عائشة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوا الحوائج
من حسان الوجوه فقال معناه من احسن الوجوه التي تحل والثالث
ان يتانى في تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا
يناله زلل فان يسير المال مع حسن التقدير واصابة التدبير
اجدى نفعًا واحسن موقعًا من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير
كالبذر في الارض اذا روعي يسيره زكا وان أهمل كثيره اضمحل
وقد قال محمد بن علي الكمال في ثلث العفة في الدين والصبر على
النوائب وحسن التقدير في المعيشة وقيل لبعض الحكما فلان
غني فقال لا اعرف ذلك ما لم اعرف تدبيره في ماله فاذا استكمل
هذه الشروط بما يستمده من كفايته فقد ادى حق المروءة في نفسه
فسئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال العفة والحرفة وقال
لابنه يا بني لا تكن على احد كلًّا فانك تزداد بذلك ذلًّا واضرب
في الارض عودًا او بدًا ولا تأسفن لمال كان فذهب ولا تعجزن
عن الطلب لوصب ولا نصب فهذا حال اللازم وقد كان
ذوو الهمم العالية والنفوس الابية يرون ما وصل الى الانسان

كسبا أفضل مما وصل إليه إرثا لأنه في الإرث مجدود وفي غيره
وبالكسب مجد على غيره وفرق ما بينهما في الفضل ظاهر وقال الشاعر

لا استلذ العيش لم اطلب له • طلبا وسعيا في الهواجر والغلس
وأرى حراما أن يواتيني الغنا • حتى يحاول بالعناء ويلتمس
فاصرف نوالك عن اخيك موفرا • فالليث ليس يسيغ الا ما افترس

فاما الندب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة
فان الامر فيه معتبر بحال طالبه فان كان ممن تقاعد عن مراتب
الرؤسا وتقاصر عن مطاولة النظرا وانقبض عن منافسة الاكفا
فحسبه ما كفاه فليس في الزيادة الا شره ولا في الفضول الا نهم
وكلاهما مذموم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الرزق
ما يكفي وخير الذكر الخفي وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه
الدنيا كل على العاقل وقال عبد الله بن مسعود المستغني عن
الدنيا بالدنيا كالمطفئ النار بالتبن وقال بعض الحكما اصن
ما وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا لتجافيها عن الكرام وان كان
ممن قد سمي بعلو الهمم وتحركت فيه اريحية الكرم واثر ان يكون
مرموقا ومقدما وان يرى في النفوس مفخما ومعظما فالكفاية لا تقله
حتى يكون ماله فاضلا ونايله فايضا قيل لبعض العرب ما المروة
فيكم قال طعام ماكول ونايل مبذول وبشر مقبول وقال الاحنف
بن قيس

فلو مد سروي بمال كثير • لجدت وكنت له باذلا
فان المروة لا تستطاع • اذا لم يكن مالها فاضلا

فاذا انتكرت المكارم مرة • في مجلس انتم به فتقنعوا

ونعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله ان يكون
مستودعا في صنيع مشكور وبر من خور وقيل للبخيل لم
حبست مالك قال للنوايب قيل فقد نزلت بك وقال بعض الشعرا

مالك من مالك الا الذي • قدمت فابذل طايعا مالكا
تقول اعمالي ولو تنسوا • رايت اعمالك عمتا لكا

ثم قد اسقط حق نفسه ورفع اسباب شكره فصار بان لا حق
له من موشا مشكور واثما كاجود وقال ابو العتاهية

جزى البخيل علي صالحة • عني بخفته على ظهري
ما فاتني خير امرئ وضعت • عني يداه مؤونة الشكر

قال فاذا لم يمكن الرد في مثل هذه الحال سبيل نظر فان
كان التاخير مضرا اعجل بذله وقطع مطله وكانت اجابته
نعلا وقي له عملا وقال محمد بن حازم

ومنتظر سوالك بالعطايا • واشرف من عطاياه السوال
اذا لم ياتك المعروف طوعا • فدعه فالتنزه عنه مال

قال وان كان في الوقت مهلة وفي التاخير فسحة
فقد اختلف من اهب الفضل فيه فذهب بعضهم
الى ان الاولى تعجيل الوعد قولا ثم يعقبه الانجاز فعلا لم
ليكون السايل مسرورا بعاجل الوعد باجل الانجاز وقد
يكون السؤال مرهونا بالكرم ملحوظا بالوفا وقد روي عن النبي

صلى الله عليه وسلم انه قال العِدة عطيه وقال الفضل بن سهل لرجل سأله حاجة أعِدك اليوم وأحبوك غدًا بالانجاز لتذوق حلاوة الامل وابتهج بثواب الوفاء ووعد يحيى بن خالد رجلا بحاجة سأله اياها فقيل له تعِدُ وانت قادر فقال ان الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ولم ينتظر صاحبها نجاحها لم يجد سرورها لان الوعد طعم والانجاز طعام وليس مَن فاجأه طعام كمن [illegible] رايحته وتطعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع اليه وقال بعض البلغا اذا احسنت القول فاحسن الفعل ليجتمع لك مزية اللسان وثمرة الاحسان ولا تقل ما لا تفعل فانك لا تخلو في ذلك من ذنب تكسبه او عجز تلتزمه ومنهم من ذهب الى ان تعجيل البذل فعلا من غير وعد اولى وتقديمه من غير انتظار ولا ترقب اهنى وانما يقدم الوعد واحد من رجلين اما مُعوزٌ يحتاط بجدةٍ واما شحيح يروض نفسه بتوطيه وليس للوعد في غير هاتين الحالتين وجه يصح ولا رأي يتضح مع ما يعتوره الليل والنهار ويتقلب به الحال من يسار واعسار وقال بعض الشعرا

يا ايها الملك المقدم • من امره شرقا وغربا •
أمِنْ تختم صحيفتي • ما دام هذا الطين رطبا •
واعلم بان جفانه • مما يعيد السهل صعبا •

قالوا ولان في الرجوع عنه من الانكار وفي توقع الوعد من مرارة الانتظار وفي العود اليه من بذالة الاقتضا وذلة الاحتيا[ج] ما [illegible]

بِرّه ويوهن شكره وقد قال الشاعر •

ان الحوايج ربما أزرى بها • عند الذي تقضى له تطويلها •
فاذا اضمنت لصاحب لك حاجة • فاعلم بان تمامها تعجيلها •

والحال الثانيه ان يكون السايل غير مستوجب والمسئول غير متمكن ففي الرد فسحة وفي المنع عذر غير انه يلين عند الرد لينًا يقيه الذم [illegible] يدفع به اللوم فليس كل مقل يُعرف ولا كل معذور يُنصف وقال ابو العتاهيه يصف الناس

أيا ربّ ان الناس لا ينصفونني • فكيف وان انصفتهم ظلموني •
وان كان لي شيء تصدّوا لأخذه • وان جئت ابغي شيهم منعوني •
وان نالهم بذلي فلا شكر عندهم • وان انا لم ابذل لهم شتموني •
وان نكبتني نكبة فكهوا بها • وان صحبتني نعمة حسدوني •
سامنع قلبي أن يحنّ اليهم • وأحجب عنهم ناظري وجفوني •
وأقطع ايامي بيوم سهولة • اقضي بها عمري ويوم حزون •
ألا إن أصفى العيش ما طاب عيشه • وما نلته من لذة وسكون •

والحال الثالثه ان يكون السايل مستوجبا والمسئول غير متمكن فياتي بالحمل على النفس ما امكن من يسير يتدخله ويدفع مذمه او يوضح من اعذار المعوزين وتوجع المتاملين ما يجعله في المنع معذورا وبالتوجع مشكورا كما قال ابو النصر العتبي

الله يعلم اني لست ذا بخل • ولست ملتمسا في البخل لي عللا •
لكن طاقة مثلي غير خافية • والنمل يعذر في القدر الذي حملا •

وربما حسد بحدوث النعمة بعد تقدم القدرة على فوت الصنيعة
وزوال العادة حتى صار اوفى حسدا او ازيد كمدا كما قال بعض الشعرا

وكنت كبازي السو قص جناحه • يرى حسرات كلما طار طائر
يرى طائرات الجو يخفقن حوله • فيذكر اذ ريش الجناح وافر

والحالة الرابعة ان يكون السائل غير مستوجب والمسئول متمكنا
وعلى البذل قادرا فيبطر فان خاف بالمدح [illegible]
بمحض كان الى البذل منه وباصابته لاجودا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال ما وقى به المرء عرضه فهو صدقة وان امن ذلك وسلم
منه فمن الناس من غلب المسئلة وامر بالبذل لئلا يقابل الرجا
بالخيبة والامل باليأس ثم لما فيه من اعتياد الرد واستسهال
المنع وكما ان اعتياد البذل مفض الى السخا كذلك اعتياد
المنع مفض الى الشح وانشد الاصمعي عن الكسائي

كانك في الكتاب وجدت لا لا • محرمة عليك فلا تحل
فما تدري اذا اعطيت مالا • اانت اكثر من سماحك ام تقل
اذا حضر الشتا فانت شمس • وان حضر الصيف فانت ظل

ومن الناس من اعتبر الاسباب وغلب حال السائل وندب الى
المنع اذا كان العطا في غير حق ليقوى على الحقوق واذا عرضت
ولا يعجز عنها اذا لزمت وتعينت وقال بعض الشعرا

لا تجد بالعطا في غير حق • ليس في منع غير ذي الحق بخل
انما الجود ان تجود على من • هو للجود والندى منك اهل

فاما من اجاب السؤال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده
مرتهنا وصار وفاؤه بالوعد مقرونا ولا اعتبار باستحقاق
السائل بعد الوعد ولا سبيل الى مراجعة نفسه في الرد فيستوجب
مع ذم المنع لوم المخلف ومقت الغادر وهجنة الكذوب ثم لا
سبيل الى مطله بعد الوعد لما في الوعد من تكدير الصنيع
وتمحيق الشكر والعرف تقول في امثالها المطل احد المنعين
واليأس احد النجحين وقال بشار بن برد

اظلت علينا منك يوما غمامة • اضات لنا برقا وابطا رشاشها
فلا غيمها يجلى فييأس طامع • ولا غيثها ياتي فيروى عطاشها

ثم اذا انجز وعده ووفى بعهده لم يتبع نفسه ما اعطى
وسر ان كانت يده العليا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اليد العليا
خير من اليد السفلى وقد قال الشاعر

وانك لا تدري اذا جا سائل • اانت بما تعطيه ام هو اسعد
عسى سائل ذو حاجة ان منعته • من اليوم سؤلا ان يكون له غد

وليكن من شروطه اذا كانت الارزاق مقدرة ان يكون على
يده جارية ومن جهته واصلة لا تنتقل عنه بمنع ولا تتحول عنه
بياس وحكي ان رجلا شكى كثرة عياله الى بعض الزهاد فقال
انظر من كان منهم ليس رزقه على الله فحوله الى منزلي وقال
ابن سيرين لرجل كان ماتيه على دابة فقال ما فعل برذونك قال
اشتدت علي مؤنته فبعته قال اتراه خلف رزقه عندك وهو

وقال ابن الرومي رحمه الله

ان لله غير من عاك مرعى ... نرتعيه وغير ما يك ما

ان لله بالبرية لطفا ... سبق الامهات والاباء

ثم ليكن غالب عطايه لله واكثر قصده ابتغا ما عند الله كالذي حكاه ابو بكره عن عمر بن الخطاب رض

ان اعرابيا اتاه فقال ... يا عمر الخير جزيت الجنه

اكس بنياتي وامهنه ... وكن لنا من الزمان جنه

اقسم بالله لتفعلنه ... فقال عمر ان لم افعل يكون

ماذا فقال ... اذا ابا حفص لاذهبنه

قال فاذا ذهبت يكون ماذا فقال

تكون عن حالي لتسالنه ... يوم تكون الاعطيات هنه

وموقف المسئول بينهنه ... اما الى نار واما جنه

فبكى عمر حتى اخضل لحيته ثم قال يا غلام اعطه قيصي هذا لذلك اليوم لا لشعره اما والله لا املك غيره واذا كان العطا على هذا الوجه خلا من طلب جزاء وشكر وعري عن امتنان ونشر فكان ذلك اشرف للباذل واهنى للقابل واما المعطي اذا التمس بعطايه الجزا وطلب به الشكر والثنا فخارج بعطايه عن حكم السخا لانه ان طلب به الشكر والثنا كان صاحب سمعة وريا وفي هذين من الذم ما ينافي السخا وان طلب به الجزا كان تاجرا متربحا

لا يستحق حمدا ولا ذما وقد قال ابن عباس في تاويل قوله تعالى ولا تمنن تستكثر انه الذي يعطي عطيه يلتمس بها افضل منها وكان الحسن البصري يقول في تاويل ذلك لا تمنن بعملك تستكثر على ربك وقال بعضهم

وليست يد اوليتها بغنيمة ... اذا كنت تبغي ان يعد لها شكرا

غنى المرء ما يكفيه من سد حاجة ... فان زاد شيا عاد ذاك الغنى فقرا

واعلم ان الكريم يجتدى بالكرامة واللطف واللئيم يجتدى بالمهانة والعنف فلا يجود الا خوفا ولا يجيب الا عنفا وقال بعضهم

رايتك مثل الجوز يمنع لبه ... صحيحا ويعطي خيره حين يكسر

واحذر ان تكون المهانة طريقا الى اجتدايك والخوف سبيلا الى عطايك فيجري عليك سفه الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك كرما ورغبا لا لوما ورهبا كي لا تكون مع الوصمة كما قال العباس بن الاحنف

صرت كاني ذبالة نصبت ... تضي للناس وهي تحترق

واما النوع الثاني من البر فهو المعروف ويتنوع ايضا نوعين قول وعمل فاما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب ان يكون محدودا كالسخا فانه ان اسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسطه واقتصد فيه كان معروفا وبرا

محمودا وقد قال ابن عباس في تاويل قوله تعالى والباقيات الصالحات
خير عند ربك ثوابا وخير املا انها الكلام الطيب وكان
سعيد بن جبير يتاول انها الصلوات الخمس وروى ابو سعيد عن
ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انكم لن تسعوا الناس
باموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق وروي
ان النبي صلى الله عليه وسلم انشد عنده اعرابي فقال

حيّ ذوي الاضغان تسب قلوبهم * تحيتك الحسنى فقد ترقع النغل
وان دجنوا بالمكر فاعف تكرما * وان يخنسوا عنك الحديث فلا تسل
فان الذي يوذيك منه سماعه * وان الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكما وان من البيان لسحرا
وقيل للعتابي انك تلقى العامه ببشر وتقريب قال دفع ضغينه
بايسر مؤونه واكتساب اخوان باهون مبذول وقيل في منثور
الحكم من قل حياؤه قل احباؤه وقال بعض الشعراء

بني ان البر شيء هين * وجه طليق وكلام لين

وقال بعضهم

المرء لا يعرف مقداره * ما لم تبن للناس افعاله
وكل من ينفعني بشره * فقل ما ينفعني ماله

واما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والمعونه في النائبه وهذا
يبعث عليه حب الخير للناس وايثار الصلاح لهم وليس في
هذه الامور سرف ولا لغايتها حد بخلاف النوع الاول لانها
وان كثرت فهي افعال خير تعود بنفعين نفع على فاعلها

في اكتساب الاجر وجميل الذكر ونفع على المعان بها في التخفيف
عنه والمساعدة له وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر ان
النبي صلى الله عليه وسلم قال كل معروف صدقة وقال النبي صلى الله عليه وسلم
المعروف كاسمه واول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف واهله
وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه لا يزهدنك في
المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر باضعاف كفر الكافر
وقال الحطيئه

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه * لا يذهب العرف بين الله والناس

وانشدني الرياشي

يد المعروف غنم حيث كانت * تحملها كفور او شكور
ففي شكر الشكور لها جزاء * وعند الله ما كفر الكفور

فينبغي لمن قدر على ابتداء المعروف ان يعجله حذرا من فواته
ويبادر به خيفة عجزه ويعلم انه من فرص زمانه وغنائم امكانه
ولا يمهله ثقة بالقدرة عليه فكم واثق بقدرة فاتت فاعقبت ندما
ومعول على مكنة زالت فاورثت خجلا كما قال الشاعر

ما زلت اسمع كم من واثق خجل * حتى ابتليت فكنت الواثق الخجلا

ولو فطن لنوائب دهره وتحفظ من عواقب مكره لكانت مغانمه
[illegible] ومغارمه مجبورة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
[illegible] من فتح له باب خير فلينتهزه فانه لا يدري متى يغلق عنه
[illegible] الله عليه وسلم انه قال لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف

وحكي

تعجيل السراج وقيل لانوشروان ما اعظم المصائب عندكم
فقال ان نقدر على المعروف فلا نصطنعه حتى يفوت وقال عبد
الحميد من اخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها وقال
بعض الشعرا في الاغتنام فان لكل خافقة

اذا هبت رياحك فاغتنمها * فعقبى كل خافقة سكون
ولا تغفل عن الاحسان فيها * فما تدري السكون متى يكون

وحكي ان بعض وزرا ابي العباس مطل ابا العينا في عمل
يستكفيه اياه فكتب اليه بعد طول المطل

أما بعد عوك طول الصبر مني * على اسبابنا فمنعني وشغلي
وعلمك ان ذا السلطان عاج * على خطرين من موت وعزل
بيأس منذ ان تركت قضا حقي * الى وقت التفرغ والتخلي
ستصبح نادما اسفا معري * على فوت الصنيعة عند مثلي

وكتب بعض ذوي الحرمات الى وال قصر في رعاية حرمته

أعلى الصراط تريد رعية حرمتي * ام في الحساب تمن بالانعام
للنفع في الدنيا اريدك فانتبه * لحوائجي من رقدة النوام

وكتب ابو علي البصير الى بعض الوزرا وقد اعتذر
اليه بكثرة الاشتغال

لنا كل يوم نوبة قد نحوبها * وليس لنا بر ولا عندنا فضل
فان تعتذر بالشغل عنا فانما * تناط بك الامال ما اتصل الشغل

واعلم ان المعروف

رسول الله كيف المخرج قال اقرضهم من عرضك ليوم فاقتك وقال
عبد الله بن عباس العاقل الكريم صديق كل احد الا من ضره والجاهل
اللئيم عدو كل احد الا من نفعه وقال بعض الحكما
شر ما في الكريم ان يمنعك خيره وخير ما في اللئيم ان يكف عنك
شره وقال بعض البلغا عداوة داوك وفي البعد منهم
دوا لك شفاء وقال بعض الادبا شرف الكريم تغافله عن
اللئيم ووصى بعض الحكما ابنه فقال يا بني اذا سلم الناس
منك فلا عليك ان لا تسلم منهم فانه قل ما اجتمع هاتان النعمتان
وقال عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة

والخير والشر مقرونان في قرن * فالخير متبع والشر محذور

والحالة الرابعة ان يكون صديقا فاقد التحدث نبوة
وتغيرا ولحاقد استحب جفوة وتنكرا فابدى صفحة عقوقه
واطرح لازم حقوقه وعدل عن بر الاخا الى جفوة الاعدا فهذا
تعرض في المودات المستقيمة كما تعرض الامراض في الاجسام السليمة
فان عولجت ابلت وان اهملت اسقمت ثم اتلفت ولذلك قال
بعض الحكما دوا المودة بكثرة التعاهد وقال كشاجم

اقل ذا الود عثرته وقفه * على سنن الطريق المستقيم
ولا تسرع بمعتبة اليه * فقد يهفو ونيته سليمة

ومن الناس من يرى ان متاركة الاخوان اذا تغيروا اصلح واطراحهم
اذا فسدوا اولى كاعضا الجسد اذا فسدت كان قطعها اسلم
ونشر بها سرت الى نفسه وكالثوب اذا اخلق كان اطراحه بالجديد
وحكي فقال سليمان بن

ما لحد بن احمد من لبسه وقال بعض الحكماء رغبتك فيمن يزهد
فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة وقال
بزرجمهر من تغير عليك في مودته فدعه حيث كان قبل معرفته

وقال الخبزارزي

صل من دنا وتناس من بعدا * لا تكرهن على الهوى احدا
قد اكثرت حوا اذ ولدت * فاذا جفا ولد فخذ ولدا

وهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف اخاؤه وساءت طرائقه
وضاقت خلائقه ولم يكن فيه صبر الاحتمال ولا صبر على الادلال
وعلوق صلى ازقابل على الجفوه وعاقب على الهفوه واطرح سالف
الحقوق وقابل على العقوق بالعقوق فلا بالفضل اخذ ولا
الى العفو اخلد وقد علم ان نفسه قد تطغى عليه فترديه وان
جسمه قد يسقم عليه فيؤلمه ويوذيه وهما اخص به والصق عليه
من صديق قد تميز بذاته وانفصل بادواته فيريد من غيره
لنفسه ما لا يجده من نفسه هذا عين المحال ومحض الجهل م
ان من لم يحتمل بقي فردا وانقلب الصديق فصار عدوا وعداوة
من كان صديقا اعظم من عداوة من لم يزل عدوا ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم أحبب حبيبك هونا ما وقال اوصاني
ربي بسبع بالاخلاص في السر والعلانيه وان اعفو عمن ظلمني
واعطي من حرمني واصل من قطعني وان يكون صمتي فكرا ونظري
عبرا ونطقي ذكرا وقال لقمان لابنه يا بني لا تترك صديقك
الاول فلا يطمئن اليك الثاني يا بني اتخذ الف صديق والف قليل

فان

ثم روى سعيد بن ابي سعيد عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال سددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة
وشيء من الدلجة وقال الشاعر

عليك باوساط الامور فانها * نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

واما الحالة الثانيه وهي ان يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره
من اربعه احوال احداهن ان يكون تقصيره لعذر اعجزه عنه
او مرض اضعفه عن اداء ما كلف منه فهذا يخرج عن حكم
المقصرين ويلحق باحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط
ما دخل تحت العجز وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
ما من عامل كان يعمل عملا فيقطعه عن ذلك العمل مرض الا وكل
الله به من يكتب له ثواب عمله والحالة الثانيه ان يكون
تقصيره اغترارا بالمسامحه فيه ورجاء العفو عنه فهذا مخادع
العقل مغرور بالجهل قد جعل الظن ذخرا والرجاء عدة فهو
كمن قطع سفرا بغير زاد ظنا منه بانه سيجده في المفاوز الجدبة
فيفضي به الظن الى الهلكه وهلا كان الحذر اغلب عليه وقد
ندب الله تعالى اليه وحكي عن اسرايل بن محمد القاضي قال
لقيني مجنون وكان يكون في خرابات فقال يا اسرايل خف الله
خوفا يشغلك عن الرجاء فان الرجاء يشغلك عن الخوف وفر الى الله
تعالى ولا تفر منه وقيل لمحمد بن واسع الا تتكي فقال
تلك جلسة الآمنين وحكي ان ابا حازم اخبر سليمان بن

عبد الملك بن عبد الله المرتبي قال سليمان فابن رحمة الله قال
قريب من المحسنين • وقال عبد الله بن عباس ما انتفعت ولا اتعظت
بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه الي علي بن ابي طالب
رضي الله عنه أما بعد فان الانسان يسره درك ما لم يكن
ليفوته ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك
فرحا ولا لما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الاخرة بغير عمل
ويؤخر التوبة بطول أمل فكأن قد والسلام وقال
محمود الوراق •

أخاف على المحسن المتقي • وأرجو لذوي الهفوة المنتي
فذلك خوفي على محسن • فكيف على الظالم المعتدي
على ان ذا الزيغ قد يستفيق • ويستأنف الزيغ قلب التقي

والحالة الثانية أن يكون تقصيره فيه ليستوفي ما اخل به من بعد
فيبدأ بالسيئة في التقصير قبل الحسنة في الاستيفاء اغترارا
بالامل في امهاله ورجاء لتلافي ما سلف من تقصيره واخلاله
فلا ينتهي به الامل الى غاية ولا ينتهي به الى نهاية لان الامل
في ثاني حال كهو في اول حال وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال من يأمل ان يعيش غدا فانه يأمل ان يعيش ابدا
ولعمري ان هذا صحيح لان لكل يوم غدا فاذا يفضي
به الامل الى الفوت من غير درك ويؤديه الرجا الى الاهمال
من غير تلاف فيصير الامل خيبة والرجا يأسا وروى

عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اول صلاح
هذه الامة باليقين والزهد وفسادها بالبخل والامل وقال
الحسن البصري ما أطال احد الامل الا أساء العمل وقال رجل
لبعض الزهاد بالبصرة ألك حاجة ببغداد قال ما احب ان أبسط
أملي حتى تذهب أنت وتجي الى بغداد وتجي وقال بعض الحكما
الجاهل يعتمد على امله والعاقل يعتمد على عمله وقال بعض
البلغا الامل كالسراب غر من رآه وخاب من رجاه وقال
محمد بن يزداد دخلت على المامون وكان يومئذ وزيره فرأيته
قائما وبيده رقعة فقال يا محمد أقرأت ما فيها فقلت هي في يد
امير المومنين فرمى بها الي فاذا فيها مكتوب •

انك في دار لها مهلة • يقبل فيها عمل العامل •
أما ترى الموت محيطا بها • يقطع فيها أمل الآمل •
تعجل الذنب لما تشتهي • وتأمل التوبة من قابل •
فالموت يأتي بعد ذا غفلة • ماذا بفعل الحازم العاقل •

قال فلما قرأتها قال المامون هذا من أحكم شعر قرأته
قال ابو حازم نحن لا نريد ان نموت حتى نتوب ونحن لا
نتوب حتى نموت وقال بعض البلغا الامهال رائد الاهمال
والحالة الثالثة أن يكون تقصيره فيه اهمالا استثقالا أو زهدا في
الثواب واقتصارا على ما سنح وقلة اكتراث بما بقي وهذا
على ثلاثة اضرب احدها ان يكون ما اخل به وقصر فيه

ظ العباده

غير قادح في فرض ولا مانعا من اجزا عباده لكن اقتصر من العباده على
فعل واجباتها ومفروضاتها واخل بمسنوناتها وهيئاتها فهذا مسيء فيما
ترك اساءة من لا يستحق وعيدا ولا يستوجب عقابا لان اداء الواجب
يسقط عنه العقاب واخلاله بالمسنون يمنع من اكمال الثواب وقد
قال بعض الحكما من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان وقال
الشاعر · ويصون ثوبيه ويترك غير ذلك لا يصونه ·
· واحق ما صان الفتى · وسعى امانته ودينه ·
والضرب الثاني ان يكون ما اخل به من مفروض عباداته له
لكن لا يقدح تركه ما بقي فيما مضى كمن اكمل عباده واخل بغيرها وهذه
وهذا اسوا حالا مما تقدمه لما استحقه من الوعيد واستوجبه من
العقاب والضرب الثالث ان يكون ما اخل به من مفروض
عباداته وهو قادح فيما عمل منها كالعباده التي يرتبط بعضها ببعض
فيكون المقصر في بعضها تاركا لجميعها فلا يحتسب له بما عمل لاخلاله بما
بقي وهذه اسوا احوال المقصرين ولاحقه باحوال التاركين بل
قد تكلف ما لا يسقط فرضا ولا يؤدي واجبا فقد ساوى التاركين
في استحقاق الوعيد وزاد عليهم وتكلف ما لا يفيد فصار من
الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحيوة الدنيا والاخره
ثم لعله لا يفطن لشانه ولا يشعر بخسرانه وقد خسر الدنيا والاخره
ويفطن للبيت من ماله ان وهى واختل وانشدني بعض اهل العلم
ابني ان من الرجال بهيمة · في صورة الرجل السميع المبصر ·

عن امتناع اهل البذا صان عرضه عن المثالب وحاله عرضه
للنوائب واذا استكف السفيه واستدفع البذي صان عرضه وحمى
نعمته وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما وقى المرء به عرضه
فهو صدقة وقالت عائشه رض ذبوا باموالكم عن احسابكم
وامتدح رجل الزهري فاعطاه قميصه فقال له رجل اتعطي
على كلام الشيطان فقال ان من ابتغاء الخير اتقاء الشر ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم من اراد بر الوالدين فليعط الشعرا
وهذا صحيح لان الشعر سائر يسب به ما ضمن من مدح او هجا
ولاجل ذلك قيل لا تواخ شاعرا فانه يمدحك بثمن ويهجوك
بثمن ويهجوك مجانا ولاستكفاف السفها بالافضال شرطان
احدهما ان يخفيه حتى لا ينتشر فيه مطامع السفها فيتوصلوا
الى اجتذابه بسببه الى ماله بثلبه والثاني ان يتطلب له في
المجامله وجها يجعله في الافضال عليه سببا لان لا يرى انه على
السفه قد اعطي ولاجل البذاء قد حبي فيغريه ذلك بزيادة
السفه وادامة البذاء واعلم انك ما حييت ملحوظ
المحاسن محفوظ المساوي ثم من بعد ذلك حديث منتشر لابر اقلك
صديق ولا يحامي عليك شفيق فكن احسن حديث ينتشر يكن سعيك
في الناس مشكورا واجرك عند الله مذخورا فقد روى زياد
بن الجراح عن عمرو بن ميمون الاودي قال قال رسول الله صلى الله عليه
اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك
وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحيوتك قبل موتك
وهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروه وان

كان كتابنا هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها

الفصل الثامن في آداب المشورة

اعلم أن الآداب مع اختلافها بتنقل الاحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وانما يذكر كل انسان ما بلغه الوسع من اداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو امكن ذلك لكان الاول قد اغنى الثاني عنها والمتقدم قد كفى المتأخر تكلفها وانما حظ الاخير أن يعاني حفظ الشارد وجمع المتفرق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت ما كان موافقا وينفي ما كان مخالفا ثم يستمد خاطره في استنباط زيادة واستخراج فايدة فان اسعف بشي فاز بدركه وحظي بفضيلته ثم يعبر عن ذلك كله ما كان مالوفا من كلام الوقت وعرف اهله فان لاهل كل عادة وقت في الكلام عادة تولف وعبارة تعرف ليكون اوقع في النفوس واسبق الى الافهام ثم يرتب ذلك على اوايله ومقدماته ويبنيه على اصوله وقواعده بحسب ما يقتضيه الحس فان لكل نوع من العلوم ترتيبا هي اوضح مسلكا واسهل ماخذا فهذه خمسة شروط هي حظ الاخير فيما يعانيه وكذا القول في كل تصنيف ولولا ذلك لكان تعاطي ما قدمه الاول عناءا ضايعا وتكلفا مستهجنا وأرجو أن يمدنا التوفيق لتادية هذه الشروط وتنهضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى نسلم من نقص التكلف ونبرا من عيب التقصير وان كان اليسير مغفورا والخاطي معذورا فقد قيل من صنف كتابا

واذى فيسا فقال الطبيب انما بين اوي المرضى لكن لا ينبغي ان يجعل ذلك طريقا الى الاسترسال وليكن للحذر عليه اغلب والى الخوف من تصديق التهم اقرب فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابعد خلق الله من الريب واصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب مسجده يحادثها وكان معتكفا فمر به رجلان من الانصار فلما رايا اسرعا فقال لهما على رسلكما انها صفية بنت حيي فقالا سبحان الله او يتخالجنا فيك شك يا رسول الله فقال مه ان الشيطان يجري من احدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت ان يقذف في قلوبكما سوءا فكيف بمن تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون فهل يعرى من مواقف الريب من قادح محقق ولائم مصدق وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا لم يشق المرء الا بما عمل فقد سعد واذا استعمل الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف مواقف اعتذار ولا عذر لمختان لم يختلج في نزاهته شك ولم يقدح في عرضه افك وقد قال الشاعر

أصونك أن أدل عليك ظنا ... فان الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هرون مؤونة التوقف ايسر من تكلف التعسف وقال بعض الحكماء من حسن ظنه بمن لا يخاف الله فهو مخدوع وانشد بعض اهل الادب لابي بكر الصولي

احسنت ظني باهل دهري ... فخسن ظني بهم رماني

لا آمن الناس بعد هذا ما الخوف الامن الامن
فهذه اشرط قد استوفينا فيه نوعي النزاهة واما الصيانة
وهي الثالث من شروط المروة فنوعان احدهما صيانة النفس بالتماس
كفايتها وتقدير مادتها والثاني صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال
في الاستعانة فاما التماس الكفاية وتقدير المادة فلان المحتاج الى
الناس مهتضم وذليل مستثقل وهو لما فطر عليه محتاج الى ما يستمده
ليقيم اود نفسه ويدفع ضرورة وقته ولذلك قالت العرب في
امثالها كلب جوال خير من اسد رابض ومما يستمده نوعان لازم
ونادب فاما اللازم فما اقام بالكفاية وافضى الى سد الخلة وعليه
في طلبه ثلثة شروط احدها استطابته من الوجوه المباحة و
وتوقي الوجوه المحظورة فان المواد المحرمة مستخبثة الاصول ممحوقة
الفروع ان صرفها في بر لم يوجر وان صرفها في مدح لم يثب ثم
هو لاوزارها محتقب وعليها معاقب وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم
لا يعجبنك رجل اكتسب مالا من غير حله فان انفقه لم يقبل منه
وان امسكه فهو زاده الى النار وقد قال بعض الحكماء شر
الاموال ما لزمك اثم مكتسبه وحرمت اجر انفاقه ونظر بعض
الخوارج الى رجل من اصحاب السلطان يتصدق على مسكين فقال
انظر اليهم حسناتهم من سيئاتهم وقال علي بن الجهم
شر من عاش ماله فاذا حا سبه الله سره الاعدام
والثاني طلبه من احسن جهاته التي لا يلحقه فيها غض ولا يتدنس

١٤٣

واذا كنت عن شكر نعمته عاجزا فكيف بك اذا قصرت فيما امرك
وفرطت فيما كلفك ونعمه اعود عليك لو فعلته هل تكون
لسوابغ نعمه الا كفورا وبهداية العقول الا مزجورا وقد قال
الله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها بقولهم انهم ورثوها
عن ابائهم واكتسبوها بافعالهم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال يقول الله تعالى يا ابن ادم ما انصفتني اتحبب اليك
بالنعم وتتمقت الي بالمعاصي خيري اليك نازل وشرك الي صاعد
كم من ملك كريم يصعد الي منك بعمل قبيح وقال بعض صلحا
السلف قد اصبح من نعم الله علينا ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه فلا
ندري ايهما نشكر اجميل ما ينشر ام قبيح ما يستر فحق على من عرف
موقع النعمة ان يقابلها ممتثلا لما كلف منها ويقي لها بما يكون بادائها
بشكر الله تعالى على ما انعم به من اسدائها فان بنا من الحاجة الى
نعمه اكثر مما كلفنا من نعمه فان نحن اديناحق النعمة في التكليف
فضل باتباع النعمة من غير جهة التكليف فلو من النعمتان ومن
فنه النعمتان فقد اوتي حظ الدنيا والاخرة وهذا هو
السعيد بالاطلاق وان قصرنا في اداء ما كلفنا من نعمه قصر عنا ما
لا تكليف فيه من نعمه فتفوت النعمتان ومن فوت النعمتان فقد
سلب حظ الدنيا والاخرة فلم يكن له في الحيوة حظ ولا في الموت راحة
وهذا هو الشقي بالاستحقاق ولا يختار الشقوة على السعادة
الا جاهل ولا عقل سليم وقد قال الله تعالى ليس بامانيكم ولا اماني

اهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به وروى الاعمش عن مسلم قال قال
ابو بكر يا رسول الله ما اشد هذه الاية من يعمل سوءا يجز به
فقال يا ابا بكر ان المصيبة في الدنيا جزا واختلف المفسرون
في تاويل قوله تعالى سنعذبهم مرتين فقال بعضهم احد
العذابين الفضيحة في الدنيا والثاني عذاب القبر وقال عبد الرحمن
بن زيد احد العذابين مصائبهم في الدنيا في اموالهم واولادهم وال
والثاني عذاب الاخرة في النار وليس وان نال اهل المعاصي لذة
من عيش او ادركوا امنية في دنيا كانت عليهم نعمة بل قد يكون
ذلك استدراجا ونقمة وروى ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن
عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رايت الله تعالى يعطي العباد
ما يشاؤون على معاصيهم اياه فانما ذلك استدراج منه لهم ثم تلا فلما
نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا
اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون فاما سائر المحرمات التي يمنع
الشرع منها واستقر التكليف عقلا وسمعا بالنهي عنها فتنقسم قسمين
منها ما تكون النفوس داعية اليها والشهوات باعثة عليها كالسفاح
وشرب الخمر فقد زجر الله عنها لقوة الباعث عليها وشدة ا
الباعث اليها بنوعين من الزجر احدهما حد عاجل يرتدع به الجري
والثاني وعيد آجل يزدجر به التقي ومنها ما تكون النفوس نا
نافرة منها والشهوات مصروفة عنها كاكل الخبائث والمستقذرات
وشرب السموم المتلفات فاقتصر الله تعالى عنها بالوعيد و

فبعض الامر تصلحه ببعض • فان الغث يحمله السمين •
ولا تعجل بظنك قبل خبر • فعند الخبر تنقطع الظنون •
ترى بين الرجال العين فضلا • وفيما اضمروا الفضل المبين •
كلون الماء مشتبها وليست • تخبر عن مذاقته العيون •
والثاني ان تعتمد ما اجترم من كبائره وتقصد ما اجترح من
مساوئه فلا يخلو حاله فيما اتاه من احوال اربعة فالحال
الاولى ان يكون موتورا قد قاتل على ترته وكافا على مساءته
فاللائمة على من وتره عائدة والى البادي بها راجعة لان
المكافي اعذر وان كان الصفح اجمل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم
اياكم والمشاورة فانها تميت الغرة وتحيي العرة وقال بعض
الحكماء من فعل ما شاء لقي ما لم يشا وقال بعض الادباء من
نالته اساءتك همته مساءتك وقال بعض البلغاء من ابلغ
بقبح المعاملة اوجع بقبح المقابلة وقال صالح بن عبد القدوس
اذا وترت امرا فاحذر عداوته • من يزرع الشوك لم يحصد به عنبا
ان العدو وان ابدى مسالمة • اذا راى منك يوما فرصة وثبا
والاغضاء عن هذا الذنب اوجب وان لم تكن المكافاة ذنبا لانه
قد ترك عقبى اساءته فان واصل الشر واصلته المكافاة وقد
قيل باعث الشر يعترك وحسن النصفة يكثر الواصلون
وقال بعض الحكماء من كنت سببا لبلائه وجب عليك التلطف
له في علاجه من دائه وقال زهير
اذا انت لم تعرض عن الجهل والخنا • اصبت حليما او اصابك جاهل
والحالة الثانية ان يكون عدوا قد استحكمت شحناء

والام الاولة

واستوعرت شراؤه واستخشنت ضراؤه فهو يتربص بك وانى الدهر
انتهاز فرصه ويتجرع لمهابة العجز مرارة غصصه فاذا ظفر بنايبة
ساعدها وان شاهد نعمة عاندها فالبعد منه حذرا اسلم والكف
عنه متاركة اغنم فانه لا يسلم من عواقب شره ولا يفلت من غوايل
مكره وقد قالت الحكما لا تتعرض لعدوك في دولته فاذا زالت
كفيت شره وقد قال لقمان لابنه يا بني كذب من قال ان الشر
بالشر يطفا فان كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفي
احداهما الاخرى وانما يطفي الخير الشر كما يطفي الما النار
وقال جعفر بن محمد عليهما الرضوان كفاك من الله نصرا ان
ترى عدوك يعصي الله فيك وقال بعض الادبا بالسيرة
العادلة يقهر المعادي وقال البحتري

فاقسم لا اجزيك بالشر مثله كفى بالذي جازيتني لك جازيا

والحال الثالثة ان يكون لئيم الطبع خبيث الاصل قد اغراه
لوم الطبع على سوء الاعتقاد وبعثه خبث الاصل على ايثار
الفساد فهو لا يستقبح الشر ولا يكف عن المكروه فهذه الحال
اعظم لان الاضرار بها اعم ولا سلامة من مثله الا بالبعد
والانقباض ولا خلاص منه الا بالصفح والاعراض فانه كالسبع
الضاري في سوارح النعم وكالنار المتاججة في يابس الحطب
لا ينتهي بها الا تالف ولا يبقى منها الا هالك روى مكحول
عن ابي امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الناس كشجرة ذات
جنى ويوشك ان يعودوا كشجرة ذات شوك ان ناقدتهم ناقدوك و
[illegible]بت عنهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يا [illegible]

Copyright © King Saud University